عبد الوهاب مطاوع
سائح فى دنيا الله
الدار المصرية اللبنانية

سائح فى دنيا الله

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت تليفون: 3910250- فاكس: 3909618
– ص.ب 2022 – برقيا دار شادو – القاهرة
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com
تجهيزات فنية: الإسـراء ت: 3143632
طبع: أمـون ت: 7944517-7944356
رقم الإيداع: 3853 / 2004
الترقيم الدولي: 5 - 834 - 270 - 977

الطبعة الثانية والطبعة الأولى
للدار المصرية اللبنانية
ذو الحجة 1424هـ - فبراير 2004 م

عبد الوهاب مطاوع

سائح فى دنيا الله

«طبعة مزيدة منقحة»

الدار المصرية اللبنانية



بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب

الدهشة بداية المعرفة!

هكذا قال أرسطو. . .

وهكذا أثبتت لى أيضًا تجربة الأيام. . فهى التى تدفعك للسؤال عما استلفت نظرك وأثار دهشتك، فتتلقى الجواب وتضيف إلى معارفك الجديد. . والمفيد. . ولقد طوفت شرق البلاد وغربها مفتوح الفم من الدهشة لكل شىء أراه. . وأسمعه. . وسألت آلاف الأسئلة. . وتلقيت آلاف الأجوبة من الأشخاص. . والكتب ودوائر المعارف، فعرفت أشياء لم أكن لأعرفها، لو لم أندهش لما رأيت وسمعت فى أرض الله الواسعة، ومازلت «أندهش» كل يوم. . وأتساءل كل ساعة. . وأبحث عن إجابات جديدة كل لحظة.

وقد سجلت فى هذا الكتاب بعض تساؤلاتى الحائرة. . وبعض الإجابات التى توصلت إليها خلال رحلة العمر من خلال السفر إلى بلاد الله. . والإبحار فى صفحات الكتب، ولأن بحر المعرفة. . كبحر العشق بلا شطآن. . فما زلت مفتوح الفم من الدهشة. . ومؤرق العقل من السعى إلى معرفة كل ما أريد أن أعرفه. . ولم يتسع له العمر بعد.

إن كتابى هذا ليس كتابًا فى أدب الرحلات بقدر ما هو كتاب تأملات فى أحوال البشر فى كل مكان. . يحمل ملامح من حيرتى الأبدية وتطلعى القديم منذ الصغر لأن أعرف «العالم» من حولى ابتداء من عالمى المحدود فى سن

الطفولة.. إلى دنيا الله الواسعة التى خرجت إليها فيما بعد، وأدركت أننا لم نكتشف منها حتى الآن سوى كوكب الأرض الصغير.. الذى لا يعدو أن يكون نقطة صغيرة كرأس الدبوس.. فى بحر الكون الفسيح.

وفى كل سياحة لى فى المكان أو الزمان.. أو بحر المعرفة تتردد فى أعماقى دائمًا كلمة الإمام على بن أبى طالب:

«آه من قلة الزاد.. وبعد السفر.. ووحشة الطريق!».

ومع أن إمام المتقين كان يعنى «بالسفر» الرحلة الأخيرة إلى عالم الخلود.. ويتأوه من قلة زاده استعدادًا لها، وهو من هو فضلا وتقى.. فإنى أتذكرها دائمًا فى رحلات السفر الدنيوية.. وأشفق على نفسى من تخيل قلة زادى استعدادًا لهذه الأسفار الصغيرة.. فما بالى بالرحلة الكبرى التى لو لم تدركنا جميعًا رحمة الله.. لشققنا الجيوب ولطمنا الخدود.. أسفًا لقلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق.

عبد الوهاب مطاوع

١

الأرض البعيدة

كثير من سمات شخصية الإنسان تتحدد خلال طفولته وصباه.

ويبدو أننى قد اكتسبت حب السفر والتشوق إليه من سنوات طفولتى البعيدة.. ومن «تراث» أسرتى «السياحى» القديم.

فقد ظللت لسنوات عديدة أسمع من أبى رحمه الله عن رحلته «التاريخية»، التى قطع فيها المسافات وركب القطار والباخرة فى البحر الهائج وسيارات الأتوبيس المتهالكة فى الصحراء المخيفة، حتى وصل آمنا إلى هدفه بالأراضى الحجازية وأدى مناسك الحج وزار قبر الرسول صلوات الله عليه وسلامه. ووضع يده على «شباكه» ودعا لنفسه وأولاده وأسرته، ثم بدأ رحلة العودة التى هاج البحر خلالها حتى كاد يعصف بالسفينة لولا لطف الله.. فرجع إلى بيته وأسرته سالمًا غانمًا..

والحج هو السياحة الأولى التى يحلم بها المصرى فى طفولته وصباه.. وحين يكبر وتتسع مداركه يضيف إلى حلم زيارة الأراضى المقدسة.. أحلامًا أخرى كثيرة للسياحة فى أرض الله الواسعة.

وإذا كنت قد اكتسبت فيما بعد حب السفر وتأمل الأماكن والوجوه والبشر فيخيل إلى أن لتراث أسرتى «السياحى» أثرًا كبيرًا فى ذلك.

فلقد كانت لأسرتى «سياحة سنوية» تحرص عليها أشد الحرص.. ونترقب

نحن الأطفال موعدها بشغف شديد حتى إذا اقتربت عجزنا ليلتها عن النوم من شدة انفعالنا بالمتعة الوشيكة. . وراودنا أنفسنا طويلاً على محاولة النوم لكى يأتى الصباح، فننام نومًا قلقًا نصحو منه كل دقائق نترقب ضوء الصباح، فنرى الظلام مخيمًا على الدنيا ونعرف أن النهار لم يطلع بعد. . ونعود للنوم على مضض إلى أن نصحو على يد أمنا توقظنا لكى نشترك فى الرحلة البهيجة. .

وننهض بسهولة تثير فى كل مرة عجب أمنا، التى تشكو دائمًا من صعوبة إيقاظنا للذهاب إلى المدرسة، ونرتدى ملابسنا وننزل إلى الشارع نترقب وصول سيارة الأجرة التى ستنقلنا إلى المكان الموعود. . وهى سيارة كان أبى رحمه الله يستأجرها من موقف سيارات الأجرة عند محطة القطار فى بلدتنا دسوق؛ لكى تنقلنا فى الصباح إلى وجهتنا وتعود إلينا عند الغروب لتعيدنا إلى بيت الأسرة.

وتجئ السيارة فنكون أول من يركبها من أفراد الأسرة، ونتسابق نحن الإخوة الذكور. . على الجلوس بجوار السائق لكى نستمتع بمراقبته، وهو يقود هذه الآلة العجيبة ويخضعها لسيطرته ويسبق بها المارة وعربات الحنطور، ثم تنزل شغالتان تحملان مئونة الرحلة من طعام وأدوات لصنع الشاى. إلخ، وتضعانها فى حقيبة السيارة. . ونتعجل نحن نزول أمنا وضيوف الرحلة وهم دائمًا جدتنا لأمنا وإحدى قريباتها الأخريات إلى أن تنزل السيدات أخيراً ويركبن فى المقعد الخلفى من السيارة وتنحشر الشغالتان أمامهن فى مقاعد عكسية الاتجاه وتجلس وسطهن شقيقاتى. . فى حين ينحشر الذكور جميعًا فى المقعد الأمامى بجوار السائق. . فيصل عدد ركاب السيارة إلى ١٢ أو ١٣ فردًا، ثم تحين اللحظة السحرية التى نترقبها بصبر نافد. . ويتجه صبى السائق إلى مقدمة السيارة وقد كان هناك دائمًا صبى لكل سائق سيارة أجرة، يرافقه فى رحلته ويساعده فى قيادة السيارة كما يفعل الآن مساعد الطيار فى الطائرات الحديثة!.

وتبدأ مهمة صبى السائق الصعبة فى إدارة محرك السيارة «بالمانيفيللا»، وهى

عمود من الصلب يدخله فى موتور السيارة الفورد موديل ٣٦ القديمة ويديره بيده بقوة، لكى يطلق الموتور شرارة تلتقطها شموع الاحتراق «البوجيهات». . فيعمل الموتور آليًا، وهى المهمة التى يقوم بها الآن مفتاح المارش فى السيارة الحديثة فى لحظة خاطفة. . أما فى ذلك العهد البعيد، فقد كان من النادر أن يدور الموتور من أول أو ثانى أو ثالث دورة «للمانيفيللا» فيه. . وكان لابد دائمًا من المحاولة خمس أو ست مرات وأحيانا عشر مرات. . والسائق يصيح فى الصبى كل مرة: اجمد يا ولد! والصبى المسكين يتصبب عرقًا وتنفر عروقه ويستجمع كل قوته ليدير المانيفيللا بقوة أكبر إلى أن تأتى الدورة الناجحة أخيرًا وتلتقط «البوجيهات» الشرارة. . ويكركر صوت الموتور محدثًا اهتزازًا شديدًا للسيارة، ونصفق نحن طربًا بنجاح المهمة وقرب بداية الرحلة. . ويسحب الصبى عموده من مقدمة السيارة القديمة وهو يجفف عرقه ثم يفتح حقيبة السيارة الخلفية. . ويضع فيها المانيفيللا. . ثم يقفز هو شخصيًا داخل الحقيبة ويغلق بابها عليه من الداخل وينام!.

وتتحرك السيارة فى رحلتها السعيدة!.

ظللت سنوات فى طفولتى أحسد صبى هذه السيارة وكل صبى مثله على ما يتمتع به من متع لا يتاح لى مثلها. . منها أنه يصارع موتور السيارة كل يوم عشرات المرات. . ويفوز فى النهاية فى كل مرة. . ثم يفتح حقيبة السيارة ويستلقى داخلها فى أمان واطمئنان حتى تصل إلى غايتها، أما حين تخلو من ركابها فإنه لا ينام فى حقيبة السيارة، وإنما يركب معززًا مكرمًا بجوار الأسطى ويتفرج على مناظر وأماكن جديدة. . ولا يستنكف الأسطى «صانع المعجزات» من أن يتحدث إليه، خلال رحلة العودة، حديث الصديق إلى صديقه عن الزبائن وأحوال السيارة والدنيا. . إلخ. . وليس مستبعدًا بعد ذلك أن يتوقف السائق فى الطريق أمام مقهى ليشرب الشاى فيدعو صبيه لمجالسته فيه، ويطلب له «واحد شاى» على حسابه. . فأى مجد؟. . وأى شرف يناله أمثال هؤلاء الصبية

المحظوظين؟. . وهل تقاس هذه الحياة «الحرة» الكريمة بما نعانيه نحن أطفال المدارس من «ذل» المدرسين وتحكمهم فينا. . فضلاً عما نبذله من جهد مضن فى حفظ أرقام وكلمات لامعنى لأن يحرمنا آباؤنا من متعة اللعب مع الأقران بسببها. . ناهيك عما نعانيه من خوف من الامتحان وما نتعرض له من عقاب أهونه غضب الأبوين إذا رسبنا فيه؟.

تتحرك السيارة من أمام بيتنا تكركر وتتقلقل على الأرض. . ونهتز نحن ونتقلقل داخلها تبعا لذلك وتمضى ساحبة وراءها ذيلا طويلاً من الدخان الكثيف، معلنة لكل سكان الشارع من الجيران أن أسرتنا تتوجه مصحوبة بالسلامة إلى رحلتها السنوية. . ولا يستبعد أن تطل جارة من شرفتها وتشير لأمى مودعة، كأننا ذاهبون إلى المريخ أو تقول لها باسمة:

سألتك الفاتحة!.

فتهز أمى رأسها مؤكدة لها أنها ستفعل؛ لأن الفاتحة أمانة فى عنق من يؤتمن عليها.

وتخرج السيارة من شارعنا ونحن نتلفت حولنا باحثين عن رفاق الشارع لكى يروننا فى هذ الموقف الجدير بالافتخار، ونأسف غالبًا لخلو الشارع من الرفاق فى هذه الساعة المبكرة من الصباح، ونتمنى لو تأخرت بداية الرحلة حتى يصحو الأطفال من نومهم فلا تفوتنا فرصة توديعهم لنا كما تفعل الجارات مع أمنا.

تتجه السيارة إلى كوبرى دسوق الشهير وتعبره ببطء فلا تمنعنى بهجة الرحلة من أن أتخيل مرتعبًا ما قد يمكن أن يحدث لو أفلت زمام السيارة من يد قائدها فاصطدمت بحاجز الكوبرى المطل على النيل، وقفزت من هذا الارتفاع هاوية فى النهر!

أسترد اطمئنانى بعد اجتياز الكوبرى الأول. . وتعاودنى المخاوف مع اقترابها من الكوبرى الثانى. . وتنتهى المحنة باجتيازه وانحراف السيارة يساراً ناحية الطريق المؤدى إلى الواحة التى تنتظرنا.

نسير فى الطريق البرى مسافة لا أستطيع تقديرها، وأخيراً تصل السيارة إلى وجهتها فتتوقف أمام مسجد قديم مطل على النيل، وينزل منها ركابها وأثقالهم وتستدير السيارة عائدة من حيث جاءت.. أما نحن فنتوجه مبتهجين بإحساس «السفر» إلى داخل المسجد!.

فهذه هى «الحديقة» التى سنقضى فيها سحابة النهار، ونشد إليها الرحال مرة كل سنة!.

إنه مسجد العارف بالله سيدى أبى المجد، الذى ينتهى نسبه إلى الإمام الحسين ابن على.. وهو والد القطب الصوفى الكبير سيدى إبراهيم الدسوقى، الذى يقع ضريحه فى بلدتنا دسوق نفسها.

الزوار من كل أنحاء مصر يأتون إلى دسوق لزيارة ضريح سيدى إبراهيم الدسوقى.. أما نحن فنشد الرحال كل سنة لزيارة ضريح أبيه على الشاطئ الآخر المواجه لمدينة دسوق!.

تبدأ طقوس الرحلة بزيارة الضريح، الذى يفتحه خادم المسجد إكرامًا لنا وترقبًا للنفحة السنوية المعتادة.. فنتحلق حوله ونقرأ الفاتحة.. تتناجى سيدات الأسرة وبناتها بما يشأن من أدعية وأمنيات وأشجان، قد تصل ببعضهن أحيانًا إلى ذرف الدموع.. ثم نخرج من الضريح، فتجلس السيدات فى ركن من المسجد يتحدثن ويصنعن الشاى والقهوة، وليس ببعيد أن يلتقين فى المسجد ببعض معارفهن، فيتبادلن التحية والأشواق وأخبار الدنيا منذ آخر لقاء. أما نحن الصغار فننطلق نلهو فى كل مكان ونجرى داخل المسجد وخارجه ونتفرج على من يصيدون السمك على شاطئ النيل.. إلى أن يحين موعد الغداء وتستدعينا إحدى السيدات، فنتحلق حول طعام الرحلة ونأكل بشهية غير معتادة ونشرب الشاى، ونعود لمواصلة لهونا ومرحنا وحديثنا مع أطفال البلدة الذين يتحدثون إلينا باحترام جدير بمن كان «سائحًا» مثلنا، إلى أن «نفاجأ» بكركرة السيارة تقترب

من المسجد فيتسلل الأسى إلى نفوسنا، ونعرف أن الرحلة قد أوشكت على الانتهاء، ونعجب لمرور الوقت بهذه السرعة الغريبة حتى آذنت الشمس بالمغيب.

ونتجمع ببطء وتثاقل داخل السيارة من جديد.. ويرجع الصبى، الذى كان يجلس إلى جوار السائق إلى «قواعده» سالمًا فى حقيبة السيارة.

وتبدأ رحلة العودة فى غبش المغيب فيصرفنا عن الاستمتاع بمنظر الغروب إحساس غامض بأن المتعة لا تدوم، وأننا سنعود من الصباح لعناء المدرسة الذى «يدوم» ولا ينتهى سريعًا كما انتهت هذه الرحلة، وتتوقف السيارة أمام بيتنا فننزل منها، ونحن نبحث بأنظارنا عن رفاق الشارع، كأننا نحثهم على أن يسألونا عن سبب اختفائنا طوال اليوم لنقدم إليهم الجواب الذى نتلهف لتقديمه، وندخل البيت مجهدين بانفعال السفر والترحال، كأنما عدنا من رحلة سحرية إلى مدينة العجائب «ديزنى لاند»، فننام راضين نومًا عميقًا حتى الصباح. أما الأيام التالية فلسوف تشهدنا ونحن نحكى طويلاً لأصدقاء الشارع عن رحلتنا إلى هذه «الأرض البعيدة»، ونجيب عن أسئلتهم الساذجة بما اكتسبناه من «خبرة» جديدة ثمينة من «السفر» وركوب السيارات وعبور الأنهار ورؤية بشر آخرين غير أهالى مدينتنا!.

وسوف يظل انبهارى بهذه الرحلة «الجريئة» قائمًا ومستمرًا طوال سنوات طفولتى إلى أن تتقدم بى السن بعض الشىء فاكتشف أن البلدة التى كنا نشد إليها «الرحال» فى هذه الرحلة السنوية لا تبعد فى الحقيقة عن مدينتنا إلا كما تبعد ضفة النهر عن ضفته الأخرى!؛ إذ تقع مدينتنا على الشاطئ الشرقى للنهر.. وتقع البلدة الأخرى فى مواجهتها تمامًا على الشاطئ المواجه له، ولا تزيد المسافة بينهما بالطريق البرى عن ثلاثة أو أربعة كيلو مترات، ولا تزيد بالمراكب الشراعية عن كيلو مترين فقط لا غير!.

لكن ما أبعد ما كانت هذه المسافة فى خيالنا، وما أكثر ما استمتعنا «بقطعها» مرة كل سنة.

فلقد كانت بحجم المسافة بين الواقع.. والأحلام.. أو بين الحياة المألوفة لنا «بواجباتها الثقيلة».. وحياة المتعة والسفر والأنطلاق والتحرر من كل «الهموم»!.

وما زال السفر يمثل للإنسان هذا الحلم الثمين فى باقى مراحل حياته.. حلم التحرر من الواجبات والأعباء.. وحلم الانطلاق والتأمل والمشاهدة والاستمتاع ببهجة الحياة والسياحة فى أرض الله الواسعة.

* * *



٢

الدنيا فوق «ظهر متحرك»!

أنت لم تر إنجلترا.. إذا كنت لم تر من البلاد سوى إنجلترا!.

عبارة غريبة قالها الشاعر الإنجليزى رديارد كبلنج، ولم أفهم مغزاها للوهلة الأولى حين قرأتها فى سن الشباب.. ولم أستوعب معناها العميق إلا حين سافرت لأول مرة من مصر وزرت «بلاد الله.. خلق الله».. إنه يقصد بها أنك إذا كنت إنجليزيًّا تعيش فى إنجلترا وولدت ومت فيها، دون أن ترى غيرها من البلاد، فأنت لم «تر» إنجلترا نفسها أى لم تعرفها حق معرفتها.. لأنك لم تر من البلاد سواها، ولم تتح لك فرصة المقارنة بينها وبين غيرها من البلاد لتحكم لها أو عليها.. وبالتالى فأنت لم تعرف إذا كانت أجمل البلاد أم أقلها حظًّا فى جمال الطبيعة، ولم تعرف إن كان طقسها أفضل مناخ أم أسوأه، وإن كان شعبها من أفضل الشعوب أم من أسوأها.. إلخ.

وكل إنسان فى الوجود مفطور على حب بلاده، ولكنه قد يزداد فهمًا وحبًّا لها، إذا زار غيرها من البلاد وعايش شعوبًا غير شعبها.

ترى هل كنت أعى هذه الحقيقة الفلسفية، حين بدأت وأنا طفل دون العاشرة التطلع لاكتشاف «العالم» خارج حدود مدينتى الصغيرة دسوق؟.

لقد كان «القطار» فى مخيلتى دائمًا، وأنا طفل صغير، رمزًا للإثارة والمغامرة واكتشاف المجهول.. فهو الذى يجئ به المدرسون وقاضى المدينة وأطباؤها وكبار موظفيها من مدنهم المختلفة للعمل فى مدينتنا، وهو أيضا الذى يستقلُّه أبى

التاجر كل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع فى رحلة تجارية منتظمة إلى الإسكندرية مدينة العجائب، حيث يلتقى فيها بكبار تجار الجملة والمستوردين، ويشترى منهم تجارته ويرجع فى المساء محملاً بعلبة الجاتوه المثيرة من محلات أتينيوس!.

ظللت سنوات فى طفولتى أتعجب كيف يأتمن أبى «رجالاً» لا يعرفهم فيذهب إليهم بقدميه، ويعطيهم مبالغ كبيرة ثم يرجع من عندهم لا يحمل إلا علبة الجاتوه وحدها، وبغير البضائع التى سافر من أجلها اعتماداً على «وعد» شفوى منهم بإرسالها إليه فى مدينته بعد يوم أو يومين.

وتساءلت مراراً بينى وبين نفسى: ماذا يفعل إذا نكثوا بعهدهم ولم يرسلوا إليه البضائع؟ وكيف يسترد ماله منهم، وهو لا يحمل أية إيصالات بها؟ شككت بعقل الطفل الصغير فى سذاجة أبى التجارية، ورأيت من واجبى أن «أنبهه» إلى هذا الخطر الكبير المحتمل؛ حتى لا يفقد ماله وتبور تجارته، ونفقد نحن مصدر رزقنا. غالبت ترددى طويلاً ثم صارحته «بنصيحتى» المخلصة، وهى ألا يتحرك من محل أحد من هؤلاء التجار إلا وبضاعته قد تم تحميلها على سيارة النقل الكبيرة وتحركت السيارة أمامه فى طريقها إلى دسوق، فضحك طويلاً وشكرنى على هذه «النصيحة الغالية» وشرح لى بصبر غريب طبيعة الاتفاقات بين التجار.. وكيف تتم بلا أوراق ولا مستندات اعتماداً على سمعة التاجر التى تمثل رأس ماله الحقيقى.. وكيف أنه يتعذر عليه أن ينتظر فى محل كل تاجر حتى يتم إعداد المطلوب وإرساله إلى شركة النقل بالسيارات؛ لأنه يطوف بعدد كبير منهم فى يوم واحد فيشترى ما يشاء ويدفع الثمن ثم يرجع إلى بيته وعمله.. فلا يمضى يوم أو يومان حتى تأتى سيارة النقل الكبيرة.. ويتم إنزال البضائع منها إلى مخازنه فى أمان وسلام.. وهذا هو العرف السائد فى التجارة.. فالتجارة ثقة وسمعة والدنيا بخير وليست غابة للوحوش.

ولم أطمئن كثيراً لهذا التفسير.. لكنى رجوت الله ألا يخيب ظنون أبى فيمن يتعامل معهم فى تجارته.. سمعت فى هذه الفترة كلمة غريبة على أذنى هى

«النولون» وتحيرت فى معناها.. ومازلت حتى الآن أجهل مصدرها اللغوى.. لكنى فهمت منذ الصغر أنها تعنى أجرة نقل البضائع بسيارة النقل من الإسكندرية إلى دسوق.. فقد كان سائق النقل يقدم لأبى بعد تفريغ الحمولة استمارة مطبوعة باسم شركة النقل ويطلب «النولون».. فيعطيه له مضافًا إليه بقشيش صغير، ثم يقف «الريس مرعى» فى أدب منتظرًا أجرة الشيالين أو عمال التفريغ، وهم ثلاثة أو أربعة من الحمالين ينتظرون سيارة النقل عند مدخل المدينة يوم وصولها، ثم يعتلونها بقيادة الريس مرعى، ويطوفون بها على التجار لتفريغ بضائعهم فى محلاتهم.

وإذا سألتنى الآن من كان مثلك الأعلى فى الحياة فى هذه الفترة من طفولتك بعد أبيك وضابط الألعاب بالمدرسة الابتدائية عبد العزيز أفندى، لأجبتك بلا تردد إنه الريس مرعى رئيس الحمالين!.

فلقد كان رجلاً فى الثلاثينيات من عمره، طويلاً رشيقًا قويًّا محترمًا من الشيالين الذين يعملون معه، وكان صارمًا فى معامله «مرؤوسيه».. واكتسب احترامه بقدراته البدنية وبجديته وبجهده الأكبر فى العمل، وبسبب إعجابى بشخصية الريس مرعى هذا بدأت «سياحتى الداخلية» فى مدينة دسوق نفسها! فلقد تعلقت بركوب سيارة النقل التى تأتى من الإسكندرية حاملة لأبى ولغيره من تجار المدينة البضائع.. فرجوت أبى السماح لى بركوبها خلال طوافها بالمحلات التجارية الأخرى، وألححت عليه فى ذلك كثيرًا فوافق بعد تدخل الريس مرعى نفسه لديه، وتعهده له أننى سأكون فى رعايته خلال العمل.

وصعدت إلى ظهر سيارة النقل وأنا لا تسعنى الدنيا من الفرحة، وتجولت بالسيارة بين محلات المدينة، وكل حين تقف العربية أمام أحدها.. وينزل الشيالون بعض البضائع ويتقاضى السائق «النولون» ويتقاضى الشيالون الأجرة، ثم تتحرك السيارة إلى تاجر آخر فأطللت على الحياة من فوق ظهر سيارة نقل.. وتأملت صورًا جديدة ومثيرة لها! وسمعت آراء الشيالين الخفية فى معاملات

بعض التجار لهم. . وشهدت مشادات بينهم وبين بعض التجار حول الأجرة، ورأيت الريس مرعى «مثلى الأعلى فى هذه المرحلة» يحسمها بحزم متعففًا عن الرجاء والاستجداء.

وأسعدنى بنفسية الطفل أنى لم أشهد مرة واحدة خلافًا بينهم وبين أبى على «الأجرة»، التى أصبحت بمعايشتى لهؤلاء الأجراء البؤساء من اهتماماتى الجديدة، بل لاحظت أنه يحكم علاقة الريس مرعى بأبى نوع من الحياء يمنع «مثلى الأعلى» من الاعتراض على أى أجر يقدره لمجهوده وجهود عماله. . وتأكدت لى هذه الملحوظة بعد ذلك بسنوات طويلة، حين رأيت «مرعى» هذا فى جنازة أبى وأنا فى سن الثانية والعشرين، وكان مثلى الأعلى قد تهدم وحلت به الأمراض وأصابه العجز، حتى أصبح يمشى بصعوبة رغم أنه لم يجاوز الخمسين إلا بسنوات، ورأيته يبكى أبى بحرارة ويتحدث عن مساندته له منذ أعجزه المرض عن العمل.

ورغم رعاية مرعى لى وحرصه على تجنيبى الخطر أثناء إنزال البضائع من السيارة. . فقد كدت يوما أواجه مشكلة أخطر. . فلقد ركبت السيارة مع عمالها ذات مرة وراحت تنتقل من تاجر إلى آخر. . وفى كل مرة تتخفف من بعض أحمالها. . وكلما تخففت من شيء جديد ازدادت متعة «السياحة» «فوق ظهرها. . وسهلت على الحركة بين أرجائه واستمتعت بالإطلال على البشر والشوارع من الوضع واقفًا وممسكًا بقوة بسور السيارة الخشبى حتى لا أفقد توازنى. . إلى أن خلت السيارة تمامًا من كل بضائعها ونزل الحمالون، وأنا مازلت ممسكًا بأحد جوانبها ومستغرقًا فى مشاهدة الحياة والناس ورؤوس الأشجار، التى بدت قريبة منى إلى أن تنبهت فجأة إلى أننى قد صرت وحدى تمامًا فوق ظهر السيارة. . وأن السيارة نفسها تسير فوق الكوبرى فى طريقها للإسكندرية! ففزعت لهذا الاحتمال المخيف وأنا طفل فى العاشرة وطرقت بيدى على سقف كابينة السائق بشدة. . فلم ينتبه لى وواصلت السيارة سيرها فى طريق العودة فصحت

مستنجداً بالسائق وعاودت الطرق بشدة.. إلى أن تنبه لى أخيراً وعدل مرآته الجانبية ليرى مصدر هذا الصوت فإذا به يرانى فوق سيارته خائفًا فتوقف وسألنى متعجبًا: هل تستطيع العودة من هنا إلى البيت؟ فأجبته بالإيجاب وسارعت بالقفز من السيارة إلى الأرض وعدوت عائداً إلى بيتى، وتكتمت تمامًا هذه المغامرة حتى لا يحرمنى أبى من معاودة ركوب سيارة النقل.. ومشاهدة الدنيا من فوق ظهرها.

هكذا عرفت «السياحة الداخلية» بدسوق، أما سياحتى خارجها فقد عرفتها حين استجاب أبى لإلحاحنا الشديد عليه وأنا وأخى الأكبر ليصطحبنا معه فى رحلاته التجارية للإسكندرية.. وبعد جهد جهيد وافق على أن يصطحب كلاً منا على حدة فى إحدى هذه الرحلات.. وأقنعنى بصعوبة بالغة بضرورة احترام عامل السن فى هذه المسألة، وبالتالى فإن الرحلة الأولى ستكون من نصيب شقيقى الأكبر، وكنا فى الإجازة الصيفية فسافر معه شقيقى الأكبر فى الصباح الباكر ورجع فى المساء مبهوراً بما رأى وشاهد فى مدينة الإسكندرية أم العجائب، وحكى لى عنها حكايات كالأساطير وانتظرت دورى بصبر فارغ.. ودعوت الله صباحًا ومساء أن تنشط الحركة فى تجارة أبى إلى أقصى معدلاتها لتنفد بضائعه سريعًا ويعجل بسفره للإسكندرية لشراء غيرها.

وكرهت لأول مرة هؤلاء المندوبين المعتمدين لتجار الإسكندرية وشركاتها الذين يأتون إلى المدينة كل خميس، ويستقبلهم أبى بترحاب ويملى عليهم ما يحتاج إليه من بضائعهم وينقدهم ثمنها.. فيرسلونها له.. يا لخيبة الأمل.. بعد أيام دون سفر ولا مغامرة!.

وتمنيت لو أصيبوا جميعًا بكساح مفاجئ يعجزهم عن المجئ، مع أنى كنت أحبهم وأستمتع بمداعباتهم وأحاديثهم ولكنة بعضهم الأجنبية فى الكلام، وقد كانوا من بقايا اليونانيين والطليان والمالطيين الذين يعيشون فى مصر، لكن الشوق للسفر دفعنى للتضحية بصداقتهم والتطلع للاستغناء عن خدماتهم مؤقتًا برحلات

أسبوعية للإسكندرية طوال أشهر الصيف.. ولا مانع من عودتهم مع بداية العام الدراسى حين يتعذر علينا السفر.

وأخيراً حانت اللحظة التاريخية، وأبلغنى أبى بالاستعداد للسفر معه إلى الإسكندرية صباح اليوم التالى!.

هل نمت ليلتها؟ لا أتذكر الآن لكنى أشك فى أنه قد غمض لى جفن خلال الليل وحتى دعتنى أمى للنهوض فى الفجر.

نهضت مبتهجًا وسعيداً وزهدت من الفرحة فى تناول أى طعام.. واستثقلت اللحظات التى جلس أبى فيها يرشف الشاى ويتحدث إلى أمى.. ثم خرجت أخيراً معه ففوجئت بأن الظلام مازال مخيمًا على الدنيا.. وسعينا فى شارع المدينة الرئيسى فى اتجاه محطة القطار، وليس فى الشارع أحد سوانا.. ومخبز أفرنجى مفتوح يملكه يونانى من أهل المدينة.. ومقهى يفتح أبوابه استعداداً ليوم جديد، ثم دوت صفارة القطار المبحوحة الغريبة فجددتُ فى السير خوفًا من فوات القطار.. لكن أبى استمهلنى لأن الوقت مازال مبكراً على موعد قيامه وركبنا القطار السحرى إلى مدينة دمنهور.. وغادرناه فيها فاتجهنا إلى بوفيه المحطة انتظاراً للقطار القادم من القاهرة فى طريقه للإسكندرية.. وجاء القطار الموعود فركبنا فى أحد دواوين الدرجة الثانية به، وجلست سعيداً بين رجال كبار يقرأون الصحف ويعلقون على الأحداث الجارية.. وينتقدون تصرفات الملك فاروق والإنجليز وحزب الوفد الحاكم وقتها معا، ويبادلهم أبى الحديث ويوافقهم الرأى حول خطورة الحالة، وأنا سعيد.. سعيد.. سعيد.. تتوزع مشاعرى بين الرغبة فى الاستمتاع بالجلوس فى هذا القطار الفاخر الذى يختلف عن القطار الفرعى الذى يربط مدينتى بدمنهور لأطول فترة ممكنة، والرغبة فى تعجل الوصول إلى المدينة المسحورة التى تنتظرنى عند محطة الوصول.

٣

طائر.. فى الهواء !

بدت لى الإسكندرية حين وصل القطار إلى المحطة وغادرته ممسكًا بيد أبى عالمًا مسحوراً يعدنى بألوان جديدة من البهجة والسرور! .

ما هذا الزحام فى ميدان المحطة؟ وما هذه الساحة الكبيرة التى تمرق فيها السيارات وعربات الحنطور والكارو؟ هذا إذَن هو الترام الشهير الذى طالما سمعت عنه، والذى يجلس فيه الركاب باحترام إلى جوار السيدات والأطفال ويمر عليهم به كمسارى مهيب يقطع لهم التذاكر. . بل وهؤلاء إذَن هم «الإسكندرانية» المشهورون بلهجتهم المميزة. . وكلماتهم الجريئة الخارجة عن مألوف مدينتى الصغيرة. . والذين يقول أحدهم حين يعبر عن عجبه أو دهشته لشىء: أيووه! فإذا أراد أن يعبر عن استنكاره لشىء، فإنه يصدر صوتًا من أنفه يلخص به كل معانى الاستنكار والاستهجان فى تعبير بليغ كشخير النائم تتلوه عادة كلمة نابية! .

بل وهذه هى أيضًا المدينة التى تعيش فيها أعداد هائلة من الأجانب اليونانيين والإيطاليين والإنجليز والفرنسيين وغيرهم يعملون فيها بكل المهن. . من مدير البنك إلى جارسون فى مقهى! .

لم تكن معايشة الأجانب غريبة علىَّ قبل ذلك، فقد كان فى مدينتى دسوق عدد منهم معظمهم من اليونانيين، لكنهم كانوا فى النهاية يعدون بالعشرات وليس بعشرات الألوف كما كان الحال فى الإسكندرية فى ذلك الوقت، ففى دسوق كان

أفخم مقهى يملكه يونانى اسمه ينى، أو «قهوة ينى» كما كانت معروفة بذلك بيننا. . كانت هى القهوة التى يجلس فيها أعيان المدينة وعمد القرى المجاورة لها حين يجيئون لزيارة «البندر» فى شأن من الشئون إلى جانب رجال الحكومة العظام كمأمور المركز ومعاونه وضباطه ومهندس البلدية، فضلاً عن الشخصيات «الأسطورية» الأخرى التى نكن لها أكبر الاحترام والتهيب كناظر المدرسة الثانوية ومدرسيها، وناظر مدرستى الابتدائية شاكر أفندى ومعاونيه «الأبطال» من مدرسى المدرسة كفهيم أفندى ومنسى أفندى ورفعت أفندى، وغيرهم، وكان يعلو قهوة ينى لوكاندة صغيرة تتبعه، ويقيم فيها موظفو المدينة الأغراب من بداية وصولهم لها وإلى أن يستقروا فى شقق مستأجرة.

وكانت لقهوة ينى شهرتها المدوية فى المدينة بأنها قهوة الأعيان وكبار الموظفين فلا يجرؤ الحرافيش، بل وبعض التجار من متوسطى الحال أيضًا على دخولها أو الجلوس فيها تهيبًا للاقتراب من عليه القوم الذين يرتادونها، كما كانت تتميز بشيئين لا مثيل لهما فى مكان آخر بالمدينة كلها، هما: مائدة البلياردو، لاستخدام نزلاء اللوكاندة، ومائدة تنس الطاولة فى غرفة ملحقة بالمقهى. . وكانت تؤجر بالساعة لمن يريد. وقد احتاج الأمر منى إلى زمن طويل للتغلب على هيبة المكان والتجرؤ على دخوله؛ لكى أمارس فيه لعبة تنس الطاولة مع أصدقاء المدرسة. . وكانت «المحنة» الكبرى تتمثل دائمًا فى المسافة القصيرة بين باب المقهى وباب غرفة البنج بونج فى نهايتها؛ إذ كان لابد لى من اجتيازها لكى أصل إلى الغرفة المنشودة. وبين البابين يجلس الأشخاص الكبار من ذوى المهابة، ويجلس ناظر مدرستنا ومدرسونا. . فكيف نعبر هذا الطريق الوعر إلى جوارهم لنصل إلى الغاية المنشودة؟ وماذا أفعل إذا التقت عيناى بعين أحدهم وعرفنى؟ هل أرجع من حيث جئت قانعًا من الغنيمة بالإياب أم أتجاهله وأمضى إلى غايتى بلا تردد؟ أم أتسمر فى مكانى وأرفع يدى إلى رأسى بالتحية التقليدية كما يفعل جنود الشرطة

مع ضباطهم . . وكما كنا نفعل نحن أيضًا مع مدرسينا إذا التقينا بهم صدفة فى أسواق المدينة؟ .

لقد كانت محنة العبور هذه تتجدد كل مرة أحاول فيها دخول المقهى لألعب تنس الطاولة . . وكثيراً ما رجعت يائسًا من نجاحى فى العبور الآمن، إذا كان أحد مدرسينا جالسًا فى مكان يسمح له برؤيتى عند الدخول .

ولم تكن قهوة ينى هى المنشأة الأجنبية الوحيدة فى مدينتى الصغيرة، فلقد كان بها أيضًا مطعم يملكه يونانى طيب اسمه «أفتيمو»، كان من أصدقاء أبى وجيرانه فى محل تجارته، كما كان هناك أيضًا فرن بلدى قريب من تجارة أبى يعمل فيه يونانى عجوز بلقانى الشكل والملامح، وله شارب عظيم يتدلى على جانبى فمه، واسمه «كوستا» وكان مشهوراً بين أطفال المدينة وينادون عليه فى أيام الأعياد، حين يمرون عليه راكبين عربات الحنطور وسيارات النقل المزينة بالورود، التى تطوف بهم شوارع المدينة فى جولة «سياحية» مقابل قرش لكل منهم . . فما أن يقترب الصغار من فرن كوستا حتى يصيحوا جميعًا فى مرح بالغ :

ـ هات كعكة يا خواجة كوستيه! .

فلا يلتفت إليهم كوستا ولا يغضب من ندائهم عليه، ويواصل عمله أمام فوهة الفرن كأنه لم يسمع شيئًا . . وقد عشت طفولتى فى دسوق وأنا أرى هذا اليونانى العجوز يعمل فى هذا الفرن، ويقيم فى شارع مجاور لبيتنا مع أخت عانس لم تتزوج اسمها «ماريا»، وكانت ماريا هى التى ترعى شئونه، واعتدت أن أراها كل يوم فى موعد ثابت لا يتغير تخرج من بيتها ممسكة بكوب من الشاى تضعه على كف يدها . . وتمشى مسافة ٣٠٠ متر إلى الفرن لكى يشربه شقيقها فى عمله . . وكان الشقيقان اليونانيان يرعيان ثلاثة أطفال يتامى من أهل دسوق، مات عنهم أبوهم الذى كان جاراً لهما فى البيت نفسه . . فتوليا تربيتهما بأمانة حتى شبوا عن الطوق، وظل هؤلاء الثلاثة أوفياء لكوستا وماريا حتى رحلا عن

الحياة، أما الفرن الآخر فقد كان فرنًا أفرنجيًّـا، يملكه يونانى له زوجة وأبناء فى مثل أعمارنا ونحن صغار، وكثيرًا ما تطلعت إلى صداقتهم.. لكنى لم أعرف أحدًا منهم حتى غادرت المدينة كلها للدراسة بالجامعة.

كان فى مدينتنا إذن عدد لا بأس به من الأجانب، الذين يعيشون فى أمان وتجمعهم مع أهل المدينة علاقات العشرة والمودة والحب لكنى لم أر هذا العدد الهائل من الأجانب فى مكان واحد، كما رأيتهم حين رأيت الإسكندرية لأول مرة فى حياتى وأنا طفل فى العاشرة من عمرى! فما من محل دخلته وراء أبى إلا وكان صاحبه أجنبيًّـا أو أحد عماله أجنبيًّـا، وسعدت بقلب الطفل بما لاحظته من احتفاء أصحاب هذه المحلات التجارية الكبيرة، أجانب ومصريين، بأبى وتهللهم لرؤيته، ولم أكن أعرف فى تلك السن الصغيرة أن هذا الترحيب جزء من مقتضيات العمل والتجارة التى تفرض على التاجر النابه أن يحسن استقبال الزبون ويشعره بخصوصية مركزه لديه، خاصة إذا كان الزبون تاجرًا يتعامل معه بمبالغ كبيرة.. لهذا فلم يكن غريبًا أن يتمسك أحد أصحاب هذه المحلات بدعوة أبى للغداء والإلحاح عليه فى ذلك، لكنى لم أشهده مرة يقبل هذه الدعوة وإنما شهدته دائمًا يعتذر عنها، متعللا بضيق الوقت وحاجته لأن يمر على عدد كبير من التجار. كما لم يكن غريبًا أن يبش أصحاب هذه المحلات فى وجهى، وخاصة من الأجانب اليونانيين ويقدم لى أحدهم قطعة شيكولاتة كبيرة فأتلهف لأخذها فى أعماقى على الفور، لكنى رغم ذلك أقف أمام يد التاجر الممدودة بها جامدًا، أترقب «إشارة» القبول من أبى إلى أن تجئ فأمد يدى إليها سعيدًا.

ومن إحدى هذه «الوكالات» التجارية القديمة التى دخلتها مع أبى، احتفظت فى ذاكرتى بصورة كوب الشاى المذهب الصغير ذى القاعدة المستديرة والوسط الضيق والفوهة الواسعة، وقد كان صاحب هذه الوكالة يقدم لزبائنه الكبار الشاى فى هذه الأكواب الصغيرة المذهبة وشربته فى محله مرات.. ورأيت عمال المحل

وهم يفرغون الشاى من صناديق خشبية ضخمة ويقومون بتعبئته، فى أكياسٍ مطبوعة باسم صاحب هذه الوكالة.

وبعد أربعين عامًا من هذه الذكرى، زارنى فى مكتبى رجل أعمال ومليونير شهير مع زوجته ومدير إعلانات مجلة الشباب الأستاذ فاروق المليجى، وتحدثنا فى بعض الشئون فإذا بى أسترجع فجأة صورة تلك الوكالة القديمة وأكواب الشاى المذهبة الصغيرة التى شربتها فيها، وأحكى له أننى طالما زرت وكالة أبيه القديمة مع أبى ففوجئت به يبتهج لما ذكرت، ويطلب من زوجته التى كانت مشغولة بالحديث فى تلك اللحظة مع مدير الإعلانات أن تنصت إلى «شهادتىَ» عن «مجد» أبيه التجارى القديم.. ثم يعقب على ذلك بالتعجب ممن يعتبرونه نباتًا شيطانيًّــا ظهر فجأة فى عالم التجارة ولم تكن له جذور قديمة فيه، على عكس ما شهدت أنا به الآن شهادة «الحق» المبرأة من الغرض!.

رحت أتنقل وراء أبى من محل تجارى كبير إلى آخر، ومن وكالة إلى وكالة.. نمشى على الأقدام أحيانًا ونركب الحانطور فى أحيان أخرى، إلى أن أنتهى من عدد كبير من مقابلاته فاصطحبنى إلى المكان السحرى الاخر، الذى طالما سمعت اسمه يتردد فى حديثه عن رحلاته للإسكندرية وهو القهوة التجارية بالمنشية! وفوجئت حين رأيتها لأول مرة باتساعها الهائل الذى يسمح لألف شخص على الأقل بالجلوس فيها فى الوقت نفسه.. وبعدد جارسوناتها الذين ينتقلون بخفة بين موائدها، ولا يقل عددهم أبدًا عن عشرة أشخاص.

وجلست مبهورًا على رصيف المقهى المطل على الكورنيَش.. أرقب البحر والغادين والرائحين وأشعر بالجوع! وجاء الجارسون وتحدث إليه أبى بما لم أسمعه فاختفى الجارسون ثم عاد بصينية صغيرة عليها أربعة أكواب من الماء ولاشىء سوى ذلك وأصبت بخيبة أمل طارئة.. لكنى لم أعبر عن مشاعرى مطمئنًا إلى حسن إدراك أبى فى النهاية! ومضت دقائق خلتها ساعات حتى عاد الجارسون

نفسه مرة أخرى حاملا صينية كبيرة مغطاة بغطاء من الخوص ووضعها على المائدة أمامنا ورفع الغطاء عنها ثم انصرف، فإذا برائحة الكباب النفاذة تتسلل إلى أنفى كالعطر الأخاذ!.

فقد كان من عادة أبى أن يتناول غداءه حين يجئ إلى الإسكندرية فى هذا المقهى، فيجلس فيه ويكلف الجارسون بإحضار الكباب من المطعم المجاور.. ولا أعرف لماذا لم يكن يذهب إلى المطعم مباشرة فيأكل فيه ثم يجلس فى المقهى، لكنى على أى حال «استحسنت» هذه العادة كثيراً، حين رأيت قطع الكباب تتراءى أمامى بعطرها الفواح وأقبلت عليها بشهية كبيرة.. وشربت مع الطعام «سبيرو سباتس»، واستمتعت بمذاقها كثيراً وهى مياة غازية بطعم الليمون وكانت شائعة فى ذلك الوقت. وكنت أتعجب لاسمها الغريب دائمًا إلى أن عرفت فيما بعد أنه اسم صاحب مصنع المياه الغازية نفسه، وأن «سبيرو» هو اسمه الأول أما سباتس فهو اسم العائلة التى ينحدر منها.

انتهى أبى من الطعام واحتساء الشاى.. فطلب فنجانًا من القهوة ليستعيد به نشاطه وأخرج سجائره ودخن سيجارة. كان أبى فى ذلك الوقت مدخنًا ويدخن سجائر مصرية فاخرة اسمها صوصه نمرة ٥، ويرسلنى لشرائها من المحلات المجاورة لمحله بالجملة.. عشرة أو عشرين علبة فى كل مرة.. وكانت تتميز بعلبتها الأنيقة المربعة ذات الغطاء الذى يرفع ويغلق بمرونة.. وكان ينتجها شخص اسمه الدكتور عبد الله البستانى، ولا أعرف هل كان مصريًّا أو شاميًّا، وكانت سجائره أعلى سعرًا من السجائر الشعبية المتداولة فى ذلك الوقت كسجائر هوليوود و«واسب»، التى فهمت بعد أن تقدمت فى التعليم بعض الشىء سر الحشرة المرسومة على علبتها، حين عرفت أن كلمة «واسب» تعنى بالإنجليزية «الدبور»!.

وكان أبناء الطبقة المتوسطة فى ذلك الوقت لا يدخنون إلا السجائر مصرية الصنع، ويأنفون من أن يشاركوا العامة أو الأجانب تدخين السجائر الأجنبية

المتداولة بالأسواق مثل «لاكى سترايك» و«كامل» وغيرهما، وكان الذائع بيننا أن الملك فاروق نفسه يدخن سجائر مصرية ينتجها؛ أيضًا عبد الله البستانى واسمها «فاروق» وكانت تتداول فى الأسواق.. لكن البستانى كان ينتج منها كمية محدودة مموهة بالخطوط الذهبية لاستعمال القصور الملكية، فيتنافس الباشوات على الحصول على بعضها من المصنع ليشاركوا الملك تدخين النوع نفسه من السجائر!.

والحق أن السجائر المصرية كانت لها فى ذلك الوقت شهرة عالمية تنافس بها السجائر الإنجليزية الشهيرة، وقد كان يرضى غرورنا الوطنى كثيرًا، ونحن صبية أن نقرأ فى روايات الجيب الشهيرة أن اللص الظريف أرسين لوبين.. جلس يفكر كيف يهرب من ملاحقة البوليس له.. فأشعل لفافة تبغ مصرية فاخرة.. واستغرق فى التفكير!.

ولا أعرف هل كان مترجم هذه الروايات المرحوم عمر عبد العزيز أمين، صاحب دار مسامرات الجيب، هو الذى يضيف هذه العبارة من عنده إلى النص الأصلى للروايات، أم أن مؤلفها الفرنسى موريس لبلان هو الذى كان يكتبها فى رواياته!.

استرد أبى نشاطه بعد فترة استرخاء قصيرة، انشغل عنى خلالها بقراءة صحيفته المفضلة التى تفتحت عيناى على الحياة، فوجدته يقرأها يوميا بانتظام وهى الأهرام.. ثم نهض فاستكمل جولته التجارية على بعض التجار، ومر بمكتب شركة نقل البضائع بالسيارات التى تنقل بضائعه إلى دسوق.. ووجد معظم ما اشتراه فى الصباح من بضائع قد وصل بالفعل إلى المكتب والعمال يرفعون الصناديق إلى ظهر السيارة.

وانتهى أبى مع الأصيل من عمله؛ فإذا به يدخر لى مفاجأة، لم يكن بوسعى حين عرفتها إلا أن أحمل له كل مافى الدنيا من معانى الحب والعرفان! فلقد انتهى الجانب التجارى من رحلته، وبدأ الجانب السياحى، الذى أراد أن يبهجنى به لتكون المتعة كاملة، فاصطحبنى إلى مدينة الملاهى بالأزاريطة.. وطاف بى أرجاءها، وأنا مبهور بكل ما أراه من ألعاب وزحام.

وفى أحد أركانها رأيت لعبة المقاعد الدوّارة.. والأطفال والشباب والبنات

يجلس كل منهم فى مقعد يتدلى بحبال الصلب من سقف اللعبة.. ويدور الهوينى حول المكان على ارتفاع بسيط من الأرض.. فوجدت كل المتعة فى أن أمارس هذه اللعبة.. فالدوران بطئ وآمن، والمقاعد تدور على ارتفاع بسيط، فما أن توقفت المقاعد الدوارة نهائيًا وغادرها ركابها، حتى همست لأبى برغبتى فى ركوبها، فاستجاب مشكوراً وقطع لى تذكرة بقرشين، وأركبنى العامل فى مقعد مماثل وربط حزامه على وسطى.. وجلست نافد الصبر أنتظر اكتمال الركاب لتنطلق الرحلة الآمنة فى دورتها الوديعة.. وأخيراً بدأت المقاعد فى الدوران البطئ المبهج، ثم انشغل أبى بمراقبة لعبة أخرى قريبة بضع لحظات ورجع ببصره مرة أخرى إلى لعبة المقاعد الدوارة، فإذا به يرانى معلقا فى السماء والمقاعد تلف بسرعة جنونية على ارتفاع شاهق.. والرعب يشل قدرتى على الصراخ! لقد انخدعت برؤية اللعبة وهى فى نهايتها ومقاعدها تبطئ من سرعتها تمهيداً للتوقف النهائى؛ فتصورتها آمنة فإذا بها بعد عدة دورات بطيئة تنشط نشاطًا مفزعًا وتتطاير مقاعدها فى الهواء إلى أقصى ما تسمح به حبالها، وإذا بى أجد مقعدى طائراً على ارتفاع شاهق فى الأرض والركاب الكبار من حولى يتضاحكون.. والصغار يصرخون وأنا عاجز حتى عن الصراخ!.

لا أعرف كم من الوقت مضى حتى هدأ دوران اللعبة، وهبطت المقاعد مرة أخرى إلى الأرض وراحت تدور بالبطء الذى أغرانى بركوبها.. وغادرت اللعبة وأنا مبهوت وحائر هل ابتهج للمغامرة أم أبكى لها، ووجدت أبى يشاركنى فزعى ويروى لى أنه استدار فجأة، فوجدنى طائراً فى الهواء فتملكه الخوف على من الفزع، وظل رافعًا رأسه يرقبنى فى إشفاق حتى توقفت اللعبة وغادرتها.

وكانت لحظات الرعب والمتعة هذه هى ختام رحلتى الأولى إلى مدينة الإسكندرية فغادرنا مدينة الملاهى.. وتهيأت لركوب قطار العودة إلى مدينتى الصغيرة فى المساء، وخاطرى مشغول بما سوف أرويه لإخوتى وأصدقاء الشارع والمدرسة عما رأيته وشهدته من غرائب «وأهوال» فى مدينة العجائب!.

* * *

٤

سياحات حرة.. منفردة !

كان لتجربتى المرعبة بمدينة الملاهى بالإسكندرية خلال زياراتى الأولى لها، أثر بعيد المدى فى طفولتى وصباى، وربما كل حياتى، فلقد تعلمت منها ألا أمارس «لعبة» لا أعرف قوانينها جيدًا قبل الاشتراك فيها، ويبدو أن هذا «الحذر» قد صاحبنى شىء منه فى معظم مراحل حياتى فيما بعد، فلا أستطيع أن أزعم الآن أنى إنسان مغامر أو مجازف أو مندفع، لكنى أستطيع أن أقول بلا مغالاة إننى ممن يحاولون دائمًا أن يقدروا لأقدامهم قبل الخطو موضعها، ويحرصون على دراسة الاحتمالات المختلفة لكل اختيار يواجهونه، قبل اتخاذ القرار، حتى إذا حسمت أمرى ومضيت فى طريق اخترته التزمت به حتى النهاية وتقبلت تبعات اختيارى هذا ورضيت بها بلا سخط ولا ندم.

ولأن الحذر لا يغنى أبدًا عن قدر.. فإننى أتقبل دائمًا نتائج أى اختيار التزم به، مهما كانت مخيبة للآمال ولا يسوؤنى أن أفشل فى تحقيق هدف من أهدافى بسبب ظروف طارئة أو قهرية تحول بينى وبين بلوغه.. وإنما يسؤونى كثيرًا أن يكون فشلى فى تحقيقه راجعا لتقصيرى فى دراسة هذا الهدف واختيار السبل الصحيحة المؤدية إليه.

فهذا هو التقصير الذى لا أتسامح فيه مع نفسى، ومبدئى فى ذلك أن من يريد أن يستحم فى مياه البحر فإن عليه لكى ينال هذه المتعة أن يتم استعداداته لها فيتزود بملابس الاستحمام والمناشف وغيرها، ثم يتخذ الطريق المؤدى إلى شاطئ

البحر لكى يصل إليه، فإذا وجد البحر بعد ذلك هائجا والراية السوداء مرفوعة فلا لوم عليه فى ذلك ولا عتاب، فلقد أدى واجبه تجاه نفسه وأحسن الاستعداد لما أراد ثم تدخلت عوامل خارجية لحرمانه من تحقيق هدفه، أما أن يجهل الطريق إلى البحر ويعطى ظهره له ويتجه للصحراء، فلا يجد بحراً ولا شاطئًا فليس من حقه فى هذه الحالة أن يندب حظه وينقم على من يتمتعون فى هذه اللحظة بمياه البحر الباردة، ويحاسب الدنيا أو الآخرين على ما يعانيه من حرمان!.

بعد «سياحتى» الأولى فى الإسكندرية برفقة أبى، وأنا فى العاشرة من عمرى، تكررت سياحاتى المختلفة فى فترة الصبا إلى الإسكندرية وإلى مدينة دمنهور القريبة من بلدتى دسوق، فقد كان من عادتنا أن نمضى أيام عيدى الفطر والأضحى فيها.. فنتجمع ٤ أو ٥ صبية لا يزيد عمر أكبرنا عن الثانية عشرة، ثم نركب القطار بملابس العيد الجديدة فى الصباح إلى دمنهور، فنخرج من المحطة إلى شوارع المدينة.. يقودنا أكبرنا سنا «وخبرة» فنتجه مباشرة إلى سينما «البلدية» أو سينما «الأهلى» لنشاهد فيلم العيد الجديد فيها، ثم نعود إلى محطة السكة الحديد بعد الظهر لنركب قطار العودة إلى دسوق، ونحن «سكارى» بهذه المتعة البهيجة التى استمتعنا بها.

لم تكن مدينتنا الصغيرة محرومة من السينما حتى نسافر إلى دمنهور خصيصًا لمشاهدة الأفلام، فلقد كان بها دار عرض نتردد عليها بانتظام مساء كل خميس.. وكان مديرها فى نظرنا شخصية مرموقة بين شخصيات المدينة البارزة كقاضى المدينة ومهندس البلدية وناظر المدرسة ومأمور الشرطة.

وكان هذا المدير شديد الشبه بالمرحوم أنور وجدى حتى جزمنا بيننا أنه «أخوه» ولا شك فى ذلك، وأكبر دليل على هذا هو الشبه الشديد فى الملامح والتشابه فى «المهنة» فكلاهما يعمل فى السينما!!.

وكان مدير السينما هذا رجلا شديد الأناقة يحرص على ارتداء البدلة الكاملة

والكرافت والقميص الحريرى، ويرتدى كل يوم بدلة مختلفة يختال بها وهو يسير بين صفوف المقاعد، يراقب النظام ويفرض الانضباط، وأحسب أنك لو سألت أى صبى من جيلنا فى ذلك الوقت عن مثله الأعلى فى الحياة أو عن الشخص الذى يريد أن يكون مثله فى المستقبل حين يكبر ويتخرج فى الجامعة، لأجابك بلا تردد بأنه «جمال أفندى» مدير سينما مصر بدسوق!.

ولم لا؟ وقد كانت إشارة صغيرة من يده تكفى للسماح لك بدخول عالم السينما السحرى ومشاهدة حلقات زورو العجيب بغير تذكرة، وإشارة أخرى منه تكفى لحرمانك من هذا النعيم حتى ولو دفعت أضعاف ثمن التذكرة.. فقد كانت لديه قائمة سوداء يدرج فيها أسماء المشاغبين وأصحاب السوابق فى التشاجر داخل السينما، ويمنع أصحابها من ارتيادها مهما فعلوا.. ويحدد عقوبة كل مخطئ بما يستحقه فيسرى قراره بالحرمان لمدة شهر أو شهرين أو ثلاثة حسب خطورة الجريمة.. ولا يقبل شفاعة لأحد فى ذلك، ولو كان مأمور الشرطة نفسه فكيف لا يحظى مثل هذا الرجل باحترامنا وإعجابنا فضلا عما كان يحظى به من احترام الصفوة وكبار أعيان المدينة، الذين يجالسونه فى مجلسه التقليدى بجوار باب الدخول ويتبادلون معه الكلام والضحكات!.

لقد احتاج الأمر منا إلى ١٥ سنة على الأقل؛ لكى نفهم حقائق الحياة ونكتشف أن مثلنا الأعلى القديم، ليس سوى موظف بسيط لدى صاحب السينما الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب، لكنه كان رجلا أعزب يقيم فى سكن مجانى ملحق بدار العرض، فكان مرتبه الصغير يسمح له بالإنفاق على هواية الأناقة، أما صاحب السينما نفسه فقد كان رجلاً ثريًا وطيبًا ومشهورًا بيننا بتخريجاته اللغوية المبتكرة فى نطق أسماء الأفلام والأبطال، فالفيلم عنده هو «الفولم» وفيلم فريد الأطرش القديم «أنا عايزه أتجوز» هو «بدى أتجوز» ويوسف وهبى هو «يوسف بيه وهبه» وفيلم «حكم القوى» هو فيلم «حكم القوى على الضعيف»! كما يقضى بذلك المنطق، حتى وإن فاتت منتجه هذه الإضافة المنطقية لاسم

فيلمه، لكنه على أية حال كان رجلا شعبيا وطيبًا. . ففى حين كان يجلس جمال أفندى بجوار مدخل السينما الرئيسى فى صحبة مهندس البلدية وطبيب المركز وناظر المدسة الثانوية وبعض الأعيان، كانت لا تحلو له هو جلسة إلا بجوار باب «الترسو» الخلفى حيث يجلس على مقعد مرتديا طربوشه، وواضعا ساقًا على ساق، يرد تحيات الحرافيش والبسطاء الداخلين إلى السينما، أو يشخط فى بعضهم إذا تزاحموا على الدخول. . أو حاولوا مراوغة عامل الباب والدخول بغير تذكرة، ثم يستجيب بسهولة غريبة بعد ذلك لرجائهم له بالسماح لهم بدخول أربعة أشخاص أو خمسة بثلاث تذاكر فقط؛ لأنه «كل سنة وأنت طيب يا حاج». . و«نفسنا نشوف الفيلم مع بعض، وليس معنا سوى هذا المبلغ. . إلخ». ومع أن قيمة تذكرة الدخول لم تكن تزيد عن ثلاثة قروش، إلا أن الحاج «حسن» كان يطبق مبدأ الرحمة أكثر مما يطبق مبدأ الالتزام بالأسعار المحددة، فيقبل من هذا قرشا يضعه فى جيبه ويشير لعامل الباب بالسماح له بالدخول، ومن ذلك قرشين ومن ذلك نصف قرش وهكذا، ثم ينهض فى نهاية السهرة وجيبه يشخشخ بالقروش، التى دفعها البسطاء من الناس ويرجع إلى بيته مطمئنا إلى حسن سير العمل فى مؤسسته.

لم تكن مدينتى إذن محرومة من السينما لكى نركب القطار إلى دمنهور خصيصًا لمشاهدة بعض الأفلام، لكن دمنهور كانت تمثل بالنسبة لنا «عجيبتين» من عجائب الدنيا السبع: الأولى أن بها دارين للسينما فى وقت واحد يعرض كل منهما فيلما مختلفا، وكنا نحن نتصور أن وجود أكثر من دار فى مدينة واحدة خروج على نظام الكون الطبيعى!.

والثانية: أن هاتين الدارين كانتا تعرضان الأفلام الحديثة، التى لم نكد نقرأ فى الصحف ومجلة الكواكب عن انتهاء تصويرها، فى حين كان الأمر يتطلب عاما على الأقل قبل أن تصل هذه الأفلام نفسها إلى سينما مصر بدسوق، وبعد أن تكون قد تهلهلت وطافت بمعظم دور العرض فى مصر من أقصاها إلى أقصاها،

ومن هنا جاء احتفالنا بالعيد بمشاهدة أحد هذه الأفلام الحديثة فى دمنهور، وحين أرجع الآن إلى موقف أبى من هذه «الرحلات»، التى كان يسمح لى بالقيام بها وأنا فى الحادية عشرة من عمرى مع أقران لا يزيدون عنى فى العمر إلا قليلا، فإنى لا أملك إلا أن أزداد إعجابًا بإيمانه القوى بالله، وبتقدمية أفكاره عن التربية والاستقلالية بالقياس إلى عصره، فلقد استغرق الأمر منى شهورًا طويلة من معاناة الخوف والقلق، قبل أن أسمح راغمًا لأبنى بأن «يسافر» وحده بسيارة أجرة من حى حدائق القبة بالقاهرة إلى شارع جسر السويس على بعد مسافة قصيرة؛ لكى يزور عمه منفردًا، ويشعر باستقلاليته، ويتدرب على الاعتماد على نفسه وعلى الحركة وحيدًا فى شوارع المدينة، وقد كان عمره حين راغمت نفسى على أن أسمح له بهذه «المغامرة الخطرة» ١٢ عاما، ومع ذلك فلم يهنأ لى مقام ولم أستقر فى مكان منذ غادر مسكنه، حتى خاطبنى من بيت عمه ليبلغنى بوصوله سالما إلى غايته، وتكررت المحنة بكل تفاصيلها عند رحلة العودة وحتى رجع مبهورا يحكى لى عن «تجربته المثيرة»، وقضيت أنا الوقت كله أتمتم بآيات القرآن الكريم، وأغالب نفسى حتى لا أتراجع عما انتويته من السماح له تدريجيًّا بالذهاب إلى «مشاوير» أبعد فأبعد إلى أن يستطيع الحركة فى مدينته وحده.. ألا يحق لى إذًن أن أعجب بقوة إيمان أبى رحمه الله، وقد كان يسمح لى بالسفر إلى دمنهور وحدى فى سن الحادية عشرة، ويسمح لى كذلك بممارسة رياضه التجديف فى النيل وحدى أيضًا بقوارب الصيادين الصغيرة، التى كنا نستأجرها منهم بعشرة قروش فى الساعة، وأنا فى هذه السن الصغيرة نفسها؟

* * *



٥

رابطة العشاق

«زرت» معظم دول العالم قبل أن أراها على الطبيعة، وعرفت السياحة الفكرية قبل أن أعرف السياحة العملية بسنوات طويلة.

فلقد قمت بأولى رحلاتى السياحية خارج مصر، وأنا فى التاسعة والعشرين من عمرى.. أما أولى رحلاتى الفكرية على الورق التى عرفت فيها معظم دول العالم وأدبائه ومفكريه.. فلقد بدأت غالبًا فى سن الحادية عشرة، ففى مدينتى الصغيرة دسوق، كانت هناك مكتبة تقع فى ميدان محطة السكة الحديدة، اسمها مكتبة «فرج»، وكانت كغيرها من مكتبات المدينة تعتمد فى نشاطها التجارى أساسًا على بيع الكتب والأدوات المدرسية، لكنها كانت تنفرد عنها بشىء مهم مميز، وهو أنها كانت تعرض إلى جانب الكتب المدرسية كتبًا أدبية لمؤلفين وأدباء عظام، كنا نقرأ أسماءهم فى الصحف ونسمع أحاديثهم فى الإذاعة وننبهر بها، كطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم وأحمد أمين وغيرهم.

وكان المصدر الأدبى الوحيد لمكتبة فرج هذه سور الأزبكية المكتظ بالكتب القديمة، فكان صاحب المكتبة يسافر إلى القاهرة كل شهرين، وينتقى من الكتب القديمة المعروضة فى مكتبات السور ما يراه قابلاً للرواج فى مدينته ويشتريه بالجملة، ويرجع به ليجد من ينتظرون عودته بلهفة، ولم تكن أسعار الكتب فى ذلك الوقت من بداية الخمسينيات تزيد مهما زادت عن قروش قليلة، فالكتب الجديدة نفسها كانت أسعارها بالقروش وليس بالجنيهات، كما هو الحال الآن،

وكانت سلسلة «اقرأ» الأدبية الشهرية العظيمة تنشر عيون الأدب العربى والعالمى، ولم يكن سعر النسخة الواحدة منها سوى ستة قروش، وكانت روايات الهلال تنشر سلسلة جورجى زيدان «روايات تاريخ الإسلام» وروائع الأدب العالمى المترجمة وتباع بخمسة قروش للنسخة، كما كانت سلسلة «الكتاب الذهبى» التى نشرت مؤلفات إحسان عبد القدوس ويوسف السباعى ويوسف إدريس ونجيب محفوظ وعبد الرحمن الشرقاوى وأمين يوسف غراب ويحيى حقى وغيرهم، كانت هذه السلسلة تباع بعشرة قروش «كاملة»؛ لأن طباعتها كانت أفخر وغلافها كان مموهًا باللون الذهبى اتساقًا مع اسم السلسلة.

فإذا عرفت ذلك أدركت أن صاحب المكتبة لم يكن غالبًا يدفع فى تجارته، التى يسافر خصيصًا للقاهرة لجلبها أكثر من أربعة أو خمسة جنيهات على الأكثر، وأن هذا المبلغ كان كافيًا لأن يملأ رفوف مكتبته بتلك الكتب الثمينة، التى نتحرق نحن شوقًا لوصولها إلى مدينتنا، ولا شك أن العصر نفسه كان عصر قراءة، ولم يكن للشباب وتلاميذ المدارس خاصة فى شهور الصيف من شاغل يشغل أوقات فراغهم الطويلة سواها.. فلم يكن التليفزيون قد عرف طريقه إلى البيوت ولا الفيديو ولا الدش ولا حتى جهاز الكاسيت، لهذا فقد كان من المألوف أن تظهر فى مدينتى فى الصيف «مكتبات مؤقتة»، يقتصر نشاطها الثقافى على شهور العطلة فقط، فإذا انتهى الصيف أوقفته ورجعت لممارسة نشاطها «الجاد» الأصلى.

وكانت هذه المكتبات المؤقتة فى الأصل محلات للتجارة البسيطة من الحلوى وخردوات وغيرها، لكنها تضيف لنشاطها خلال فصل الصيف نشاطًا موسميًّا جديدًا هو «تأجير الكتب الأدبية» لطلبة المدارس، الذين يعانون من الفراغ فى الصيف. نعم «تأجير» الكتب والمجلات القديمة وليس بيعها، إذ كان أصحاب هذه المحلات يعرضون بمحلاتهم كل صيف عددًا من الكتب والمجلات القديمة «ويؤجرونها» للقراءة بنصف قرش للمجلة وبقرش صحيح للكتاب، فكان من بين

الشباب وتلاميذ المدارس من يستأجرون هذه الكتب باليوم كما يستأجرون الدراجات من محال تأجيرها بالساعة.. لكنى ولسبب لا أدريه للآن لم أتعامل مع هذه الكتب المؤجرة أبدًا، مع أنى رأيت رفاق الطفولة يتعاملون معها.. وصاحبت بعضهم إلى هذه المحال، ورأيتهم يعيدون الكتب المؤجرة بعد فراغهم من قراءتها، فيغرمهم أصحاب هذه المحلات نصف قرش إضافيًّا لتمزيق الغلاف أو لسوء معاملة الكتاب خلال فترة الإيجار.. ولست أدرى لماذا نفرت من الفكرة رغم فائدتها، وفضلت دائمًا اقتناء الكتب والاحتفاظ بها، رغم ما كان يسببه لى ذلك من عنت وضيق مادى شديد.. فقد كنت أنفق معظم مصروفى الأسبوعى فى شراء الكتب؛ خاصة خلال عطلة الصيف فيتبدد مصروفى فى اليومين الأولين من الأسبوع، وأمضى بقيته خاوى الوفاض، أقترض من شقيقى الأكبر ما أستعين به على نفقتى، أو أطلب نجدة إضافية من أمى، حتى تنبه أبى رحمه الله إلى ذلك وبدلاً من أن ينهرنى لتبديد مصروفى «فيما لا يفيد»، كما فعل آباء بعض زملائى معهم، منحنى تصريحًا بأن آخذ من موزع الصحف، الذى يأتى إليه كل صباح بالأهرام ما أريد من الكتب الدورية التى توزع مع الصحف، على أن يحاسبه الموزع على ثمنها فى المساء مع ثمن الصحيفة، فرفع بذلك عنى عبئًا ماليًّا «باهظًا» وشجعنى على مواصلة القراءة، وأسهم بذلك فى تحديد مسارى فى الحياة، إذ ربما لو كان قد نهرنى أو انتقد سوء تصرفى فى نقودى، كما فعل غيره مع أبنائهم لكنت زهدت القراءة فى هذه السن المبكرة، واتخذت لنفسى خطا آخر فى الحياة، لكنه لم يفعل لحكمة رآها ولم تسمح لى سنى الصغيرة بإدراكها، فأسهم فى تكوينى الثقافى وساعد «أقدارى» علىَّ فخرجت إلى الحياة عضوًا فى «رابطة عشاق المعرفة» التى قال الفنان العظيم شارلى شابلن فى مذكراته إنها موجودة فى العالم، وتجمع بين الباحثين عن المعرفة فى كل المجالات، وتربط بينهم بسمات وخصائص نفسية مشتركة بغير أن يدروا بذلك.

وهى «رابطة» تحدد لعضوها فيما أتصور منحى خاصًّا فى الحياة، يعلى من

قدر المعرفة والثقافة وتذوق الفن بكل أشكاله، ولا يعطى أهمية كبرى للاعتبارات المادية والنجاح المادى. . أو الثروة المادية فى الحياة، وليس معنى ذلك أن أعضاء هذه «الرابطة» يرفضون النجاح المادى أو الثراء، أو لا يسعون إليه كغيرهم من البشر، فالمؤكد أنهم كغيرهم يدركون قيمة المال ولا يرفضونه، لكنهم ولأسباب تتعلق بتكوينهم النفسى ومزاجهم الثقافى القديم، لا يعطونه أبدًا الأولوية القصوى من اهتمامهم، ولا يقيّمون الناس أبدًا على أساس حظوظهم منه، فيحترمون وينبهرون بمن يملك المال الوفير ويحتقرون أو يستهينون بشأن من لا يملكه، وإنما يحترمون غالبًا من «يعرف» أكثر من غيره، ومن يعطى الحياة أكثر مما يأخذ منها، ومن تتسق تصرفاته واختياراته فى الحياة مع مبادئه وأفكاره التى يؤمن بها ويدعو إليها، ومن تحكم تصرفاته ورؤيته للحياة قيم ومثاليات، تساعد على تجميلها وتيسيرها على الاخرين وليس على تشويهها ونشر القبح البشرى فيها، ولهذا فإنه يندر، إن لم يستحل، أن تجد مثقفًا حقيقيًّا يحترم فى أعماقه ثريًّا جاهلاً أو ثريًّا فظًّا يعتز بماله ويدل به على الآخرين، أو ثريًّا لا يعى قيمة المال الأدبية، ولا يحسن التصرف فيه، أو ثريًّا يستفز بماله مشاعر المحرومين ويزيد من عناء حياتهم.

ويندر أو يستحيل أيضًا أن تجد مثقفًا حقيقيًّا يشعر بالضعف الإنسانى أمام إنسان آخر لمجرد أنه أكثر منه مالاً، كما يشعر البسطاء من الناس بذلك أمام الأثرياء، أو مثقفًا حقيقيًّا، يرى المال فضيلة من فضائل أى إنسان ترجح كفته على غيره من البشر عند التقييم والتفاضل!.

وكل أو معظم أعضاء هذه «الرابطة» فى رأيى يتخذون من المال موقف الفيلسوف الإغريقى زينون نفسه، الذى ولد بقبرص عام ٣٣٦ قبل الميلاد وعاش فقيرًا ومات فقيرًا وحين مات منحوه تاجًا ذهبيًّا وقبرًا فى مقابر العظماء، وقد قيل له ذات يوم: الملك يكرهك فقال: وكيف يحب من هو أغنى منه؟.

أى من هو أغنى منه بالمعرفة والحكمة والعقل والراجح!

وكلهم أو معظمهم أيضًا يؤمنون فى تصورى بما كان يؤمن به المتنبى من أنه «وخير صديق فى الأنام كتاب»!

وإذا كنت أنا شخصيًّا ممن لا يستطيعون الاستغناء عن البشر وأنس الصحبة والصداقة المخلصة، التى تعطر حياة الإنسان وتدفع عنه شبح الوحدة والاكتئاب، فلقد لاحظت فعلا وعلى مدى سنوات العمر أننى فى الفترات التى كنت أقرأ فيها كتابًا جديدًا ممتعًا، كان هذا الكتاب يعوضنى عن وحدتى، وعن كل شىء آخر فى الحياة. فى حياتى كنت أتعجل عودتى من العمل فى المساء إلى شقتى، التى أقيم فيها وحيدًا لأستغرق فى قراءة كتاب ممتع بدأته، فأستغنى بذلك عن سهرتى اليومية مع أصدقاء طوال فترة استغراقى ومعايشتى لهذا الكتاب، ولا أرجع إلى سهرة الأصدقاء إلا بعد انتهائى منه، حتى عرف الأصدقاء ذلك عنى.. واعتادوا أن يسألونى بعد عودتى من هذا «الاحتجاب» الدورى عن اسم الكتاب، الذى شغلنى عنهم فى الليالى الماضية، وقد حدث لى هذا الاستغراق الكلى إلى حد الذهول عن كل ما حولى، وهذا الاستمتاع إلى حد النشوة بل واللذة الروحية الطاغية حين قرأت ثلاثية نجيب محفوظ «بين القصرين وقصر الشوق والسكرية»، وحين قرأت «أولاد حارتنا» والحرافيش وكل أعماله، وحدث لى ذلك أيضًا حين قرأت مجلدات كتاب وليم شيرر «قيام وسقوط الرايخ الثالث»، وأنا فى العشرينيات من عمرى، وكتاب «عشرة أيام هزت العالم» للصحفى الأمريكى جون ريد عن الأيام التى سبقت الثورة البلشفية فى روسيا ١٩١٧، وكتاب «أقدام على الطريق» للصحفى الأديب المرحوم محمد زكى عبد القادر وكتاب «حياة محمد» للدكتور محمد حسين هيكل، وكتاب «الأيام» بأجزائه الثلاثة لطه حسين و«عودة الروح» لتوفيق الحكيم، ورواية «الأرض» لعبد الرحمن الشرقاوى ومسرحيات «الذباب» و«جلسة سرية» و«الأيدى القذرة» لجان بول سارتر، وكتاب «فى صالون العقاد كانت لنا أيام» لأنيس منصور، وكتاب «فجر الإسلام» و«ضحاه» و«ظهره» لأحمد أمين، ومجلدات قصص تشيكوف و«دستويفسكى» وغيرها من الأعمال الأدبية والفكرية.

وقد لاحظت أننى بعد انتهائى من قراءة أى كتاب عظيم القيمة الأدبية والفكرية، أشعر شعوراً عجيبًا لا أستطيع وصفه أو تحديده على وجه الدقة.. وكل ما أستطيع أن أقوله عنه هو أننى كنت أشعر بعد انتهائى من قراءة أى كتاب من هذا النوع.. هو أننى قد أصبحت إنسانًا «أفضل» منى قبل أن أقرأه.. وأننى قد اكتسبت قيمة ذاتية لم تكن لى قبل قراءته، كما لاحظت أيضًا أننى أشعر بعد انتهائى من قراءة مثل هذه الكتب أننى قد أصبحت أقل احتياجًا للاخرين بل ولمتاع الدنيا وأعراضها أيضًا منى قبل قراءته.. فكأنما قد سلّحنى هذا الكتاب الذى قرأته بسلاح إضافى، يزيد من قدرتى على الاكتفاء الذاتى والاستغناء عن الآخرين.

ولست أعرف تفسيراً علميًّا محدداً لهذا الإحساس، اللهم إلا إذا وضعنا فى الاعتبار أن المعرفة تزيد من ثقة المرء بنفسه، ومن فهمه للحياة فيزداد قدرة على مواجهتها ويزداد استعداداً للاستغناء عما يعتبره الآخرون «أهدافًا» أولى باهتمامهم وكفاحهم من أجلها كالأهداف المادية والوجاهة الاجتماعية.. والنفوذ.. وغير ذلك من الأهداف المماثلة.

وقد ظللت على حيرتى مع هذا «الإحساس الغريب» الذى ينتابنى بعد قراءة أى كتاب جيد، حتى قرأت منذ سنوات كتابًا صغيراً ممتعًا للدكتور حسين أحمد أمين اسمه «فى بيت أحمد أمين» يتحدث فيه عن نشأته وظروف تكوينه فى أسرة عائلها هو الأديب الكبير والعالم المحقق الدكتور أحمد أمين، فقرأت فى هذا الكتاب أن أحمد أمين قد رأى ابنه يومًا يقرأ رواية للكاتب البريطانى أوسكار وايلد، فتشكك الأب الأديب فى تأثيرها السلبى عليه فى سنه الصغيرة وقتها وقال له:

ـ سل نفسك بعد الفراغ من قراءة أى عمل أدبى عما إذا كنت قد صرت بسبب قراءتك له إنسانًا أفضل أم لا، وعما إذا كان عزمك قد قوى على أن تكون علاقتك بمن حولك أكثر إنسانية أم لا، فإذا كان الجواب بالإيجاب فاعلم أن الكتاب الذى قرأته عمل فنى من الدرجة الأولى!.

ثم طالبه بعد ذلك بتطبيق هذا المعيار على أدب أوسكار وايلد الذى كان مكروها من جيل الأدباء لانحرافاته الخلقية والشخصية؛ ليقنعه بأن لن يخرج من قراءة أدبه وهو إنسان أكثر طيبة ونبلاً ولا أكثر فهمًا وعطفًا على من حوله!.

فوجدت فى هذا الحديث تفسيراً لبعض ما عجزت عن تفسيره من مشاعرى عقب قراءة كثير من الأعمال الأدبية الراقية، التى قرأتها خلال رحلة العمر ابتداء من مرحلة الصبا التى كانت مكتبة «فرج» فيها هى نافذتى الأولى على عالم المعرفة السحرى.. وانتهاء بمرحلة الكهولة التى مازلت أقف فيها مبهوراً ومسحوراً أمام كل كتاب عظيم أقرأه، فيبدد بعض ظلام جهلى ويضيف إلى معرفتى بالكون والحياة والنفس والبشرية الجديد.. والمفيد.

* * *



٦

أحلام القاهرة

كالحلم الملون الجميل كانت تتراءى لى القاهرة من بعيد، وأنا صبى يعيش فى مدينة صغيرة هادئة من مدن الوجه البحرى! حلم نسجت خيوطه الذهبية متابعتنا للأفلام السينمائية القديمة التى تبدو فيها شوارع القاهرة واسعة وجميلة.. ومبانيها فخيمة.. وحدائقها رحيبة ومساكنها فسيحة، ويعمل بها خدم يرتدون القفطان الأبيض والحزام الأحمر.. أما صورة المسكن التقليدية لأبناء القاهرة كما قدمتها لنا هذه الأفلام، فقد كانت دائمًا هى الفيللا الواسعة التى يتصدر بهوها سلم رخامى عريض، ينزل منه «الباشا» مرتديًا روبًا قصيرًا كالجاكيت فوق البنطلون ويمسك بيده «بايب» إنجليزية عريقة ويلف حول عنقه كوفية أنيقة.. ويتساءل بوقار: فيه إيه يا عثمان!.

ففى كل بيت نراه فى الأفلام المصرية، كان هناك دائمًا «عثمان» أو «إدريس» أو «عبده» وهو التابع الأمين لسيد البيت، ولكل رب أسرة ابنة جميلة كليلى مراد لها مربية عطوف مخلصة اسمها دادة حليمة، تحدب عليها وترعى شئونها وتشاركها مشاعرها حين يخفق قلبها بالحب لأول مرة، وتسألها عما يشغلها ويضنيها وهى بنت الحسب والنسب والدلال والجمال، فتجيبها ساهمة وهى تتطلع لنجوم السماء من شرفه غرفة نومها: مش عارفة مالى اليومين دول يا دادة!.

فلا يطول الوقت حتى ينفضح السر، ويتضح أنها قد وقعت فى هوى كمال الشناوى أو أنور وجدى أو محسن سرحان، من أبطال نجوم السينما القديمة، وقد

تعرفت عليه ابنة الباشا بالصدفة على حافة حمام السباحة بالنادى أو فى محل «جروبى» أثناء تناول شاى العصر، أو فى أحد المحلات التجارية الكبيرة التى كنا ندهش لاتساعها وكثرة العاملين بها وأناقتهم، كأنهم موظفون بمصلحة حكومية لا فى محلات تجارية، فصورة المحل التجارى التى نعرفها فى مدينتنا هى الصورة التقليدية لمحل يفتح بابه على الشارع، ويجلس صاحبه إلى مكتب صغير فى أحد جوانبه ويعمل معه مساعدون يرتدون الجلاليب، ولا يزيد عددهم غالبًا عن ثلاثة.. أما هذه المحلات أو المخازن التجارية الكبيرة التى يقف ببابها الدائرى موظف يرتدى الزى الموحد أو «اليونيفورم» ويضع على رأسه الكاب.. ولا عمل له إلا الابتسام فى وجوه الزبائن الداخلين! فكان شيئًا لم نره إلا فى هذه الأفلام.

وفى صباى أصدرت حكمًا داخليًّا غير قابل للمناقشة بينى وبين نفسى هو أن أسعد البشر هم سكان القاهرة يليهم سكان الإسكندرية! لماذا؟ لأن سكان القاهرة المحظوظين يمشيون فى شوارع واسعة أنيقة، ويقيمون فى بيوت جميلة بداخل كل منها سلم رخامى.. ويشترون أشياءهم من محلات تجارية مبهرة تبيعهم فيها أشياءهم فتيات جميلات، يضعن الروج على شفاههن وينطقن بكلمات فرنسية جميلة الإيقاع والنغمات، وحين تكون لديهم مناسبة سعيدة تستحق الاحتفال فإنهم يذهبون دائمًا إلى ملهى «الأوبرج»، ويتناولون العشاء مع «الشمبانيا»، ويشاهدون الرقص الشرقى من سامية جمال أو تحية كاريوكا!.

أما حين تواجه أحدهم مشكلة، فإنه يجلس إلى البار ساهمًا يحتسى كؤوس الويسكى ويدخن بشراهة.. إلى جواره صديق البطل الدائم فى كل فيلم، يحاول التهوين عليه وتخفيف آلامه!.

ومن استغراقنا فى دنيا الأفلام المصرية القديمة هذه، تصورت أن كل أسرة قاهرية لابد أن يكون فى مسكنها بار أمريكانى أنيق، وأن سكان القاهرة أو معظمهم على أقل تقدير مدمنون للشراب ويحتسون الخمر كل يوم، ويترددون

على الملاهى الليلية ويصاحبون الراقصات، ولم لا أتوهم ذلك، وكل أسرة حين تسأل ضيفها: ماذا تشرب؟ يجيبها ببساطة: ويسكى بالصودا!.

ومن المؤسف حقًّا أننا قد حفظنا أسماء هذه المشروبات، ونحن أطفال صغار.. وكنا نقلد أبطال هذه الأفلام حين يرفعون كؤوسهم ويتبادلون الأنخاب قائلين: فى صحتك، فنرفع نحن أيضًا أكواب الشاى وندقها فى أكواب أصدقائنا قائلين مثل أحمد سالم وأنور وجدى: فى صحتك!.

وهذه هى خطورة هذه الصورة الزائفة التى قدمتها لنا أفلامنا القديمة عن حياة أهل القاهرة وألهبت بها خيالنا كأطفال، فجعلت رؤية القاهرة أو الإقامة فيها هى حلم العمر!.

ولست أصدق واحدًا من أبناء الأقاليم من جيلنا إذا قال إنه سافر إلى القاهرة لأول مرة فى حياته، وفى مخيلته صورة أهرام الجيزة وأبى الهول وقلعة صلاح الدين والمتحف المصرى بميدان التحرير.. فالحق أن جيلنا كله أو معظمه كان يسعى لزيارة القاهرة لأول مرة وفى مخيلته نجوم أفلام السينما القديمة، الذين يتوقع أن يراهم يسيرون فى شوارعها ويتحدث إليهم ويصادقهم.. وصورة النساء ذوات الأذرع البيضاء العارية التى تخرج من نافذة السيارة وهن يقدنها.. وصورة ملهى الأوبرج.. ومحل «جروبى» الذى يتجاور فيه الرجال والنساء بحرية ويشرب الجميع شمبانيا أو ويسكى بالصودا! وبالمناسبة فقد ظللت سنوات فى صباى أتمنى أن أعرف شيئًا مهمًّا، هو ما هذه الصودا التى يشربون بها الويسكى فى الأفلام؟ وهل هى حرام كالخمر أم حلال كالماء الزلال؟.

ولم يسعفنى أحد من رفاق الطفولة للأسف بمعلومات كافية عنها.. ولم أجرؤ بالطبع على سؤال الكبار عنها، حتى اكتشفت بعد سنوات أنها كربونات الصوديوم، وأنها محلول قلوى يدخل فى صناعة الزجاج والصابون والخبز والورق والنسيج، وأنها تستعمل أيضًا كمحلول مخفف ومهضم.

أما الكبار من أبناء مدينتنا فكانوا يسافرون إلى القاهرة إما لأعمالهم التجارية إذا تطلبت ذلك، وإما لهدف آخر مقدس هو زيارة أضرحة الإمام الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة وغيرهم من آل البيت، ولم أسمع من أحد منهم فى طفولتى وصباى أنه قد زار منطقة الأهرام وأبى الهول والمتحف المصرى أو آثار سقارة، وإنما سمعت منهم الكثير عن «النورانية» التى كانت تنبعث من ضريح سيد شباب أهل الجنة الإمام الحسين، وهم يقرأون الفاتحة أمامه، وعن العطر الفواح الذى كان ينبعث من مقام «رئيسة الديوان» السيدة زينب بنت على وشقيقة الحسن والحسين، والخطيبة الفصيحة الشجاعة التى شهدت كربلاء وحملت مع السبايا إلى الشام وينسب إليها الضريح المقام بالقاهرة، وعن الأنغام السماوية التي ترددت فى أعماقهم، وهم يقفون أمام ضريح «نفيسة العلم» العابدة الفاتنة السيدة نفسية بنت الحسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن السبط بن الإمام على بن أبى طالب، رضى الله عنهم أجمعين.

وقد كانت لأبى فى شبابه رحلة سنوية يخرج إليها مع عمه الذى رباه بعد وفاة أبيه، وعدد كبير من الأعمام الآخرين وأبناء العمومة الشباب لا يقل عن ٢٠ أو ٢٥ رجلا فيذهبون إلى القاهرة، ويقيمون بها بضع ليال يلتزمون خلالها ببرنامج يومى للصلاة كل يوم فى أحد مساجد آل البيت المنتشرة فى القاهرة، ويرجعون سعداء بما فعلوا، فيجتمعون فى «حضرة» سنوية عقب العودة احتفالاً بهذا الفوز العظيم. وكنا حين ننطق بكلمة جدى نقصد بها عم أبى هذا، يرحمهما الله معًا. . وكان تاجراً كبيرًا، وشيخًا معممًا أحمر الوجه باسم الثغر دائمًا أبيض اللحية، يشع الأمان والاطمئنان من ملامح وجهه، ولم أر أبى يقبل يد أحد فى حياتى سوى يد جدى هذا إذا زاره ذات يوم فى محله التجارى، وقد كنت أعجب فى طفولتى لأبى وهو من أراه دائمًا محاطًا باحترام العاملين معه واحترام عملائه، حين أراه ينتفض قائمًا ويهرول إلى خارج محله ليستقبل جدى هذا، وينحنى على يده مقبلاً أمام المارة فى الشوارع، ثم يصطحبه إلى مكتبه ووجهه

يتفجر بالسعادة والحب لهذا العم الجليل، ومع ذلك فلم يطلب منى أو من بقية إخوتى ذات يوم أن نقبل يد جدنا هذا كما يفعل، وكان يراقبنا ونحن نصافحه باحترام ودون انحناء على يده بلا اعتراض مؤمنًا بأن لكل جيل سلوكه وتقاليده، وأن الاحترام إن لم ينبعث من داخل نفس الإنسان تلقائيًّـا، فإنه لا يمكن أن يفرضه عليه أحد من خارجه، وأن الاحترام إنما يستقر فى القلوب والنفوس وليس شرطًا أن يعبر عنه الإنسان بتقبيل اليد، وربما لهذا السبب لم نتعود نحن، أبناءه، أن نقبل يده أو يد أى إنسان أخر مهما كان شأنه وفضله.

وحين عملت بالصحافة وأنا مازلت طالبًا بكلية الآداب، دخلت على الإمام الأكبر شيخ الأزهر الراحل فضيلة الشيخ / محمود شلتوت يرحمه الله مع مصور زميل لى من الأهرام، فاندفع إليه الزميل وانحنى على يده مقبلاً بخشوع، فى حين وجدت نفسى أحمل له كل احترام الدنيا وأصافحه رغم ذلك مكتفيًا بالمصافحة والإجلال دون التقبيل، وحين رويت ذلك لأبى فى أجازتى لم يزد عن أن يقول لى باسمًا: فاتتك فرصة ثمينة لنيل بركة هذا الرجل الصالح!.

ولم يلمنى على عدم تقبيل يد الإمام الأكبر، ولم يغضب منى لذلك، والحق أننى حين أراجع الآن منهج أبى فى التربية، وأنا أب لأبناء فى مرحلة الشباب وقد تخطيت الخمسين من عمرى، أجدنى شديد الإعجاب بمنهجه التقدمى هذا بالقياس إلى زمانه إذ لم يكن يضرب أبناءه أبدًا، ولم يكن يزيد عقابه للمخطئ منهم عن التجهم فى وجهه بعض الوقت، يذوب خلاله المخطئ خجلاً من نفسه ويتحرق شوقًا لاسترضائه ونيل عفوه، كما كان يفيض حنانًا ورقة لأبنائه، وفى مسيرتى الدراسية كلها لم يؤنبنى يومًا بحدة لعدم استذكار دروسى، وإذا لاحظ انشغالى عنها لفت نظرى إلى ذلك بكلمات مقتضبة، وفيما عدا ذلك فلم أكن أحتاج منه إلى متابعة شديدة لدراستى، ولم أكن أسمع منه فى بعض المراحل الدراسية سوى مطالبته لى بالاهتمام بصحتى إلى جانب دراستى، ومطالبته لى «بالاعتدال» فى سهر الليالى حتى الصباح للاستذكار، لافتًا نظرى برفق إلى أن

لبدنى على حقًّــا أيضًا، وأنه ينبغى لى أن أنظم وقتى؛ بحيث لا أحبس نفسى معتزلاً الأصدقاء والنزهات فترات طويلة قبل الامتحان.

أما جدى هذا فقد كانت له رحلة سنوية أخرى، لا يفرط فيها مهما كان الظروف والأحوال هى رحلة الحج، فقد كان الحاج الأبدى إلى بيت الله الحرام من قبل مولدى بأكثر من ثلاثين سنة، وظل كذلك حتى مات يرحمه الله وأنا فى الخامسة عشر من عمرى عن ٣٥ حجة وقيل ٣٧.. وكنا نتندر دائمًا بعدد حجاته ونختلف فى عددها.. لكنه كان لبعض هذه الحجات اسم غريب على أسماعى فى طفولتى هو «حج البيات»، ولم أفهم معناه إلا حين تقدم بى العمر، وفهمت أن جدى هذا قد بدأ بعد أن كبر أبناؤه، وتحملوا عنه معظم عبء تجارته، يذهب إلى رحلته للحج فى بعض السنوات معتزمًا «المبيت» فى الحج إلى العام التالى، فيسافر إلى الأراضى الحجازية فى موسم الحج مع المسافرين ومن بينهم دائمًا أربعة أو خمسة من الأقارب، فيتولى شئونهم خلال موسم الحج بخبرته القديمة.. ويقودهم فى المناسك وزيارة المدينة المنورة.. ثم يودعهم عند سفرهم لبلدهم ويجاور هو الحرم النبوى وقبر الرسول عليه الصلاة والسلام حتى موسم الحج التالى، فيستقبل الوافدين الجدد للحج ويقودهم فى المناسك ثم يرجع معهم هذه المرة إلى بلاده بعد غيبة عام وبضعة شهور، ويكرر هذه العملية كل بضع سنوات، مؤملاً أن يوافيه الأجل وهو فى المدينة المنورة.. حتى كانت حجته الأخيرة وركب الباخرة من السويس ولوح للمودعين من فوق ظهرها.. ثم غادر الأبناء رصيف الميناء ليركبوا السيارة التى جاءت بهم من دسوق، فإذا بأحد بحارة السفينة يلحق بهم ويطلب منهم العودة لاستلام جثمان قريبهم الذى وافاه الأجل قبل أن تتحرك الباخرة بلحظات، ولو كان قد تأخر عليه بضع ساعات لما وجد القبطان مفرًّا من إلقاء جثمانه فى البحر، كما كان المتبع وقتها فى رحلات الحج بالباخرة، حيث لم تكن بها ثلاجات ولا إجراءات لمواجهة مثل هذه الحالة، إلا إجراء التخلص من الجثمان فى البحر، بعد كتابة محضر رسمى بذلك فى دفاتر السفينة.

ألم أقل لك من البداية أنه قد كان لأسرتى «تراث سياحى» قديم فى ركوب البحار وعبور المحيطات، وأنه ربما يكون قد انتقل إلىّ بعوامل الوراثة آثر منه! .

الحق أنه إذا جاز لى أن أعتز بشىء من تراثها إلى جانب «مجدها السياحى» القديم هذا . . فهو أن جيل الكبار من رجال أسرة أبى كانوا جميعًا من المتعلمين، وإن لم يكن بينهم أحد من حملة الشهادات العليا إلا واحد شق طريقه فى التعليم الأزهرى، وأنهى حياته شيخًا لمعهد كفر الشيخ الدينى . . أما بقية أفراد الأسرة من الرجال فلم يكن بينهم أمى واحد، وهذا ما أتعجب له حقًّا، إذ كانوا جميعًا يبدأون حياتهم بطلب العلم فى المعهد الدينى الأزهرى، فيتعلمون القراءة والكتابة والحساب ويحفظون أجزاء من القرآن الكريم، حتى إذا بلغوا مرحلة الشباب، خرجوا للعمل بالتجارة فلا يلبث كل منهم أن تكون له غالبًا ـ بعد سنوات ـ تجارته الخاصة وبيت صغير يملكه، ويقيم فيه مع أسرته، ولم تكن أسرتى معروفة بالثراء فى مدينتى، ولكنها كانت معروفة ـ وهو الأهم ـ بأن جميع رجالها الكبار ممن يجيدون القراءة والكتابة والحساب، ويقرأون الصحف اليومية باهتمام وخاصة الأهرام . . وأنهم يهتمون بتعليم أبنائهم فى المدارس الحديثة والجامعات، وقد ساعدهم على ذلك بكل تأكيد أن مدينتى نفسها كانت مدينة متحضرة رغم صغرها، وأن المسجد الإبراهيمى بها كان بؤرة إشعاع قديمة ومدرسة عريقة لعلوم الدين، وأنه كان بالمدينة أيضًا معهد دينى ومدرسة حكومية للبنين ومدرسة خاصة للبنات منذ وقت طويل، كما كانت تعرف الكهرباء ومياه الشرب النظيفة ربما منذ أواخر الثلاثينيات، وقد تفتحت عيناى للحياة فى بيت يضاء بالكهرباء وتصل إليه شبكة المياه النقية، ولم تلبث أن وصلت إليه أيضًا وأنا مازلت صبيًّا شبكة الصرف الصحى، كما كانت شوارعها مرصوفة ومزروعة بالأشجار التى تتساقط زهورها الحمراء الجميلة على الأرض طوال فصل الخريف.

لكن كل ذلك لم يكن يضاهى شيئًا مما نراه من شوارع القاهرة ومساكنها الفخيمة فى الأفلام . . فيلهب خيالنا ويؤجج أشواقنا لرؤيتها ودخول عالمها السحرى! .



٧

«عزال» المدينة!

رأيت القاهرة لأول مرة فى عام ١٩٥٥، وأنا طالب بالسنة الأولى الثانوية فى رحلة مدرسية لزيارة العاصمة بمناسبة افتتاح المعرض الزراعى الصناعى بها، وقد ركبنا القطار إليها فى الفجر، ونحن حوالى ٧٠ أو ٧٥ تلميذاً صغيراً يوقدنا ثلاثة أو أربعة من المدرسين فبلغناهم فى الضحى، وغادرنا محطة السكة الحديد بباب الحديد، فإذا بكل ما تخيلته أو تصورته عن زحام المدن الكبرى لا يضاهى شيئًا مما رأيته فى ميدان باب الحديد حين خرجنا إليه أول مرة.. يا إلهى.. من أين جاء كل هؤلاء البشر؟.. وإلى أين يذهبون؟.. إنها حق وصدق إذًا تلك النكتة القديمة التى كانت شائعة بيننا عن الريفى الساذج الذى سافر للقاهرة لأول مرة فى حياته، فغادر محطة القطار، ففوجئ برؤية كل هذه الأعداد الضخمة من سيارات الأتوبيس وعربات الترام وسيارات الأجرة المكتظة بالبشر والمتاع والحقائب، وفوجئ برؤية الناس يهرولون فى كل اتجاه فقفل راجعًا إلى المحطة ليعود إلى بلده آسفًا؛ لأنه قد جاء إلى القاهرة فى وقت غير مناسب وأهلها يتأهبون للرحيل عنها إلى جهة غير معلومة! وعجز خياله المحدود عن أن يتصور أن هذه هى حركة الحياة العادية فى مدينة كبيرة كالقاهرة، وأن أهلها ليسوا فى حالة «عزال» منها إلى بلد أخرى، إنما هم يسعون إلى أعمالهم وشئون حياتهم اليومية.

والحق أنه لولا أننى كنت قد سمعت بهذه النكتة، وضحكت لها طويلاً لما اختلف إحساسى بما رأيته فى ميدان باب الحديد عن إحساس ذلك الريفى الطيب!.

ومع ذلك فلقد كان سكان القاهرة وقتها لا يزيدون كثيرًا عن ثلاثة ملايين نسمة، وكانت بالقياس إلى حالها الآن وهى تقترب من ١٢ مليون نسمة يعيشون فى القاهرة الكبرى أشبه بأن تكون «ضاحية» «هادئة»، بالمقارنة بما هى عليه الآن (١٩٩٥)! لكنها وفى كل مراحل تاريخها ظلت ومنذ أن أنشأها القائد الفاطمى جوهر الصقلى قائد الخليفة المعز لدين الله، أكبر مدن أفريقيا! فقد أنشأها جوهر عام ٩٦٩ ميلادية لتكون عاصمة مصر بعد عواصمها الثلاث الأولى: الفسطاط والعسكر والقطائع، وفوق قطعة من الأرض مساحتها ٣٤٠ فدانًا تقريبًا وأحاطها بسور من الطوب اللبن مازالت آثاره باقية حتى الآن، وقيل إنه سماها المنصورية نسبة إلى الخليفة المنصور والد الخليفة المعز لدين الله، وظلت معروفة بهذا الاسم حتى جاء المعز إلى مصر فسماها القاهرة المعزية، وكانت هذه النواة لا تضم فى بدايتها سوى أحياء الأزهر والجمالية وباب الشعرية والموسكى وباب الخلق، ثم تمددت بعد ذلك شمالاً وشرقًا وجنوبًا وغربًا، وكثرت بيوتها وأسواقها وشوارعها حتى زارها الرحالة ابن بطوطة فى القرن الرابع عشر الميلادى فوصفها بأنها «أم البلاد المتناهية فى كثرة العمارة.. المتباهية فى الحسن والنضارة.. تموج موج البحر بسكانها وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها»!.

وزارها تاجر روسى اسمه باسيل سنة ١٥٦٥ فقال إن بها أربعة آلاف شارع ودرب كل منهما له بابان وحارسان، وفى بعض هذه الشوارع ما يقرب من خمسة عشر ألف مسكن ولكل شارع سوق، وفى الليل تضاء هذه الشوارع بالمصابيح وتغلق أبوابها وتشدد الحراسة عليها.

أما الحياة فيها كما رآها المؤرخون والأجانب فى العصور الوسطى.. فقد اتسمت دائمًا بالسهولة والمرح والرغبة فى الترويح عن النفس والخروج إلى المتنزهات وسماع الموسيقى والغناء وتبادل الفكاهات وما إلى ذلك!.

هذه إذن هى «المدينة» التى رأيتها فى ميدان باب الحديد، ذات يوم من أيام عام ١٩٥٥، ونحن نتجمع فى فناء المحطة والمدرسون من حولنا يحيطون بنا

وينظموننا كما يفعل الرعاة مع قطيع الأغنام؛ حتى لا تشرد منه «شاة» وتضيع فى الزحام.. قبل أن يقودونا إلى أحد فنادق ميدان العتبة الرخيصة فى مواجهة مسرح الأزبكية!.

وهذه أيضًا هى «المدينة» التى قدر لها أن تغير مجرى حياتى بعد عامين فقط من هذه الرحلة.. فأجئ إليها لأستقر بها طالبًا للعلم بكلية الآداب جامعة القاهرة، وأصبح من أهلها المهرولين وراء أعمالهم وشئون حياتهم اليومية، وأضيف جديدًا إلى بحر البشر الذى تموج بهم، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها على حد تعبير ابن بطوطة.

وهذه أيضًا هى «المدينة» التى قدر عليَّ أن «تتبعنى» إلى آخر العمر على حد تعبير الشاعر اليونانى السكندرى كفافيس، الذى سأقرأ فيما بعد قصيدته بعد سنوات طويلة، وسيتردد صداها فى أسماعى كلما رحلت عن القاهرة أو رجعت إليها.

فلقد أحببت هذه المدينة بزحامها وضجيجها وتلوث هوائها بعادم السيارات ودخان المصانع ولم تعد لى حياة أخرى بعيدًا عنها.. ولقد زرت بعد ذلك أجمل مدن الدنيا.. وأجمل بقاعها وأكثرها هدوءًا وسحرًا للطبيعة، فلم تعوضنى إحداها عن هذه «المدينة» التى تتبعنى طوال العمر، ولم يغننى هدوء الحياة ولا جمال الطبيعة فى أى مكان من العالم عن الحنين للعودة إلى هذه المدينة بكل ما فيها من سلبيات وإيجابيات.

ولا شك أن هناك علاقة خفية بين بعض الأماكن والبشر، شبيهة بالعلاقة بينهم وبين الأشخاص.

ألسنا نرى بعض الأماكن للمرة الأولى فى حياتنا فنحبها ونرتاح إليها، ونرى بعض الأماكن الأخرى لأول مرة، فنضيق به ونشعر بأن حجرًا ثقيلاً قد جثم فوق صدورنا؟.

وألم يهاجر الرسول الكريم ﷺ من مكة موجع القلب حزينًا لاضطراره إلى مفارقتها قائلاً ما معناه: والله أنك لأحب البلاد إلى، ولولا أن أهلك قد أخرجونى منك لما خرجت؟

لقد وقع هوى القاهرة فى نفسى منذ رأيتها لأول مرة فى هذه الرحلة المدرسية، قد أمضيت بها أربعة أيام زرت خلالها منطقة الأهرام والمتحف المصرى والمعرض الزراعى الصناعى، ورأيت به تلك «العجيبة» الجديدة التى كانت تعرض بمصر لأول مرة وهو «التليفزيون»، ولم يكن قد دخل مصر بعد وكان اختراعًا بريطانيًّا فى الأساس، خرج من هيئة الإذاعة البريطانية «البى بى سى»، وطوره الأمريكيون وبدأوا استخدامه، ولم يكن منتشرًا فى ذلك الوقت فى كثير من دول العالم.

ودخلت المسرح لأول مرة فى حياتى فى هذه الرحلة أيضًا، فشاهدت مسرحية كوميدية بمسرح الريحانى ودفعت مبلغا «هائلاً» فى تذكرته هو ٢٥ قرشًا! ووقع هوى المسرح أيضًا فى نفسى منذ تلك اللحظة.

واكتشفت لدهشتى أن «اللوكاندة» القديمة الرخيصة التى نقيم بها تقع فى مواجهة سور الأزبكية الشهير، الذى طالما سمعت وقرأت عنه فطفت به كالهائم الولهان واشتريت منه بضع روايات لذلك الأديب «المغمور»، الذى كنت قد قرأت له رواية واحدة من قبل فى دسوق وفتنت بها وتعجبت لعدم انتشار رواياته، وهو نجيب محفوظ كما اشتريت أيضًا بعض روايات إحسان عبد القدوس، الذى كان يلهب خيالنا كصبية وشباب بأدبه الجرئ وقتها وشخصيات رواياته المتحررة، وكذلك بعض روايات يوسف السباعى الأولى المغرقة فى الرومانسية.

وغادرت القاهرة ومعى بقية أعضاء الرحلة موزع القلب حائرًا، فركبت القطار معهم وغادرنا مشرف الرحلة فى طنطا حيث تقيم أسرته، فإذا بى أقدم على مغامرة جرئية لا أعرف حتى الآن كيف واتتنى الجرأة على القيام بها! فانتظرت

حتى ودعنا مشرف الرحلة وحمَّل أكبرنا سنـًّـا مسئولية الإشراف عليها حتى عودتنا سالمين إلى دسوق، وانصرف مطمئنًا، فإذا بى أنتظر قليلا ثم أتسلل من بين زملائى متجها إلى الرصيف المقابل لأركب القطار عائدًا إلى القاهرة وحدى ولا مرشد ولا دليل!.

لماذا فعلت ذلك.. ولماذا ركبت القطار حتى طنطا ثم غادرته عائدًا إلى القاهرة؟

الحكاية أنه كان لى خال يقيم بالقاهرة، ويدرس بالأزهر فى السنة النهائية، وكنت قد استأذنت أبى فى أن أبقى بضعة أيام عقب نهاية رحلة المدرسة لأقيم عند خالى هذا، وأكمل تعرفى على المدينة الصاخبة ثم أرجع وحدى إلى دسوق بالقطار، ولا أعرف حتى الآن كيف وافقنى أبى على ذلك، لكنه قد وافق على أية حال ومنحنى هذا التصريح. وحين انتهت الرحلة وهمَّ التلاميذ بالتوجه إلى محطة القطار، استأذنت مشرف الرحلة فى الانصراف لزيارة خالى والإقامة عنده بضعة ليال، فرفض ذلك بإصرار ولم تفلح معه جهودى لإقناعه بأنى قد أستأذنت أبى فى ذلك، وأننى أستطيع الوصول إلى بيت خالى بلا مشاكل لأننى قد سعيت إليه وحدى خلال الرحلة، وزرته مستعينًا على ذلك بهوايتى الأبدية فى التجول والاسترشاد بالمارة فى معرفة الطريق، لكنه لم يقتنع أبدًا وأصر على عودتى مع بقية التلاميذ إلى بلدتنا ثم أفعل بنفسى ما أشاء بعد ذلك، وبعد أن يكون قد أخلى مسئوليته، والحق أنه كان محقـًّـا فى موقفه منى كمسئول عن تلاميذ رحلة مدرسية إلى مدينة هادرة كمدينة القاهرة، وكان مقررًا أن نغادر القطار الذى ركبناه من القاهرة فى طنطا لنركب منها قطارًا لدسوق، فإذا بمشرف الرحلة يعلن لنا فى طنطا أنه سيودعنا هنا ليمضى بضعة أيام مع أسرته، ثم يسلم راية الإشراف على الرحلة إلى تلميذ كبير السن.

وكان المدرسون الآخرون قد تخلفوا أيضًا فى القاهرة فوجدتها فرصتى الذهبية لقضاء بضعة أيام أخرى فى مدينة الأحلام، وانتقلت على الفور إلى الرصيف

الاخر، وركبت القطار المتجه إلى القاهرة.. ومشرف الرحلة «التلميذ» يلاحقني في القطار منزعجًا ويطالبني بالعودة معه إلى بقية «القطيع» العائد إلى دسوق، كما هو المفروض، ولكني رفضت بشدة.. ولم آبه لتهديداته لي بأنه سيبلغ أبي بما فعلت لاطمئناني إلى سابق موافقته على تخلفي في القاهرة، وظل المشرف التلميذ واقفا على الرصيف يجادلني من نافذة القطار، حتى بدأ يتحرك في طريقه السعيد إلى القاهرة وقلبي يرقص طربًا بعودتي الظافرة إليها.

ولست أدري حتى الآن كيف استطعت الوصول من ميدان باب الحديد إلى الدرب الصغير، الذي كان يقيم فيه خالي الأزهري في حي المغربلين القريب من الأزهر، مستعينًا على ذلك بركوب الترام حتى الأزهر، ثم السعي على الأقدام مسترشدًا بالمارة وعابري السبيل، عبر دروب ملتوية يصعب على الآن حتى لو استعنت بالخريطة أن أسلكها لأصل منها إلى العمارة، التي كان يقيم بها هذا الخال الطيب رحمه الله.

وكان يقيم مع اثنين من زملائه الطلبة الأزهريين في شقة من غرفتين بعمارة جديدة نسبيا في قلب أحد هذه الدروب الملتوية.

وقد رحب بعودتي.. وضحك كثيرًا لمغامرتي بالرجوع للقاهرة وحدي، ولم يلمني عليها وعشت معه أربعة أيام أخرى تعرفت خلالها عن قرب على صورة كانت جديدة عليَّ لحياة طلبة أزهريين، يتشاركون في طهو الطعام واقتسام تكلفته.. وتداعبهم أحلام التخرج والعمل والزواج والإنجاب، وتجولت في شوارع القاهرة الفاطمية حتى تحطمت ساقاي من التجول، وبحثت عن شارع خان الخليلي الذي قرأت عنه رواية نجيب محفوظ الشهيرة.. وواصلت سعيي في أنحاء المدينة سعيدًا بكل ما أرى ومفتونًا به.

وهكذا بدأت قصتي مع هذه «المدينة» التي رجعت إليها بعد عامين آخرين مع شقيقي الأكبر؛ لألتحق بكلية الآداب جامعة القاهرة وأدرس الصحافة بالقسم

الوحيد الذى كان يدرسـها فى ذلك الوقت بالجامعات المصرية، وهو قسم الصحافة بآداب القاهرة، ولأقيم فى غرفة مفروشة بشارع الدقى القريب من الجامعة فى شقة أسرة مـوظف طيب بوزارة الأوقـاف وعمرى ١٧ عامًا، ويغادرنـى شقيقى الأكبر رحمه الله، بعـد أن اطمـأن علـى اسـتقرارى فى المسكن وفى الكلية، فأواجه حياة الغربة بعيـدًا عن أبـوى وأسـرتى وأشقائى لأول مرة فتطـول هذه الغربـة مـن ذلك اليـوم فى خريف عـام ١٩٥٧ إلـى الآن، وتتحول إلى غربة نهائيـة، ثم أستقل بعد عامين بمسكن صغير خاص بى فى حى المنيل أقيم فيه ١٠ سنوات وحيدًا، ويتغير الحال فتصبح «القاهرة» هى قاعدتى التى أغادرها من حين لآخر ليوم أو يومـين لأزور مـدينتى دسوق وأسرتى.. وسبحان مغير القلوب والأحوال «والأوطان»!.

***



٨

حمام بالماء الساخن!

كانت مرحلة الاستمتاع بكل شيء وأى شيء فى الحياة ومرحلة الابتهاج «بالممارسة الأولى» للتجارب الإنسانية والخبرات.

فكل شيء فى الحياة يفقد بعض بهجته بتكرار الرؤية والممارسة والاعتياد، وكل شيء يكون فى أوج بهجته ومتعته حين تراه أو تمارسه للمرة الأولى فى حياتك.

وأكثر الناس نيلا للسعادة هم الذين يحتفظون بقدرتهم على الابتهاج للأشياء، كأنما يمارسونها لأول مرة، وأقلهم حظا معها هم من يفقدون مع الاعتياد الإحساس بجمال الأشياء والأحاسيس والتجارب.

وباستعداد نفسى بكر لاستقبال المؤثرات الجديدة والابتهاج لها حتى الثمالة، قمت برحلتى الأولى إلى أوروبا وأنا فى سن الشباب.

وكانت الرحلة بالباخرة إلى فينيسيا فى شمال إيطاليا، وكان أكثر ما أغرانى على السفر إليها بالبحر هو أن الباخرة المصرية تتوقف خلال رحلة الذهاب فى ميناء بيريه اليونانى نصف يوم، وتسمح لركابها بالنزول لزيارة أثينا القريبة من الميناء، فقررت أن أنال المتعة من طرفيها فى أول رحلة إلى أوروبا، فأرى أرض اليونان التى سار فوقها فلاسفة الإغريق العظام الذين قرأت عنهم فى صباى، وأرى المدينة العائمة فينيسيا التى ألهب خيالى بها صوت عبد الوهاب، وهو يشدو بأغنية «الجندول» للشاعر العظيم على محمود طه.

وحين توقفت الباخرة في بيريه في الصباح الباكر.. وقال لنا ضابط الباخرة الإدارى أن من حقنا مغادرتها إلى المدينة، بشرط العودة إليها قبل الساعة الثانية بعد الظهر.. خفق قلبى استعداداً لملامسة أرض الفلاسفة الذين أحببتهم.. وأحببت منهم على وجه الخصوص سقراط العظيم، وحفظت فى صباى خطبته الشهيرة أمام قضاته.. الذين حاكموه بتهمة إفساد عقول الشباب وتحقير آلهة «الإغريق»، وترنمت مراراً بكلماته القوية التى لا تخشى الموت أمامهم، حين قال:

- لو أنكم اقترحتم إخلاء سبيلى بشرط أن أتخلى عن بحث الحقيقة ومزاولة التفلسف، لقلت لكم شكراً أيها الأثينيون، لكنى أوثر أن أستجيب لطاعة الإله الذى هيأنى لأداء هذه الرسالة على النجاة بحياتى، فأنا لا أعرف ماذا يكون الموت.. وربما كان شيئًا طيبًا، وأنا لا أخافه ولا أخشاه.. لكنى واثق من أن توقف المرء عن أداء رسالته هو شر أكيد.. لهذا فإننى أؤثر ما يحتمل أن يكون طيبًا على ما أعرف جيداً أنه شر.

وأحببت أيضًا أرسطو «المعلم».. الذى سمى كذلك؛ لأنه كان أول من علم المنطق ووضع قواعده ولم يكن قبله علما، وترنمت كثيراً بكلمته الشهيرة عن ضرورة إعلاء الحق على كل الاعتبارات الشخصية، حين كان يختلف مع بعض آراء أفلاطون، فيعتذر عن ذلك قائلاً:

- أفلاطون صديقى وأستاذى.. لكن الحق أولى بصداقتى من أفلاطون!.

وأحببت أفلاطون الفيلسوف المثالى الحالم بدنيا خالية من الشرور والآثام والآلام وشاركته فى الخيال حلمه بالمدينة الفاضلة، التى يحكمها الفلاسفة وتعلى قيمة الإنسان فوق كل الاعتبارات، كما أحببت أيضًا الفيلسوف زينون وحفظت كلمته الجميلة: لنا لسان واحد وأذنان اثنتان لنتعلم أنه ينبغى علينا أن نسمع أكثر مما نتكلم.

وأعتقد أننى قد تأثرت فى حياتى الخاصة بهذه العبارة الحكيمة، فحاولت دائمًا أن أسمع أكثر مما أتكلم. . وأن أفهم ما أسمع قبل أن أبدى رأيا فيه.

وحين غادرت ميناء بيريه ومشيت فى الطريق، خيل إلىَّ للحظات أننى سألتقى بأحد هؤلاء الفلاسفة العظام يمشى بين تلاميذه. . بل وربما ألتقيت أيضًا ببعض أبطال الأساطير الإغريقية، التى ألهبت خيالى وتلفت حولى، كأنى أبحث عن قمة جبل الأوليمب التى كان يجتمع فوقها الآلهة يلهون ويعبثون بالبشر ويتنافسون ويكيد بعضهم لبعض وطعامهم من فاكهة وشرابهم من عسل، كما روت لنا الأساطير، وركبت سيارة أجرة إلى أثينا. . وتجولت فى شوارعها. . فلم أر آلهة ولا فلاسفة. . وإنما رأيت وجوها مألوفة ليونانيين لا يختلفون فى ملامحهم عن اليونانيين المصريين، الذين طالما رأيتهم وتعاملت معهم فى الإسكندرية وفى الريف المصرى، حين كانوا يعيشون به فى طفولتى وصباى.

ومع هذا فإحساسى بالنشوة فى قمته. . وكلما رأيت يونانيًّا فى محل أو فى مقهى خيل إلىَّ أنى أعرفه. . أو أنه من أقارب «باسيلى» ابن صاحب المقهى اليونانى القديم فى مدينتى الصغيرة التى عشت فيها طفولتى. . أو من أقارب «كوستى» الفران البلقانى العجوز بشاربه الأبيض المنفوش. . وكوب الشاى الدائم فى يده. . بل وهممت لأن أوقف أكثر من شخص فى الطريق لأسأله: هل تعرف باسيلى؟ هل تعرف «أفتيمو» صاحب المطعم الطيب فى بلدتى أيام الطفولة. . هل تعرف الخواجة «ينى» الذى كان صاحب أجمل مقهى فى بلدتى؟ ورددت نفسى عن الانسياق وراء خيالاتها، وبدلا من أن أسأل عن أقارب "ينى" سألت عن معبد الأكروبول الشهير الذى قرأت عنه كثيراً، ووجدته فوق ربوة عالية يصعب ارتقاؤها. . ومع ذلك فقد صعدت إليه وذهلت حين وجدت المعبد الشهير مجرد بقايا بضعة أعمدة واقفة فى العراء. . والسياح حولها يصورونها. . ولم أشعر رغم ذلك بخيبة أمل، فالمكان يوحى لى بجو تاريخى جليل، واخترت حجراً من الأحجار المتناثرة فى المكان، وجلست عليه أتأمل ما حولى وأفكر

وأسترجع ما قرأت من الأساطير الإغريقية، وفجأة رأيت مصوراً يونانيـًّـا عجوزاً يقف إلى جوار ماكينة تصوير أثرية من النوع القديم. . يا إلهى. . إنه المشهد نفسه بتفاصيله الذى بقى من ذكريـات الطفولـة. . صـندوق التصوير الذى يختفى داخله المصور. . وجردل الماء الذى يظهر الصورة، والمصور نفسه تحفة أثرية لا يقل عمره عن ثمانين عامًا. . واتجهت إليه على الفور، وطلبت منه أن يصورنى صورة مائية فى معبد الأكروبول، وسألته عن الثمن. . فذكر لى ثمنًا باهظًا لايتحمله الموقف كله، فقلت له كما كنا نفعل فى طفولتنا مع إخواننا من اليونانيين المصريين إذا غالوا فى أسعارهم:

ـ كثير. . يا خواجة. . سأدفع كذا «نصف القيمة التى ذكرها تقريبًا» فقال لى بالإنجليزية فى هدوء: تعال بكره الصبح! وضحكت وقلت له: وابن نكتة أيضًا! إذن سأدفع ما تريد من أجل «نكتتك» وروحك المرحة. . لابد أنك عشت فى مصر فى شبابك!.

وسألنى: أنت من مصر؟ إذن سأجرى لك تخفيضًا ٢٥٪ فأنا أيضًا أحب المصريين! وجلست أمامه. . واختفى داخل الصندوق. . وصورنى ووضع الصورة فى جردل الماء، ثم جففها بفوطة متسخة وأعطاها لى فوجدت ملامحى فيها كاريكاتورية، لكنى سعدت بها وبالحديث. ولمحت ساعته القديمة فى يده فتذكرت موعد رحيل الباخرة ونظرت فى ساعتى، فوجدتها تقترب من الواحدة ظهراً وأنا فوق ربوة الأكروبول فى أثينا والباخرة فى ميناء بيريه على مسافة ثلاثين كيلو متراً تقريبًا من المكان، وهرولت نازلاً. . والمصور العجوز يسألنى إلى أين وأجيبه وأنا أجرى: باخرتى ستتحرك بعد ساعة من بيريه.

وبحثت عن سيارة أجرة وقفزت منها إلى داخل الميناء. . وهرولت على الرصيف فى اتجاه الباخرة التى تطلق صفارتها إيذانًا بالرحيل ووجدت بحارتها يسحبون سلمها إلى الداخل ويهمون بإغلاق بابها، فهتفت: انتظرونى، فتوقفوا متعجبين. . وأعادوا السلم إلى الرصيف مرة أخرى وصعدت لاهثًا ودخلت إلى

الباخرة، وأنا لا أستطيع التنفس.. وقال لى ضابط الباخرة الإدارى الذى حذرنى فى الصباح من التأخر: لماذا تأخرت؟ فأجبته وأنا أستعيد اطمئنانى وهدوئى: سرقنى الوقت فى معبد الأكروبول.. فقال لى مستنكرًا: معبد الأكروبول! ظننتك ذهبت إلى السوق والمحلات التجارية كما فعل الآخرون، فسكت عازفًا عن أن أشرح له أننى من المصابين بآفة الرغبة فى رؤية الأماكن التى قرأت عنها وتخيلتها، وأننى من هؤلاء المضروبين بالأدب والفكر، الذين يهتمون فى رحلاتهم بأشياء أخرى عدا الأسواق والمحلات التجارية.

وواصلت الباخرة رحلتها إلى فينيسيا وخيالى يسبقنى إليها.. ويسترجع ما كتبه عنها «الملاح التائه» أو الشاعر على محمود طه فى قصيدته الشهيرة «الجندول» وحين وصلت إلى فينيسيا وغادرت الباخرة، رأيت الجندول.. ووجدته كما تخيلته تمامًا قاربًا أسود طويلاً، يقوده واقفًا ملاح إيطالى وسيم يتفجر حيوية ونشاطًا، لكنى وجدت إلى جواره ما يؤثر على صورته الجميلة فى خيالى، فالجندول الشاعرى هو جندول النزهة الذى يركبه فى الأصل سائح وسائحة متجاورين فى طرفه.. ويقف الملاح الإيطالى فى الطرف الآخر يستخدم مجدافه الطويل.. ويجلس أمامه مساعد له، يعزف على الجيتار ويغنى للحبيبين بصوت أوبرالى جميل أغانى الحب والحياة.

وقد رأيته قليلاً، أما الذى رأيته أكثر وطوال إقامتى فى فينسيا «فجناديل» أخرى لا شاعرية فيها ولا جمال! فهناك جندول لنقل البضائع والصناديق الخشبية، وجندول آخر لجمع القمامة وأكياس المخلفات السوداء، وهناك جندول للنقل الجماعى لمجموعات السياح والركاب.. وجندول للشرطة يختلف فى لونه فيصبح أبيض بدلاً من أسود، ثم هناك بعد ذلك جندول «تحت الطلب» لنقل توابيت الموتى.. وقد رأيت واحدًا منها فى يومى الأول بفينيسيا فأكتأبت لمرآه وكاد يبدد صورة الجندول الشاعرية من خيالى، لولا استماتتى فى ألا أسمح لشىء بإفساد الصورة الجميلة فى خيالى، والتى تكلفت الكثير لكى أراها.

أما المدينة نفسها فكانت ساحرة فى يومى الأول فيها.. وقد وجدتها كما تخيلتها ومياه البحر، تخترق شوارعها وتفصل بين جزرها الصخرية الصغيرة وبيوتها ومبانيها.. وفهمت لأول مرة معنى عبارة المدينة العائمة التى تلتصق بها.. فهى تعوم فوق مائة وعشرين جزيرة صغيرة، تخترقها وتدور حولها مائة وسبعة وسبعون قناة تكون كلها بحيرة واحدة مفتوحة على البحر.. ويربط حوالى ٤٠٠ كوبرى صغير أجزاء هذه الجزر، فتحولها إلى مدينة عائمة، وأصبحت المدينة مريحة للعين فى يومى الثانى بها، وإن لم تكن مريحة للأنف.. فرائحة عطن البحر ومياهه السوداء التى تلقى فيها المدينة بمجاريها تخدش شاعرية الصورة وتؤثر عليها.. ولقد قطعت المدينة شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا فى يومين، وزرت كنيسة سان ماركو الجميلة فيها.. وجلست فى مقاهى ميدان سان ماركو.. ووقفت بين مجموعات السياح التى تتجمع فى الميدان كل مساء، وسهرت حتى الصباح معهم فيه.. وتفرجت على الحمام الوديع ثقيل الجسم، الذى يتجمع بالمئات فى أرض الميدان ولا ينفر منك حين تقترب منه.

ولم يبق شىء جديد تضيفه لى المدينة.. فهى مدينة للزيارة القصيرة وليست للإقامة فترة طويلة.. وأهلها ينظرون للوافد إليها بعين صياد يرغب فى افتراسه وانتزاع كل ما فى جيبه قبل أن يغادرها، وركوب الجندول الشاعرى نزهة باهظة التكاليف بشكل لا يحتمله إلا عواجيز السياح الأثرياء الذين يستميتون فى الاستمتاع بالحياة حتى النفس الأخير.

ومع ذلك كله فأنا سعيد بالرحلة حتى الثمالة.. وقد سحرنى مشهد الغروب فى الصيف.. وقرص الشمس الأرجوانى ينشر أشعته الذهبية على سطح مياه البحر، التى تخترق شوارع المدينة، وعينى الراغبة فى رؤية الجمال والاستمتاع به رأته فى كل شىء حتى فى مياه البحر السوداء التى تنبعث منها رائحة العطن.. ولقد استمتعت بكل لحظة قضيتها فى فينيسيا.. وترددت فى رأسى طوال الوقت أبيات على محمود طه فى قصيدته الجميلة.. وإن لم أحظ مثله بالحديث إلى:

ذهـــبى الشـــعر	شرقى السمات
حلـــو اللفتـات	مرح الأعطـاف
كلما قلت له خذ	قــال هـــــات
يـا حبيب الروح	يـــا أنـس الحياة

فالشعراء وحدهم هم الذين يجدون من يقولون لهم «خذ» فيقولون «هات».. وإن لم يجدوه فى أرض الواقع، وجدوه فى عالم الخيال الشعرى.. أما أنا فلم أجد فى فينيسيا سوى صاحبة البنسيون العجوز الذى أقمت به، والتى كنت كلما أعطيتها أجر الغرفة يومًا بيوم قالت: هات.. أكثر، فلقد استخدمت الماء الساخن فى الحمام!.

ولا تصدقنى حين أوكد لها أننى قد استحممت بالماء البارد، ولم أستخدم الماء الساخن ليس فقط لأننا فى الصيف، بل لأنى أريد توفير نفقات الإقامة لأطيل وجودى فى المدينة، فلا تصدق ما أقوله لها وتسحبنى من يدى إلى الحمام وتشير إلى عداد السخان، الذى يسجل زيادة كبيرة فى الاستهلاك وتطالبنى بأجر الحمام الساخن، فأوفر على نفسى الجدل بدفع المطلوب راغمًا ومتحيرًا إلى أن ضبطت فى الصباح الباكر شابًّا إنجليزيًّا، كان يقيم مع فتاته فى الغرفة المجاورة لى خارجًا من الحمام قبل دخولى إليه.. والحمام يتصاعد منه بخار الماء الساخن، ففهمت سر العداد الذى يسجل زيادة الاستهلاك كل يوم، وقلت لنفسى:

- يا ابن الإيه.. تستحم بالماء الساخن أنت وفتاتك فى الصباح الباكر كل يوم.. وأنا أدفع!.

ورويت له الحكاية باسمًا فلم يضطرب ولم ينكر، ولم يبد أى استعداد لأن يدفع لصاحبة البنسيون أجر الماء الساخن، وإنما قال لى ببساطة: دعك منها.. إنها مجنونة! ثم اصطحب فتاته وغادرا البنسيون!.

وبدلا من أن أغتاظ ضحكت.

وبدلاً من أشكو من غباء صاحبة البنسيون. . داعبتها ورويت لها القصة كلها، مؤكدًا لها أننى لا أطالبها بما دفعته لها نيابة عن الشاب الإنجليزى وفتاته. . وضحكت معها على الشابين اللذين استمتعا بالحمام الساخن، كل يوم على حسابى، فى الوقت الذى كنت أرتجف أنا فيه تحت الدش البارد كل صباح؛ لأوفر بعض الليرات الإيطالية!.

وضحكت لكل شىء ولو كان لا يثير الضحك واستمتعت بكل شىء، حتى ولو كان لا يحقق لغيرى أية متعة

ألم أقل لك من البداية أننى كنت فى مرحلة الاستمتاع بكل شىء فى الحياة وفى مرحلة الابتهاج بمتعة الممارسة الأولى لكثير من الأشياء؟ وأن العمر قد يطول بك بعد ذلك. . فتسافر إلى أجمل بلاد الدنيا وتقيم فى أفخر فنادقها. . وتمارس كل ما تهفو له النفس من ممارسات، فتعرف بالتجربة أنك مهما حاولت فلن تشعر أبدًا بنفس المتعة التى أحسست بها، وأنت فى مرحلة البراءة. . والسعادة. . والشباب؟!.

* * *

٩

وأنتم.. بقر!

شيئان كرهتهما فى رحلاتى للخارج حينما أكون مدعواً لزيارة دولة ما. . هما المرافق الذى تفرضه علىَّ الجهة الداعية ليصاحبنى فى تنقلاتى وزياراتى، ومآدب الغداء والعشاء الرسمية فى دول أوروبا الشيوعية، قبل أن تتخلص من الحكم الشمولى الشيوعى.

فأما المرافق فقد كانت لى معه فى معظم رحلاتى متاعب ومفارقات طريفة. . وأما المآدب الرسمية فى الدول الشمولية سابقًا، فقد كانت طقوسها تصيبنى بمتاعب معوية حادة إلى جانب مللها.

فلقد زرت إحدى هذه الدول، فكان المرافق لى بالضرورة من كوادر الحزب. . وسائق السيارة من كوادره أيضًا. . ومهمة المرافق هى أن ييسر لى زياراتى، ويترجم لى محادثاتى مع من لا يعرفون الإنجليزية.

ثم مراقبتى وكتابة تقرير يومى عن تحركاتى وتسجيل كل شاردة وواردة فى اتصالاتى بمن ألتقى بهم عرضا فى الشارع، كأننى لست ضيفًا رسميًّا على الدولة والحزب، وإنما «إمبريالى» متخفٍ جاء لينظم الثورة المضادة ضد «الحكم التقدمى الطليعى القائد»، وكان هذا هو المتبع مع الزوار الأجانب بلا استثناء. . بل مع الجميع من أبناء الشعب القائد. . فالمرافق الذى يبدو كالصنم ولا يجيب إلا عن الأسئلة التى لا تتعارض مع خط الحزب. . يراقبنى. . وسائق السيارة يراقبه. . والبوليس السرى يراقب الجميع! وكان لابد أن يكون من بين فقرات

برنامج الزيارة عدة مآدب لغداء أو عشاء في كل مدينة نزورها. . فيحضرها مسئول الحزب في المدينة وتبدأ برفع الأنخاب في صحة أهداف عالمية فخيمة، لا يتناسب جلالها مع المأدبة الفقيرة والوجوه الجامدة المحيطة بها، لكن لابد من أداء الواجب والالتزام بآداب الضيافة. .

وقد تعلمت من تجاربي السابقة أن من لا يشرب الخمر يستطيع أن يشارك في الأنخاب بكأس من الماء. . وكلما رفعوا أنخابهم رفعت معهم كأس الماء وتجرعته، وبدأت إحدى هذه المآدب وكنا في بلدة جبلية صغيرة والمدعوون لا يزيدون عن ثمانية، والجو بارد ورغبة الرفاق في الدفء والاستمتاع بالطعام قوية فألقى مسئول الحزب كلمة قصيرة، ترددت فيها الشعارات المألوفة، فرددت عليها بكلمة أشد قصراً والمترجم يلاحقني كأنني أنطق بالدرر، ثم بدأت الأنخاب فشربنا نخب السلام العالمي والتآخي بين الشعوب. .

وجلسنا. . وتناولنا بعض الطعام فإذا بمسئول حزبي آخر ينهض رافعًا نخب الحركة الوطنية لتحرير الشعوب. . ثم عدم الانحياز. . . ثم الثورة الفلسطينية. . ثم تحرير سيناء، ثم احمرت الوجوه بحرارة الفودكا التي يتجرعونها وغاب الزمان والمكان عن معظمهم، فلم يرحموا ضعفي وعجزي عن ملاحقة أنخابهم اللذيذة بكأس الماء التي شربت منها حتى امتلأت، ولم يعد في معدتي متسع للمزيد. .

وتواصلت الأنخاب وفتشنا عن جميع الحركات الاستقلالية في العالم حتى شربنا نخب استقلال ناميبيا! وتوقعت أن يكون نخب الختام؛ إذ ليس بعد استقلال ناميبيا عن جنوب أفريقيا استقلال، لكن هيهات أن تنتهي حركات تحرير الشعوب من خريطة الدنيا. . فأمسك أمين الحزب بالمدينة الجبلية كأسه استعداداً لرفعها. . فأنذرتني مثانتي الممتلئة عن آخرها بكارثة توشك أن تفسد جلال المناسبة النضالية الخطيرة، ولكن خيل إلي أن مصائر هذه الشعوب المكافحة يتوقف كله الآن على قدرتي على رفع كأس الماء إلى شفتي هذه المرة، فلم أشأ خذلانها وتحاملت على نفسي، ورفعتها بصعوبة بالغة إلى أن تم النخب بسلام.

واستأذنت مضيفى فى دقائق قليلة، أذهب خلالها إلى الحمام وأعود لمواصلة النضال وتحرير كل الشعوب المقهورة فى هذه الليلة السوداء.. وهرولت فى اتجاهه.. وعدت أكثر نشاطًا واستعدادًا للكفاح، فتواصلت الأنخاب حتى عجز الرفاق عن النهوض عن المائدة، وجاء الجرسونات ليساعدونهم وقاموا يتساندون وعدت إلى الفندق، وأنا أقسم ألا أشارك فى أى حركة تحرير وطنية من هذا النوع مرة أخرى. لكن هل يستطيع الإنسان أن يحقق لنفسه كل ما يتمناه لها؟ بالطبع لا.. لقد تواصلت المآدب والأنخاب.. وتكررت القصة بشكل أقل كاريكاتيرية مما حدث فى تلك المدينة الجبلية الصغيرة.. فى دول أخرى شمولية حتى تساءلت فى براءة ذات مرة: هل تتأخر الحركة التقدمية العالمية كثيرًا إذا وضعوا أمامى فى هذه المآدب كوبا من الشاى بدلا من كأس الماء؟ فكان الجواب أنها غالبًا سوف تنهار من أساسها، كما انهارت الشيوعية فجأة فى الاتحاد السوفيتى وشرق أوروبا.

وأما المرافق فطرائفه كثيرة، وقد تعلمت من مرافق شاب صاحبنى فى زيارتى لبغداد سنة ١٩٨٣ ألا أحرج مرافقًا فى دولة بوليسية بأى سؤال عن الديمقراطية أو أى شىء يتعارض مع خط الحزب الحاكم، ولو كان عن ممثل كوميدى مغضوب عليه مؤقتًا من رجال الحزب.. وتعلمت هذا الدرس الثمين من مرافق بغداد الذى كنت أسأله السؤال العابر، ومن باب الدردشة وتسلية الفراغ، خلال رحلة السيارة عن نسبة الشيعة فى العراق مثلاً، فلا يجيبنى إلا بابتسامة بلهاء ولا يرد كأنى لم أسأل أو كأنه لم يسمع.. وهكذا فى كل الأسئلة المماثلة حتى رجوته أن يسأل نفسه هو الأسئلة المسموح بها، ويجيب عنها لأجنبه الحرج!.

أما جيبوتى وهى دولة أفريقية، تقع فى الطرف الجنوبى للبحر الأحمر وعضو بالجامعة العربية، ولكن معظم سكانها لا يتكلمون اللغة العربية وإنما الفرنسية أو الصومالية، فقد كان مرافقى فيها هو سائق السيارة لتوفير النفقات، وكان شخصية ذكية وغريبة ويتحدث بضع كلمات من العربية، وقد تعلمت منه شيئًا يستحق أن

يضاف إلى معلومات أساتذة العلوم السياسية عن العلاقة بين الحكومات والشعوب فى العالم الثالث، فقد صاحبنى فى جولة إلى سوق مدينة جيبوتى لألتقط بعض الصور للناس والحياة فى هذه المدينة. . فما أن نزلت إلى السوق وصورت بعض الباعة والأشخاص العابرين، حتى فوجئت بحالة هياج عامة بينهم. . وبالشرر يتطاير من عيونهم، وبأصوات تتحدث بالصومالية فى غضب شديد، ومن يعرفون بضع كلمات من العربية منهم يقولون «لا تصور» كل ذلك ومرافقى المسئول عن حمايتى جالس أمام عجلة القيادة، ينظر إلىّ فى هدوء كأن شيئًا لم يحدث فعدت إليه منزعجًا، وسألته عن سبب غضبهم، فقال لى فى ثقة غريبة: لا تخش شيئًا. سوف أتصرف فوراً، ثم خرج من السيارة ونطق ببعض كلمات بالصومالية فإذا بالثورة قد خمدت، وإذا بمن كادوا يفتكون بى منذ لحظات يبتسمون فى وجهى ويدعوننى لتصويرهم ويرحبون بى، ونظرت للسائق نظرتى إلى ساحر إفريقى قادر على المعجزات واستردت ثقتى فى نفسى. . وسألته فى خيلاء: طبعًا قلت لهم إنى ضيف الحكومة فهدأوا؟ فإذا به يقول لى ببساطة: أبدًا بل قلت لهم إنك سائح لا علاقة له بالحكومة! لأنهم يتصورون أن تصويرهم من جانب الحكومة لابد أن يكون نذيراً بضريبة جديدة للبلدية. . أو غرامة. . أو مخالفة. . ومجئ الحكومه لابد أن يعنى لهم متاعب جديدة بشكل أو بآخر.

وتسرب خيلائى فى الهواء وانكمشت فى السيارة، وأنا أطلب منه العودة للفندق!.

وفى رومانيا جاءوا لنا بمرافق شاب، تعلم العربية فى جامعة موسكو ويتحدثها بلغة الزمخشرى وسيبويه، ولا يعرف إلا مفرداتها الفصيحة. . وكان نجدة لنا فى التفاهم مع صغار المسئولين والحزبيين، الذين لا يعرفون سوى الرومانية. . ولقد طالت زيارتنا لرومانيا ١٥ يوما، وكنا وفداً من ثلاثة أعضاء من نقابة الصحفيين المصريين، فتجولنا فى مدنها من الشمال إلى الجنوب والمرافق معنا. . وقد اقترب منا واقتربنا منه وكان اسمه بيتر فترجمناه للعربية على الفور إلى «بطرس» فإذا

رضينا عنه واستجاب لمطالبنا، أسميناه بطرس الأكبر مؤسس الدولة الروسية الحديثة وأول أباطرتها الذى حكمها من ١٦٨٢ إلى ١٧٢٥، وعاش ١٠٤ سنوات، وحكم بلاده ٤٣ عامًا متواصلة.. وتمنينا له عمرًا كعمره الطويل وفترة «حكم» لا تقل عن فترته! فيضحك سعيدًا.. وإذا ضايقنا وطوع برنامجنا لزيارة بعض أقاربه فى الطريق خلسة من وراء الحزب ناديناه «بيتريه» كما ينطقون اسمه بالرومانية.

وكان من عادته كلما جلسنا للغداء أن يتأكد فى كل مرة مما لفتنا نظره إليه فى اليوم الأول، وهو أننا لا نأكل لحم الخنزير وإنما نأكل لحم البقر.. وكان هو يفضل لحم الخنزير فيسألنا وهو يمسك بالقائمة: أنا خنزير.. وأنتم بقر؟! فنضحك وألفت نظره إلى خطأ السؤال بهذه الصيغة، وأصحح له الجملة فيحفظها ويكررها ثم يعود للخطأ نفسه بعد حين.

وكان قد ضايقنا بالانتظار طويلا فى ذلك اليوم؛ لينتهى من الحديث مع بعض أقاربه. وحين جلسنا إلى مائدة الغداء.. وسألنا نفس السؤال التقليدى بالخطأ اللغوى نفسه:

ـ أنا خنزير.. وأنتم بقر؟!.

وجدت نفسى أجيبه على الفور: لا.. بل أنت خنزير.. ونحن نأكل لحم البقر!.

وضحك زميلاى فى الوفد، وشمتُّ أنا فى «بيتريه» الخبيث الذى طوع معظم فقرات برنامجنا لأغراضه العائلية والشخصية، ونسى حكاية تضامن الشعوب واستقلال ناميبيا فى معظم الرحلة!!.

* * *



١٠

باريس.. الحب.. والعذاب!

ها هى باريس تبدو من نافذة الطائرة لوحة سيريالية جميلة نابضة بالحياة والحركة! للمرة العاشرة أو الحادية عشرة.. لم أعد أذكر على وجه التحديد.. لكنى أعرف فقط أنها بالنسبة لى قد أصبحت ضعفى الذى أغالبه فيغلبنى.. وخطيئتى التى أدعو ربى أن يغفرها لى فلا يغفرها والمدينه التى وأظل معذبًا بالبعد عنها إذا ابتعدت، ولابد أن أبتعد.. وبالقرب منها إذا اقتربت وقليلا ما أقترب!.

إنها امرأة ساحرة لعوب كثيرة العشاق لا تصد عشاقها عنها، ولا ينالون منها مأربهم فيظل حبها ملتهبًا فى القلب لا يطفئه وصال!.. وما من مرة غادرتها فيها، إلا وعاهدت نفسى ألا أعود إليها مرة أخرى، فقد عرفتها بما فيه الكفاية، فلا تمضى ستة شهور على رحيلى عنها، حتى أجدنى قد بدأت أعيشها فى خيالى.

إنها ضعف العاشق.. واستكانة المغلوب على أمره.. ومكابرة من يتمنى فى أعماق نفسه أن يتخلص من عشقه المعذب ولا يستطيع، فيتساءل مجيبا نفسه بغير سؤال «من قال إنى قد كرهتها؟».

وفى كل مرة أصل فيها إليها تغادر السيارة مطار شارل ديجول، فاتأمل الطريق إلى المدينة بحنين غريب.. وأترقب ظهور أول شوارعها.. وأول مقهى من مقاهيها وترن فى أذنى كأنى أسمعها بوضوح الأغنية الشهيرة: صباح الخير يا باريس.. أو بونجورباري.

أبحث عن فندقى الصغير بالقرب من الشانزليزيه الشهير، وأتوجه إليه غالبًا

بغير حجز مسبق. . وأتلقى التحية المعتادة. . النظرة اللائمة نفسها من صاحبه لأنى لم أتصل به تليفونيًا مسبقًا، وأحرص على حجز غرفتى قبل وصولى بوقت كاف كما يفعل المتحضرون. . لكن لا بأس، فسوف يجد لى غرفة لليلة أو ليلتين قبل أن تخلو لى غرفة مناسبة! والغرفة المناسبة لى هى التى يكون بها مكتب ملائم يتسع لكتبى وأوراقى التى أحملها معى أينما سافرت، كأنما كتب علىّ الشقاء بها فى أركان الأرض الأربعة. . ثم أن تطل الغرفة على الشارع لأرى البيوت الفرنسية بطرازها المعمارى القديم من حين إلى حين ولا يهمنى بعد ذلك شىء آخر، فكل الغرف عندى سواء. . وكلها ضيقة بلا تمييز، كأنما اقتطعت من لحم حى وليس من جماد.

لم أسأل نفسى أبدًا لماذا أحببت باريس ولم أحب جنيف مثلا مع أن جنيف أهدأ وأنظف وأجمل، فإن كان لحبى لباريس ألف سبب فلكرهى لها إن أردت أن أكرهها ألف سبب آخر، يكفى كل منها لأن أغاضبها وأتحرر من عشقها. . ولكنه الخائن الذى فى صدرى، والذى يغفر لها كل ما تفعله بى، ويلتمس لها فيه العذر. . وسأورى لك فصلا واحدًا من فصولها الباردة معى!.

فلقد جئتها هذه المرة معتزمًا ألا أقيم فى فندقى المعتاد. . وأن ألبى دعوة صديق مصرى، يتنقل بين فرنسا وأمريكا للإقامة فى شقة صغيرة له فى ضواحى باريس، خلال فترة وجودى بها. . وغيابه هو فى أمريكا. . وقد سعدت بالدعوة ووجدتها فرصة للانفراد بنفسى فى شقة هادئة بعيدة. . وكلما نازعتنى نفسى إلى الخروج. . ذهبت إلى وسط المدينة أو حججت إلى مزاراتى فى باريس كمتحف اللوفر ومقهى كلونى فى الحى اللاتينى وساحة السوربون أو طفت ببيت فولتير، أو استمتعت بالجلوس فى مقهى «الدوم» فى حى مونبارناس الجميل، الذى كان يجلس فيه توفيق الحكيم. . وجلس فيه عدد كبير من أكبر أدباء وفنانى فرنسا. . ويزين المقهى جدرانه الداخلية بصورهم، وهم جلوس فى المقهى من فرانسوا مورياك إلى أندريه جيد وجان أنوى وبيكاسو. . أو بحثت عن المقهى الذى كان الأديب والفيلسوف الوجودى جان بول سارتر يجلس فيه مع سيمون دى

بوفوار، وإلى جانبه جهاز التليفون الخاص به، يتلقى عليه مكالماته أو تمشيت على ضفة نهر السين فى الحى اللاتينى، أتأمل أكشاك الكتب القديمة المعلقة على جدار طواره، واشترى المزيد والمزيد من لوحاتها الفنية المنسوخة عن لوحات فنية عالمية شهيرة كما أفعل كل مرة. . وكان صديقى قد ترك لى مع صديق آخر مقيم بباريس نسخة من مفتاح الشقة فى مظروف، يحمل عنوانها وتليفون صديق ثالث له بباريس، لديه نسخة أخرى من المفتاح إذا ما واجهت أى مشكلة.

ووصلت إلى باريس فى موعدى، فوجدت صديقًا فى انتظارى ومعه المظروف بالمفتاح والعنوان، وحاول صديقى أن يصحبنى معه إلى مكتبه لينهى عمله فيه، ثم يدعونى للغداء فى أحد مطاعم الشانزليزيه كما أعتاد أن يفعل كل مرة، لكنى كنت أكثر إصرارًا هذه المرة على أن يكون يومى الأول فى باريس للراحة واستعادة النشاط، فاستجاب لرغبتى لأول مرة، وغادر السيارة أمام المكتب وطلب من السائق أن يحملنى إلى الواحة الصغيرة، التى تنتظرنى لأفتح حقيبتى ثم أغفو لساعة وساعتين، قبل أن نلتقى فى المساء. .

وشكرت له فى أعماقى استجابته لإلحاحى هذه المرة. . وانطلقت السيارة فى شوارع معذبتى تبحث عن العنوان الجديد. . وبعد بحث قصير توقفت أمام عمارة حديثة. . ونزلت ومعى سائقى السيارة لنتأكد من الشقة ثم يحمل إلى حقيبتى بعد ذلك، وأخرجت المظروف وتأكدت من رقم العماره. . ومن وجود المفتاح به، وحملنا المصعد إلى الدور السادس وبحثت عن الشقة إلى أن وجدتها، ثم وضعت المفتاح فى قفل الباب. . وأدرت المفتاح فانفتح الباب رويدًا رويدًا، فإذا بى أجد شابًّا فرنسيًّا جالسًا على مقعد صغير أمام مائدة خشبية صغيرة. . وكان المقعد والمائدة هما كل الأثاث الذى يبدو فى الصالة. . والشاب الجالس لاويًا عنقه تجاهى ينظر إلىَّ مذهولاً وأنا أرقبه فى صمت ودهشة لمدة لحظات. . قبل أن أفهم الموقف، وأعرف أنى قد جئت فى موعد غير ملائم، وأن صديقى لابد أنه قد أعطى مفتاحه لهذا الشاب الفرنسى؛ ليقيم فى شقته خلال سفره، فأدى سوء التخطيط إلى هذا الموقف المحرج.

وبغير أن أستوعب الموقف تمامًا، وجدت نفسى أقول للشاب: بونجور موسييه؟ فيجيبنى وهو لا يزال متجمدًا على مقعده لافتًا عنقه تجاهى.. فاتحًا فاهه فى دهشة: بونجور موسييه! وانتظرت أن يتكلم فلم يتكلم.. وأظنه انتظرنى أن أتكلم فلم أجد ما أقوله.. لكن عقلى بدأ يتحرك بعد قليل، فقررت التخلى عن حلم الإقامة فى شقة صغيرة فى باريس والعودة على الفور للبحث عن مكان لى فى فندقى المعتاد.. لكن لماذا يظل هذا الشاب لاويا عنقه تجاهى، كأنما قد تجمد على هذا الوضع؟.. ولماذا لا يحاول إبداء أى تفسير لوجوده فى شقة صديقى، الذى أكد لى أنها ستكون خالية فى هذا الوقت؟ وفقدت الأمل فى أن يخرج الشاب عن جموده فاستدرت للخروج مع مرافقى، معتذرًا عن مجيئى فى وقت غير مناسب، وودعت الشاب قائلاً: اوريفوار موسييه! فأجابنى من «موقعه» التاريخى وبغير تفكير أيضًا: أوريفوار موسييه! ثم فجأة حدثت المعجزة وتحرك الشاب واقترب منا مترددا ثم تكلم بصوت مرتجف.. فإذا به لا يعرف صديقى صاحب الشقة ولا هو ضيف عليه.. وإنما هو فرنسى يجلس فى شقته الخاصة، التى يقيم بها منذ ٧ سنوات، وقد فوجئ بباب شقته ينفتح عليه!.

سمعت كل ذلك وأنا ذاهل عما يقول.. وبعد لحظات تخيلتها سنوات، نظرت إلى المظروف الذى يحمل رقم شقة صديقى فوجدته ٦٤، ونظرت إلى الرقم الذى يحمله باب الشقة التى فتحناها فإذا به ٦٢! إذًا فنحن لسنا فى موقف حرج بسبب سوء التخطيط وتضارب موعد زيارتى مع موعد زيارة هذا الشاب أو إقامته بالشقة.. وإنما نحن نواجه كارثة! فقدت قدرتى على الكلام.. فتكلم مرافقى.. وشرح له أننا قادمان من المطار مباشرة إلى هنا، وأننا قد أخطأنا رقم الشقة، وسنخرج الآن للذهاب إلى الشقة الأخرى.. إلخ، وتوقعت ألا يقتنع الشاب الفرنسى بشىء من ذلك وأن يسرع للإمساك بتلابيبنا، لكن ولدهشتى الشديدة سمعت مرافقى يقول له: أوريفوار موسييه، والشاب يجيبه بالذهول نفسه: وداعًا يا سيدى!.

ثم خرجنا . . كيف خرجنا من هذه المصيدة بلا متاعب مع الشرطة؟ لا أعرف؟ وبحثنا عن الشقة رقم ٦٤ ، وأدرنا المفتاح فى بابها فكانت المفاجأة الأخرى أنه لا يفتحه بل ولا يدخل فيه من الأصل! .

وأسرعنا بالفرار قبل أن يفيق الشاب من ذهوله، ويستوعب حقيقة المشكلة . . وعدت إلى فندقى الصغير فائزا من الغنيمة بالنجاة، واستغرقت لحظات فى النوم ثم تنبهت على صوت جرس التليفون بجوارى . . فرفعت السماعة وأنا أتثاءب وأتساءل عمن عساه قد عرف بوجودى فى هذه الفندق بهذه السرعة . . فإذا به الصديق المشترك، الذى يحتفظ بنسخة من مفتاح الشقة، وقد أبلغه مرافقى فى المغامرة الخطرة بما حدث، فخاطبنى متعجبًا كيف لم يفتح المفتاح باب الشقة وفتح بدلا منها شقة أخرى خطأ؟. وحاول تفسير ذلك بأن صديقه قد صنع تلك النسخة من المفتاح، التى تركها لى بالمظروف قبل سفره بساعات، ولم يسعفه الوقت لتجربتها . . وأن المفتاح الأصلى معه وسوف يأتى إلى الفندق الآن؛ لكى يحمل حقيبتى ويصحبنى فى سيارته إلى الشقة ويعطينى المفتاح السليم، فلم أشعر بنفسى إلا وأنا أصرخ فى التليفون معتذرا بشدة عن عدم قبول عرضه ورافضًا بإصرار مغادرة فندقى إلى تلك الشقة . . وعبثا حاول أن يعرف منى السبب فلم أبح له به وكتمته فى صدرى ولا عجب . . إذ هل أنا مجنون أو شجاع إلى حد أن أقيم فى شقة تلاصق شقة شاب فرنسى، تساوره الشكوك فى ميولى الإجرامية تجاه شقته! أو على الأقل سوف يصادفنى داخلاً أو خارجًا فيسألنى كيف حصلت على مفتاح شقته . . ويطالبنى به، وربما من باب الاحتياط استدعانى للشرطة؛ لكى أوقع له تعهدًا بعدم وجود نسخ أخرى من مفتاح شقته.

وسعدت رغم كل ذلك بإقامتى هذه المرة أيضًا فى باريس . . رغم التهاب أسعارها . . وبرودة جوها التى فاجأتنى على غير انتظار فى نهاية شهر أبريل.



١١

ولكنهم لا يشربون الشاى!

حين تجئ إلى باريس فى المرة القادمة، لا تنس أن تحصل قبل المجئ على تأشيرة دخول لهولندا!.

هكذا قال لى صديقى «محمود» فى زيارتى السابقة له، وهكذا فعلت قبل سفرى إلى فرنسا هذه المرة، وبعد أيام من إقامتى فى باريس طلب منى صديقى الاستعداد لقضاء عطلة نهاية الأسبوع فى أمستردام بهولندا، وفى صباح اليوم المحدد للسفر ركبت معه ومع الصديقين «سيد» و«خالد» السيارة، وانطلقت بنا فى اتجاه الشمال فى طريقها إلى أمستردام.

الشمال فى فرنسا على عكس الحال فى معظم دول العالم فى الكون كله «أفقر» من الجنوب، فقد نقصت أهميته مع انحسار أهمية الفحم الذى تزخر به مناجمه، فانتقلت الصناعة والتجارة والثراء إلى مدن الجنوب، ولم يبق للشمال إلا الزراعة.. الطبيعة على الجانبين ساحرة.. والسيارة تنهب الأرض بسرعة هائلة ومع ذلك فلا أشعر باهتزازها ولا بسرعتها، اقتربت الحدود الفرنسية مع بلجيكا واستعددنا بإبراز جوازات سفرنا.. فإذا ببوابة الحدود شبة خالية إلا من جنديين أو ثلاثة.. وإذا أحدهم يشير إلينا بالسير، بمجرد أن لوحنا له بالجوازات، وهى مغلقة!.

يا إلهى.. سمعت الكثير والكثير من قبل عن اتجاه أوروبا للوحدة، وإزالة

الحواجز والحدود بين دولها وشعوبها، لكنى لم أتلامس مع هذه الحقيقة عمليًّا إلا فى هذه اللحظة!.

فقد عبرت حدود دولة أخرى مستقلة هى بلجيكا بغير أن يفتح أحد جواز سفرى ويدقق فى بياناته ويتردد بنظراته بين وجهى وبين صورتى فى الجواز، ثم يضع خاتم الوصول على جواز سفرى المليئ بأختام المغادرة والوصول.

تابعنا رحلتنا فى الأراضى البلجيكية فى طريقنا إلى هولندا، وليس مع أحد منا تأشيرة دخول بلجيكا ولا صادفتنا بوابة حدود بلجيكية أو جمرك بلجيكى فتأشيرة الدخول إلى هولندا تسرى على بلجيكا، باعتبارهما معًا «الأراضى الواطئة» التي تشكل وحدة جغرافية واحدة، وكل ما ينبهنا إلى أننا نسير فى بلجيكا هو لافتة متواضعة صغيرة على جانب الطريق، تقول: مرحبًا بكم فى بلجيكا، أصدقائى الثلاثة رفاق السفر يقيمون ويعملون فى باريس منذ سنوات طويلة، وقد رتبوا هذه الرحلة ليتيحوا لى زيارة هولندا التى لم أزرها من قبل، وتحمسوا لها كأجازة قصيرة من إيقاع الحياة والعمل فى باريس الصاخبة، وتحرروا من قيود العمل والضرورات الاجتماعية فارتدى كل منهم الشورت القصير.. والتى شيرت.. وتهيأوا للاستماع بإحساس السائح الذى لا يمارسونه فى باريس!.

آفتى فى الرحلات الطويلة بالسيارة أننى أرغب لو استطعت أن أتوقف خلال الطريق كل نصف ساعة على الأكثر فى استراحة «قصيرة» لا تتجاوز نصف الساعة، أتناول خلالها فنجانًا من القهوة أو الشأى وأتأمل المسافرين والعابرين بكافتريا الطريق! ومن حسن الحظ أن صديقى محمود الذى يقود السيارة، واعتاد أن يقطع رحلاته دون توقف كان مرنا ومريحًا، فوافق على التوقف فى إحدى استراحات الطريق كل مائة كيلو متر فقط!.

اضطرنا للسير فى بعض الطرق الجانبية فى بلجيكا، بسبب عطل مؤقت فى الطريق الدولى. وأسعدنى ذلك كثيرًا؛ لأنه يتيح لى رؤية الحياة فى هذه الدولة التى لم أرها من قبل.

ألح عليّ نداء الشاى الساخن فطلبت التوقف فى أول قرية بلجيكية، واتجهنا إلى بار وكافتيريا رأيناها، فخرجت إلينا سيدة بلجيكية بدينة، وطلبت منها فنجانا من الشاى، ففوجئت بها تسألنى فيما يشبه الاستنكار:

ـ هل تريد شايًا ساخنًا؟

فأجبتها بالإيجاب فاعتذرت على الفور بعدم وجود أى نوع من أنواع الشاى الساخن والبارد لديها! فطلبت فنجانًا من القهوة الفرنسية «إكسبريسو» ففوجئت بها تقول فى تعجب.. إننا فى قرية صغيرة لا نعرف مثل هذه الأشياء!.

ضحكنا بابتهاج وسألناها عما تستطيع أن تقدمه لنا عدا المشروبات الكحولية، فأجابتنا بأنها تستطيع أن تصنع لنا قهوة أمريكية.. وتهللنا للخبر.. وبعد لحظات جاءتنا بفنجانين من القهوة، لم نكد نتذوقها حتى أعدناها إلى مكانها فى صمت، ودفعنا الحساب وانصرفنا ضاحكين، فقد كانت رائحة العطن تفوح من القهوة البايتة التى فسدت حبوبها من طول التخزين، ولم تجد صاحبة البار من تقدمها له سوانا!.

حين تهيئ نفسك للاستمتاع برحلة أو إجازة، فإن كل شىء تصادفه فيها من المنغصات أو المضايقات تتعامل معه بروح المرح وليس بروح السخط والاستنكار، لهذا لم نسخط على السيدة البلجيكية البدينة، التى قدمت لنا قهوتها الفاسدة وتقاضت منا أضعاف ثمنها الحقيقى. وفى بار بعدها فى القرية نفسها، قوبل طلبنا فيه للشاى أو القهوة «بالاندهاش» كأنما قد طلبنا نوعًا من المخدرات القوية! فلم نغضب لذلك.

وإنما ضحكنا واندهشنا وأضفنا إلى معلوماتنا أن البلجيكيين لا يشربون الشاى كمعظم شعوب العالم، ولا يدمنون القهـوة كالفرنسيين والألمـان، وأن محلاتهم لاتقدم غالبًا إلا البيرة والمشروبات الكحولية، وحاولنا الربط بين ذلك وبين ما يشيعه عنهم الفرنسيون من نوادر يتندرون بها ويروون عنها النكات! وواصلنا

الرحلة بالسيارة إلى هولندا. . ولاحظت خلال الطريق أن الطبيعة فى بلجيكا أقل جمالاً منها فى فرنسا وأقل سحراً.

نبهنى صديقى قائد السيارة إلى أننا لن نعبر بوابة حدود إلى هولندا؛ لأن الحدود وهمية بين البلدين منذ زمن طويل، ولكننا سنعرف أننا قد دخلنا الأراضى الهولندية حين نجد اللافتة الصغيرة التى ترحب بزوار هولندا على جانب الطريق. وحين نلاحظ اختلاف الطبيعة بين البلدين، لاحت بشائر هولندا مع مشاهدتى لطاحونة قديمة فى الأفق البعيد. . وعبرنا الحدود الوهمية ورأينا لوحة الترحيب، ثم ظهرت الأبقار الشهيرة التى تغذى أوروبا ودولا كثيرة فى أنحاء الأرض بالألبان والأجبان والزبد والسمن الهولندى الشهير.

الهولنديون شعب صغير، لكنه بالغ الحيوية والذكاء. . وقد حارب الطبيعة التى جعلت من بلاده سهلاً منخفضًا يجور عليه البحر، فجفف مساحات كبيرة منه واستصلحها وأقام فوقها المدن والقرى، وأقام حواجز الأمواج التى تحمى أرضه من عدوان البحر عليها، وجعل من بلاده الصغيرة مزرعة تحلب الألبان وتصنع منتجاتها لأوربا كلها ودول العالم وتجاوز بطموحاته حدود بلده الصغير، فجاب البحار فى القرون الوسطى وفيما يليها، واستعمر بلاداً شديدة البعد عنه، واشتهر ملاحوه برحلاتهم الاستكشافية فى البحار والمحيطات، فاستحق بكل ذلك العبارة الشهيرة التى أطلقها عليه أحد المؤرخين حين قال: خلق الله الهولنديين. . وخلق الهولنديون هولندا من العدم!.

وهذا صحيح إلى حد كبير. . فلقد نحتوا أراضيها من البحار المحيطة بها وزرعوها وأقاموا فوقها الصناعات الشهيرة.

السيارة تمضى على الطريق إلى أمستردام. . والمعالم الهولندية المميزة تزداد وضوحًا وتحديداً، وأول ما تلاحظه على «الإنسان» فى هولندا هو أنه ابن أرضه التى يعتبرونها مزرعة أوروبا. . فالأجسام أكثر امتلاء. . والوجوه أكثر توردًا

وتفجراً بدماء الصحة والحيوية، والوزن أكثر ثقلاً والروح أكثر استعداداً لمساعدة الآخرين من غيرهم، فإذا ضللت الطريق وسألت أحدهم على العنوان الذى تقصده توقف بترحيب وقرأ معك العنوان باهتمام وبذل جهده لإرشادك، وقد يترك زوجته ويسير معك بضعة أمتار ليدلك على الطريق الصحيح. . ولو كان وحيداً فليس من المستبعد أن يسير معك حتى العنوان المطلوب، وكل ذلك لم يعد شائعًا ولا مألوفًا فى فرنسا وألمانيا وبريطانيا ودول أخرى فى أوروبا!.

وصلت السيارة أخيراً إلى أمستردام فأذهلنى جمالها وطابعها المميز، فالمدينة هى بحق «مدينة القنوات» كما يقولون عنها؛ إذ تخترقها أكثر من ١٦٠ قناة تتصل كلها فى النهاية بالبحر، وتجعل من ضفاف هذه القنوات أماكن مثالية للمقاهى والكازينوهات، كما تجعل من مياهها مكانًا ملائمًا لعشاق السكنى فى المنازل العائمة أو العوامات، فعلى طول ضفاف هذه القنوات الصغيرة سوف تجد أسراً هولندية تسكن فوق الماء بصفة دائمة فى عوامات صغيرة جميلة، وسوف تجد السياح يركبون الزوارق بكل أحجامها من الجماعية إلى الفردية، وسوف تجد الكبارى الصغيرة تنتشر فوقها مقاعد مقاهى الشاطئ! وستجد الزهور تطل عليك من شرفات المساكن وأحبها إليهم الورد البلدى المصرى!.

وضعنا حقائبنا فى الفندق وجاء «أصدقاء الأصدقاء» يرحبون بنا ويصطحبوننا لزيارة المدينة، أصدقائى رفاق السفر المقيمون فى باريس لهم أصدقاء مصريون مقيمون فى أمستردام، وزيارتهم فرصة نادرة لتجديد الذكريات. . شوقى، مصرى مقيم فى أمستردام منذ عشرين عامًا مع زوجته المصرية الفاضلة وشقيقه الودود ويملك مطعمًا كبيراً ناجحًا وأكثر من محل لبيع الشاورمة، وفى مطعمه تناولنا العشاء ثم خرجنا فى موكب من المصريين المقيمين هناك، نتجول فى المدينة الساحرة والزاخرة بكل سياح العالم. . حى السهر هو دائمًا مقصد السياح والزائرين للفرجة والمشاهدة و«الحقيقة» التى سمعتها من قبل ورفضت تصديقها تمثلت أمامى تتحدى أن يكذبها العقل!. فهولندا لمن لا يعلمون، تبيح تعاطى

الحشيش وتسمح بتجارته وبيعه للمتعاطين فى مقاه مرخصة لذلك، بل وتقوم الشرطة الهولندية نفسها بتنظيم تجارته، وتعتبر هى المورد الشرعى لتموين هذه المقاهى بحصة شهرية من الحشيش تتناسب مع حجم مبيعات كل منها! ولا تعاقب الشرطة أصحاب هذه المقاهى إلا على شىء واحد هو أن يحصلوا على الحشيش بطرق غير قانونية؛ أى عن طريق التهريب أو يقوموا بتهريبه إلى خارج هولندا، ستسأل على الفور عن الحكمة فى إباحة تدخين الحشيش وتجارته فى هولندا، وسيجيئك الجواب على الفور من جانب الهولنديين فيقولون لك إن القانون مهما حرم تجارة ما فلن يستطيع القضاء عليها، وما دام الاختيار سيكون بين ضررين فالأصوب أن يختار المرء ما هو أقل ضرراً.

والأقل ضرراً وأكثر تحقيقًا للفائدة الاقتصادية للحكومة الهولندية هو أن تؤمم هى هذه التجارة وتتولاها عن طريق الشرطة، فتحقق بذلك أكثر من هدف من وجهة نظرها، هو أن تحصل الحكومة على «ضرائبها» كاملة على هذه التجارة.. وأن تضمن عدم غش البضاعة من جانب تجار الصنف لتحقيق مزيد من الأرباح على حساب صحة المواطنين، فضلاً عن أن السماح بتدخين الحشيش، وهو أقل أنواع المخدارات ضرراً وأقلها أيضًا إدمانًا، يبعد الشباب عن تعاطى المخدرات القاتلة الأخرى كالهيروين والكوكايين، ويقلل من نسبة الجريمة والعنف لأن متعاطى الحشيش لا يسرق ولا يقتل ليحصل على ثمن مخدراته، ويستطيع إذا لم يجد ثمنه أن يتحمل «نقص الصنف» بلا أضرار واضحة لأية فترة، أما المخدرات البيضاء القاتلة فإنها تتملك ضحيتها وتدفعه لارتكاب الجرائم ليحصل على ثمنها.

وبالتالى فإن أضرار تدخين الحشيش تنعكس على المتعاطى وحده فى تبلد الإحساس وضعف النشاط والذاكرة وضعف الرغبة فى الحركة أو بذل المجهود فى العمل، إلى جانب أضرار التدخين الصحية المعروفة، أما أضرار تناول المخدرات البيضاء فتنعكس عليه وعلى المجتمع معه بصورة أكثر حدة وأبلغ ضرراً، إذ تزيد من عدوانية المدمن تجاه الآخرين وتدفعه لارتكاب الجريمة، وهذا

أيضًا ما تفعله الخمر من حيث زيادة الميول العدوانية لمن يتعاطاها وتشجيعه على إيذاء الآخرين.

لهذا فالشرطة الهولندية لا تشكو ممن يتعاطون الحشيش؛ لأنهم يتجمدون فى مجالسهم بلا حراك ولا رغبة عندهم فى إيذاء أحد، ولا يرتكب جرائم العنف والسرقه إلا شاربو الخمور ومدمنو السموم البيضاء، وهى وجهة نظر لها منطقيتها حتى مع اختلافنا معها، كما أنها تبدو مناسبة لمجتمع كالمجتمع الهولندى يريد أن يعيش فى سلام، ويدع الجميع يفعلون ما يريدون، بشرط أن يحترموا قانون اللعبة وألا ينالوا غيرهم بالأذى.. ولهذا يعتبرون أمستردام فى أوربا واحة الشباب الأوروبى الباحث عن المتعة وذهول المساطيل، ويتقاطرون عليها فى الأجازات وعطلات نهاية الأسبوع، وربما كان ذلك أيضًا سببًا من أسباب روح الهولنديين الودودة؛ لاعتيادهم على استقبال مختلف أنواع السياح والتعامل معهم والتحدث إليهم بأكثر من لغة أجنبية، على عكس الشخصية البلجيكية المتحفظة مع الأغراب.

ومع أنى قد سمعت بكل ذلك من قبل، فقد أصر عقلى على رفض تصديقه إلا إذا رأيته رأى العين، ولم أسلم بأنه حقيقة واقعة إلا حين شاهدت شبابًا من مختلف الجنسيات يجلسون فى هذه المقاهى ويدخنون سجائر الحشيش ـ ولامؤاخذة ـ بلا حرج وفى أمان واطمئنان، وإلا حين شاهدت بعينى لوحة أسعار «الصنف» معلقة على جدران البارات، تحدد بوضوح أنواعه وأسعاره التى يلتزم بها أصحابها وإلا تعرضوا لعقاب القانون بتهمة البيع بأزيد من التسعيرة!.

وضحكت من أعماقى حين شاهدت سائحًا إنجليزيًّا يدخل أحد هذه البارات فى كبرياء، ويسأل البارمان فى غطرسة:

ـ هل تبيعون الحشيش هنا؟.

فإذا بالبارمان بدلاً من أن ينظر إليه شذرًا أو يطرده كما هو متوقع، يجيبه فى أدب: نعم يا سيدى، ثم يعرض عليه قائمة الأسعار باحترام شديد!

ورغم هذا فليس الحشيش منتشراً فى هولندا إلى الحد، الذى يتصوره المرء حين يسمع عن مكان تباح فيه تجارته وتعاطيه.. وفيما عدا بعض الشباب الضائع.. أو العاطل وبعض السياح الباحثين عن المتعة بأى طريق، فإنى لم أر كثيرين يدخنون الحشسش فى البارات والمقاهى، ولا تمثل تجارته النشاط الأساسى لهذه البارات والمقاهى التى تتعامل فيه، بل ولا تربح منه ما تربحه من بيع المشروبات الكحولية والشاى والقهوة لروادها، وقطعة الصنف الممتاز، كما علمت من رفاق الرحلة ـ لا يتجاوز ثمنها ثمن خمس علب سجائر محلية للمواطن الهولندى بالنسبة لمتوسط دخله.. وهو أمر لا يدهشه بقدر ما يدهشه استغراب واندهاش أمثالنا، الذين يقفون مذهولين ومتعجبين مما يرون فى أمستردام وغيرها من المدن الهولندية!.

وقديمًا قال أحد الرحالة القدامى إن من يعش طويلاً ير كثيراً.. ومن يرحل فى أرض الله الواسعة ير أكثر وأعجب!.. ولابد أنه كان يقصد هولندا بكلمته الشائعة هذه.

انتهت ليلتنا الأولى فى أمستردام بعد منتصف الليل بساعتين، وآن الأوان لأن نعود إلى فندقنا لنقضى الليلة ونستعد لجولة النهار فى المدينة الجميلة. رحلة العودة من وسط المدينة إلى الفندق ذكرتنى بزيارة سابقة لى إلى رومانيا خلال السبعينيات، دعيت خلالها لزيارة مصنع لإنتاج السيارات، وأراد مديره أن يجاملنا وكنا ثلاثة من الصحفيين المصريين فدعونا لركوب سيارة جديدة، تم الانتهاء من تجميع أجزائها منذ لحظات، وقرر أن يركبها معنا لتجربتها فى ساحة اختبار السيارات، سررنا فى البداية بالدعوة لكننا حين ركبنا السيارة وقادها فى ساحة الاختبار أدركنا أن من التكريم ما قتل أحيانًا! فالساحة مقسمة إلى حارات ودوائر، وتجربة السيارة الجديدة تقتضى أن يقودها بسرعة هائلة فى هذه الحارات ثم ينحرف بها بقوة من حارة إلى أخرى ومن دائرة إلى دائرة ليجرب قوة آلات الجر فيها ومتانتها، وقد نسى الرجل بعد لحظات أن معه ثلاثة من الضيوف

«الأبرياء»، الذين لا تعنيهم صناعة السيارات فى شىء، فراح ينحرف بالسيارة يمينًا وشمالاً بأقصى سرعة ونتخبط نحن داخلها مع كل حركة عنيفة والرعب يسيطر علينا إلى أن توقف بعد ٢٥ دقيقة عصيبة، وغادرنا السيارة متهالكين، ونحن نشيد بصناعة السيارات الرومانية ونستأذن فى العودة إلى فندقنا لنستريح من آثار الرحلة المرعبة!.

وكذلك فعل الصديق المصرى المقيم فى أمستردام «شوقى» والصديق الآخر «أسامة» فقد ركبنا مع «شوقى» وركب بقية الأصدقاء مع أسامة وتحركت السيارتان، فخيل إلىَّ بعد لحظات أنهما يجربان متانة آلات الجر فى سيارتيهما كما فعل مدير المصنع الرومانى بنا منذ عشرين عامًا، فلقد اندفعا بأقصى سرعة فى شوارع ضيقة ومتعرجة، فتخبطنا داخل السيارة يمينًا ويسارًا مع كل انحراف لها فى أحد الشوارع، وحاولت لفت نظر مضيفنا إلى أن آلام ظهرى المزمنة من الانحناء الطويل على الأوراق والمكاتب لا تحتمل مثل هذه القيادة الشبابية العنيفة، ففوجئت بدهشته من شكواى رغم «حرصه» الشديد على أن يقود السيارة «ببطء» متعمد، مراعاة لنا باعتبارنا ضيوفا غير معتادين على الطريقة الهولندية فى القيادة.. وفهمت منه أن طبيعة مدينة أمستردام التى يخترقها أكثر من ١٦٠ قناة متصلة بالبحر، تجعل شوارعها ضيقة وكثيرة التعرجات، وتفرض على من يقود السيارات فيها أن يعتاد مثل هذه القيادة العنيفة، وهى طابع قيادة السيارات عمومًا فى أمستردام خاصة سيارات الأجرة. شكرت مضيفنا على هذه المعلومة الجديدة عن القيادة فى أمستردام، وغادرت سيارته متخشب المفاصل موجوع الظهر.

حرصنا فى الصباح على أن نغادر الفندق وحدنا نحن الأصدقاء الأربعة الذين جاءوا من باريس؛ لنتجول فى شوارع أمستردام بحرية على أن نلتقى بالأصدقاء المقيمين فى المساء.. حددنا الهدف قبل مغادرة الفندق وجاملنى الأصدقاء القادمون معى، فوضعوا فى مقدمة البرنامج زيارة بيت الفنان الهولندى رمبرانت، الذى ولد عام ١٦٠٦ وعاش ٦٣ عامًا، ويعد من معالم

هـولندا التاريخية كالطاحونة الشهيرة ومنتجات الألبان. إن هواية زيارة المتاحف وبيوت الأدباء لم تفارقنى بعد منذ تفتحت مداركى لطلب المعرفة، ومازالت تحدد لى خطواتى إلى حد كبير خلال رحلاتى الخارجية.

ركبنا الترام إلى وسط المدينة، فأدهشتنى سرعته ونظافته، وفهمت لماذا تحرص بلدية أمستردام على استمراره رغم انقراضه الآن من معظم المدن الأوروبية.. نزلنا بالقرب من بيت الفنان الكبير، الذى تحول إلى متحف يزوره السياح، وحاولنا أن نجد طريقنا إليه فطفنا بالشوارع المجاورة طويلاً دون أن نعثر عليه، سألنا أكثر من عابر طريقى، فبذل جهده بإخلاص ليرشدنا إليه. ولكننا ما أن نسير فى الاتجاه المطلوب حتى نكتشف بعد فترة أننا لم نصل إليه، أخيراً توقفت سيدة هولندية عجوز، وقادتنا بضع خطوات، وأشارت لنا إلى البيت فعرفناه بزحام الزوار والسياح حوله.

توقفت أمامه أتامله وأسترجع فى ذاكرتى قصة هذه الفنان العجيب، الذى كافح كفاحًا مريرًا ليشترى هذا البيت وعاش فيه فترة خصيبة من عمره حاصرته خلالها الديون، وشهدت حياته فيها تقلبات عديدة بين السعادة والشقاء، فسعد رمبرانت فيه بزواجه من ابنة أحد تجار التحف واسمها «ماسيكا»، ورسم لها عدة لوحات جميلة، ثم لم تلبث أن هاجمتها الأمراض عقب ولادتها لابنها الوحيد وماتت بعد قليل تاركة زوجها وطفلها، ووصية بأن تؤول إليه أموالها إلا إذا تزوج ثانية فتؤول إلى ابنها، ولم يكن ما تركته كثيرًا لكنه كان يكفى لأن يظل بيته مفتوحًا ولأن يدفع أجر الخادمة الشابة المخلصة التى ترعى شئون الأسرة بعد رحيل سيدتها، مع ما يكسبه من دخل قليل من رسم أعيان المدينة وسراتها ومن تدريب الشباب على الرسم فى الأستديو الذى افتتحه فى هذا البيت.

وثقلت الوحدة على الفنان الكبير.. ورأى الحب الصامت فى عيون خادمته المخلصـة، فرغب فى أن يتزوجهـا وعارضـه أصدقـاؤه فى رغبتـه حتى لا يفقـد مـا تركته له زوجته من مال، وكان ابنه الوحيد قد بلغ الثامنة عشرة من عمره

فثار ضد رغبة أصدقاء أبيه فى حرمانه من الزواج من الخادمة التى أحبها بعد وفاة أمه، وأراد أن يتنازل له عن نصف ما سوف يؤول إليه بمقتضى وصية أمه ليسعد أباه، لكن القانون فى هولندا حال دون ذلك، وحاول الأصدقاء من ناحية أخرى إبعاد الخادمة عن بيته فرفضت أن تتخلى عن رمبرانت، وأعلنت أنها تنتمى إليه، فحكمت عليها الكنيسة بالحرمان، وتزوجها الفنان الكبير زواجا لا دينيًّا.

وبعد زواجه منها بشهور، فجع رمبرانت بموت ابنه الوحيد الشاب، الذى أراد أن يتنازل له عن نصف تركته ليسعده واهتز الفنان الكبير من أعماقه، لكنه واصل الرسم والشراب وتعليم الفنانين الشبان، ثم أنجبت له زوجته الشابة طفلة لم يطل بها العمر كثيراً وماتت قبل أن يتم لوحته لها، وساءت صحة زوجته بعد الولادة وعرف رمبرانت بحالتها الصحية فطلب عدم مصارحتها بها، وعلمت هى بحقيقة ظروفها الصحية فطلبت إخفاءها عنه حتى لا تضيف إلى أحزانه المزيد، وأراد رمبرانت أن يتزوج زوجته المخلصة فى الكنيسة؛ ليسعدها فى أيامها الأخيرة فلم تلبث أن رحلت عن الحياة، وعاش الفنان الكبير سنواته الأخيرة حزينًا شاردًا يكثر من الرسم والشراب ويردد من أقوال سليمان الحكيم:

ـ أتفه من التفاهة.. كل شىء تافه.. لقد رأيت كل الأعمال وكلها باطل وتافه!.

ويسترجع ذكريات أحبائه الذين عاشوا معه فى هذه البيت وغادروه، واحدًا بعد الآخر من زوجته الأولى.. إلى ابنه الوحيد.. إلى زوجته الثانية.. إلى طفلته منها، ويقول لتلاميذه من أقوال سليمان الحكيم أيضًا:

ـ فى الحكمة الواسعة.. يزيد الحزن!.

وبعد سنوات من الوحدة وقلة الموارد ومحاصرة الديون، يسلم الفنان الكبير أنفاسه الأخيرة فى ١٦٦٩ وتنطوى صفحته من الدنيا، ولكن أعماله الفنية

تتحدى بعده الفنـاء، فتدخـل لوحاته أعرق متاحف الفن.. ويتحول بيته فى مدينة أمستردام إلى متحف، يضـم عدداً كبيراً من لوحاته الصغيرة، ويؤمه السياح من كل مكان.

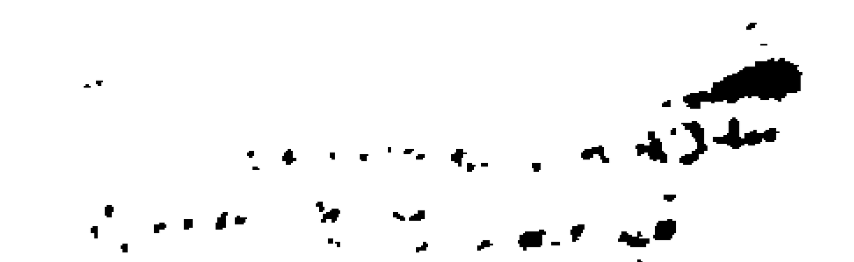
تجولت فى أنحاء البيت.. وحرصت كعادتى على تفقد غرف النوم والطعام والمعيشة وأستديو العمل؛ لتكتمل الصورة الذهنية التى رسمتها فى مخيلتى من قراءتى لقصة حياته، وتأملت لوحات الفنان المرسومة بالحبر الأسود، وتضم مجموعة كبيرة من «البورتريهـات» الشخصيـة للفنـان نفسـه، ووقفـت أمامها طويلاً واستغرقتنى قراءة البيانات المدونة بجوارها ثم إعادة تأملها مرات ومرات، فنسيت رفاق الرحلة الثلاثة الذين أنهوا جولتهم فى البيت خلال وقت قصير وغادروه إلى مقهى ينشر مقاعده فوق كوبرى صغير، وأرسلوا إلىَّ أحدهم ليبلغنى بمكانهم ثم ليتعجلنى الخروج بعد ذلك أكثر من مرة للاستمتاع معهم بالمنظر الساحر فوق الجسر وبأشعة الشمس الذهبية، التى تحول المكان كله إلى لوحة شاعرية جميلة.

وأخيراً خرجت بعد ساعتين وانضممت إليهم، وتأملت شرفات البيوت المحيطة بالجسر التى ازدحمت كلها بالعائلات المقيمة فيها، فى جلسة استرخاء تحت أشعة الشمس الهادئة الرقيقة، التى لا تلسع أحداً ولا تسيل عرقه وشربت القهوة بتلذذ غريب، وأنا أتساءل: لماذا لا تطيب الحياة هكذا دائمًا لكل إنسان؟.

فتذكرت على الفور كلمة الفنان الهولندى الذى خرجت توًا من زيارة بيته لابنه الشاب، حين تعجب من رفض القانون أن يتنازل لأبيه عن نصف ميراثه، فقال له الأب متحسراً:

ـ اسكت يا ولدى:.. إن العالم قفص ضيق محاط بالقيود من كل جانب! فاسكت ولا تحاول نطح الصخور.

تذكرت كل أنواع «القيود» التى تحاصر كل إنسان من كل جانب، فكاد التذكر



يفسد عليَّ بهجتى بزيارة بيت الفنان الكبير.. والجلسة الهادئة فوق الجسر.. وبانوراما البيوت الجميلة التى تطل من نوافذها الزهور.. ثم استرددت نفسى من خواطرى سريعًا، ورضيت من الدنيا بمثل هذه الجلسة الجميلة من حين لآخر، وفى أى مكان من العالم، أمسح بها عناء الحياة بشرط أن يتوافر لها شرط أهم من شرط جمال المكان هو جمال النفوس.. أى الأصفياء الذين يبادلونك المودة الصافية بمثلها، ويحرصون عليك كما تحرص أنت عليهم وتشعر بالأمان والراحة فى صحبتهم، فالأماكن بالبشر وليست بجمال الطبيعة أو الجغرافيا فيها، ولأنى أؤمن بذلك دائمًا، فقد أحب مكانًا لا يوحى للآخرين بأى جمال لأن لى فيه أخلاء يستريح إليهم قلبى وتهدأ خواطرى معهم.. وقد أكره مكانًا تتجمع فيه كل مقومات الجمال النظرية؛ لأن تجربتى مع «البشر» فيه ليست سارة ولا بهيجة، فإذا لم تكن لى تجربة مع أحد بالمكان أحسست بجماله إحساس السائح، الذى يميز بين القبح والجمال، ويظل إحساسى به هكذا إلى أن يصبح لى أصدقاء فيه فتختلف المقاييس، ويستعصى «المكان» على أى نقد أو انتقاد عندى!.

استسلمنا لأشعة الشمس الذهبية وقتا جميلاً، يضاف إلى لحظات الراحة والبهجة القليلة فى حياة الإنسان.. ثم نهضنا لنستكمل جولتنا فى المدينة الساحرة فطفنا بشوارعها ومقاهيها، ووجدنا أنفسنا أمام متحف الشمع.. فاقترحت على الأصدقاء دخوله واستجابوا لرغبتى مشكورين، ولفت نظرى أنه فرع لمتحف الشمع الشهير فى لندن المعروف باسم متحف «مدام توسو»، وهى السيدة الفرنسية الأصل التى أقامت فى لندن أول متحف للشمع فى القرن التاسع عشر، وكانت تصنع تماثيلها بنفسها، وعنها انتشرت فكرة متاحف الشمع فى عديد من عواصم العالم واحتفظ متحف لندن، الذى تحول إلى شركة كبرى باسمها عليه وعلى الشركة حتى الآن.

انتهيت من جولتى فى متحف أمستردام الصغير، الذى يفرد جناحًا منه لتقديم صورة مجسمة للحياة فى هولندا فى القرن السابع عشر، فتساءلت لماذا لم يفكر



أحد فى دعوة شركة متحف مدام توسو؛ لإقامة فرع له بمصر، يقدم فيه صورة أخرى مجسمة بالتماثيل الشخصية للحياة فى مصر الفرعونية والقبطية والإسلامية، وتاريخ مصر ثرى ثراء «فاحشًا» بما يستطيع مثل هذا المتحف أن يقدمه للزائرين؟

خطرت لى هذه الفكرة وأنا أتجول فى أنحاء المتحف الصغير وأرقب زحام السياح فى ممراته وأبهائه، وأقارن ما أراه من معالم تاريخية محددوة بما حفل به تاريخ مصر من مشاهد ومعالم، يمكن تحويلها إلى صور حية باهرة باستخدام التكنولوجيا المتقدمة المتاحة لمثل هذه المتاحف، فتمنيت لو استطاع أحد تنفيذها ليضيف إلى مزارت مصر العديدة مزاراً جديدًا.

انتهت جولتنا الحرة فى شوارع مدينة أمستردام فى السادسة مساءً، وعدنا لفندقنا نستريح بعض الوقت استعداداً للقاء أصدقاء أمستردام الجدد فى المساء.. وأمضينا ليلة أخرى طيبة فى المدينة الهولندية العجيبة. وفى الصباح ركبنا السيارة عائدين من نفس الطريق نفها إلى باريس عبر بلجيكا، التى لا يشربون فيها الشاى ولا القهوة إلا فى أضيق الحدود كما اكتشفنا خلال رحلة الذهاب.. وانبهرت خلال رحلة العودة التى استغرقت ست ساعات مرة أخرى؛ بمعنى الوحدة الأوروبية التى قرأت عنها الكثير، أكثر مما حدث لى قبل يومين، ففى رحلة الذهاب شاهدنا عند بوابة الحدود الفرنسية البلجيكية جنديين أو ثلاثة يتفقدون السيارات المغادرة لفرنسا للحظات، ويرون جوازات السفر وهى مغلقة، قبل أن يشيروا للسيارات بمواصلة السير فى طريقها دون فتح الجوازات. أما فى رحلة العودة فلم نر جنديا واحدًا، ولا رجل جمارك بين هولندا وبلجيكا وفرنسا، وعبرنا حدود ثلاث دول دون أن يوقفنا أحد أو يطلب الاطلاع على جوازات سفرنا، أو يسألنا من أين جئتم ولا إلى أين تذهبون، وكأننا فى رحلة داخلية من القاهرة إلى أسوان.

وتمنيت أن يأتى يوم قريب تستطيع أن تركب فيه سيارتك، وتتنقل بها بين دولة عربية وأخرى دون أن يوقفك أحد عند الحدود. . وازداد إعجابى وعجبى مما لمسته ورأيته خلال رحلتى للذهاب والعودة، حين تذكرت أن تاريخ أوروبا الحديث فى القرنين الأخيرين فى مجموعه يمكن اعتباره تاريخًا للحروب المتصلة والمتلاحقة بين قومياتها المختلفة ودولها المتنافسة، ومع ذلك فبدافع المصلحة المشتركة وحدها وليس بأى دافع آخر، فقد أزالت الحدود الجمركية بين دولها. . وأزالت كل العوائق أمام تنقل مواطنيها من دولة إلى أخرى فى دول السوق الأوروبية. . وبفضل ذلك استمتعت بهذه الرحلة الخاطفة من باريس فى فرنسا إلى أمستردام فى هولندا، بلا منغصات ولا إجراءات معقدة!.

* * *



١٢

غريب فى روما!

بينى وبين وزير الثقافة المصرى السيد فاروق حسنى موعد لم يتم منذ ثمانى سنوات فقد كنت فى باريس فى أواخر صيف عام ١٩٨٧، وكان فى خطتى أن أزور روما وأقضى بها بضعة أيام لأول مرة فى حياتى، فقد زرت إيطاليا مرتين قبل ذلك لكنى لم أر خلالها عاصمتها؛ إذ قضيت فترة الزيارة الأولى فى فينسيا والثانية فى جنوه لأسباب «بحرية» بحتة؛ لأن الزيارتين كانتا بالبحر وليس بالطائرة.

أما روما التى قال عنها الأديب الألمانى العظيم جوته، حين رآها لأول مرة: «أخيرًا آن لى أن أولد» فلم تسمح لى الظروف حتى ذلك التاريخ لا بزيارتها، ولا بأن «أولد» من جديد حين آراها!.

وهكذا حسمت أمرى ذلك الصيف، على أن أرى هذه العاصمة الإيطالية التى أدرات رؤوس كل فنانى وأدباء العالم العظام حين رأوها، من الشاعر الإنجليزى لورد بايرون إلى الفنان السيريالى المجنون سلفادور دالى.

وخلال وجودى بباريس ذلك الصيف التقيت بالناقد العظيم الراحل الدكتور لويس عوض، وتعددت لقاءاتنا فى مقاهى الحى اللاتينى. وكان لويس عوض يقيم كلما زار باريس فى فندق صغير بالحى اللاتينى بشارع المدارس «رى ديزيكول» اعتاد أن ينزل به منذ أكثر من ثلاثين عامًا، وقد زرته فيه ووجدته جالسا مع صاحبه يتسامر معه وقدمنى إليه لويس عوض، فتبادلت معه عبارات

المجاملة بالفرنسية، ثم اكتشفت وبعد أن أجهدت نفسى فى محاولة استخدام أفضل لهجة فرنسية يقدر عليها لسانى العاجز، أنه مصرى صعيدى من بلديات الدكتور لويس، ومن أبناء إحدى قرى محافظة المنيا مثله، لكنه هاجر لفرنسا منذ ٣٠ عامًا ومازال يحتفظ بلهجته الصعيدية.

وكان برنامج لويس عوض اليومى فى تلك الزيارة هو أن يجلس فى مقهى بالشارع نفسه، الذى يقع فيه الفندق من الصباح حتى الظهر، فيجئ إليه تلاميذه ومحبوه من المصريين المقيمين فى باريس، ويدور الحديث الممتع فى الأدب والفن والسياسة، ثم يرجع إلى فندقه فيستريح فترة الظهيرة، وفى السابعة والنصف مساءً يخرج إلى أحد مسارح باريس ليشهد مسرحية حديثة.

وحين التقيت به كنت قادمًا من لندن، فسألنى عن الجديد فى المسرح الإنجليزى ذلك الصيف، وأجبته بأننى لم ألحظ عروضا مسرحية جديدة تستحق التوقف عندها، وأن كل المعروض تقريبًا من «الريبريتوار»، أى من المسرحيات التى سبق عرضها فى مواسم سابقة حتى أنى شاهدت ذلك الصيف عرضا حديثًا للمسرحية الإيطالية القديمة «ست شخصيات تبحث عن مؤلف» للأديب الإيطالى «لويجى بيراندللو»، فاعتمد على «شهادتى» هذه، وقرر إلغاء رحلته إلى لندن وقضاء كل الفترة فى باريس.

وكان لويس عرض يشترط فى عقده مع الأهرام كمستشار ثقافى له أن يمول رحلته السنوية إلى لندن وباريس لمدة شهر لمتابعة الحركة المسرحية والأدبية فيهما، وظل الأهرام يفى له بهذا الشرط كل عام بانتظام حتى اليوم الأخير من حياته، ولعلى بهذه المناسبة لم أغبط أحدا ذلك الصيف كما غبطت لويس عوض على المتعة الثقافية الراقية، التى يجنيها كل ليلة وهو ينتقل من مسرح فرنسى إلى آخر، فى حين أن لغتى الفرنسية العليلة كانت ومازالت تحرمنى من المسرح الفرنسى، وإن كانت تيسر لى شئون التعامل اليومى ورؤية بعض الأفلام الفرنسية، حيث تساعد المشاهدة على الفهم.. أما المسرح الذى يعتمد اعتمادًا كليًا على الحوار

الراقى حول مسائل فكرية عويصة فلا أمل لى فيه للأسف إلا مترجمًا للإنجليزية العربية، وأحاول دائمًا الاستعاضة عنه بعروض أوبرا باريس والباليه وحفلات الكونسير أو الموسيقى الكلاسيك، التى لا تحتاج إلى مترجم لكى تفهمها. . وإنما إلى الحس والتذوق الفنى والخيال.

وعلى طريقة القدماء فى طلب العلم بالسماع على شيوخهم. . حيث كان يقال فى «التاريخ العلمى» لأحدهم أنه «سمع» عن فلان وفلان، ورحل إلى بخارى وسمرقند «ليسمع» عن فلان وفلان، على هذه الطريقة كنت أسأل لويس عوض كل صباح فى المقهى عن مسرحية الأمس، وأطلب منه أن يلخص لى فكرتها وأسجلها فى مفكرتى، وهو يبتسم ويكرر على دعوته لى لمرافقته فى مسرحية «الليلة» مؤكدًا لى أننى سأفهم ٧٥٪ منها على الأقل، فأتردد طويلاً ثم أعتذر فى النهاية عازفًا عن المحاولة.

وفى هذا الجو الثقافى الممتع، قضيت عشرة أيام فى باريس ذلك الصيف ثم حان موعد سفرى إلى روما فسألنى الدكتور لويس عوض: أين ستقيم فى روما؟ فأجبته بأنى أزورها لأول مرة ولا أعرف أحدا فيها، وأننى سأفعل ما أعتدت أن أفعله حين أزور مدينة ليس لى بها أصدقاء أو معارف يرتبون إقامتى، وهو أن أبحث عن مكتب حجز الفنادق الذى لا يخلو منه أى مطار، وأطلب منه أن يحجز لى غرفة فى فندق قريب من محطة السكة الحديد الرئيسية بها، ثم أستقل سيارة الأجرة إليه وأمضى ليلتى الأولى فيه، فإذا أعجبنى أكملت بقية الرحلة فيه، وإذا حدث العكس خرجت فى الصباح وتجولت على الأقدام حتى أجد الفندق الملائم لى وأنتقل إليه، أما لماذا أحدد دائمًا منطقة المحطة الرئيسية فى أى مدينة أزورها لأول مرة فلأنها تقع دائمًا فى قلب المدينة، فيسهل على الحركة حولها، ورويت ذلك للدكتور لويس عوض، فسألنى مندهشًا:

ـ ولماذا لا تقيم فى الأكاديمية المصرية كما نفعل نحن جميعًا حين نزور روما؟.

ودهشت للسؤال فى البداية، فقد كنت أعرف أن الأكاديمية المصرية فى روما مخصصة لإقامة المبعوثين من خريجى كليات الفنون الجميلة فى مصر، الذين يذهبون إلى روما لإعداد المادة العلمية لرسالاتهم للدكتوراه، باعتبار روما مهداً للفنون التشكيلية العريقة وزاخرة بأعمال فنانى عصر النهضة العظام، ولكن الدكتور لويس عوض أكد لى أن الأكاديمية تستقبل كذلك الصحفيين والأدباء والفنانين العابرين بروما فى زيارات قصيرة وأن ذلك لا يتطلب إلا الاتصال تليفونيـًّا قبل السفر بمدير الأكاديمية الفنان فاروق حسنى!.

فرفعت يدى يائسًا وقلت له إننى لا أعرفه شخصيـًّا ولم ألتق به من قبل، فقال لى فى حسم: لكنى أعرفه وسوف أتصل به تليفونيـًّا من مكتب الأهرام، وأبلغه بموعد سفرك إلى روما.

وشكرته على هذه الأريحية ونسيت الأمر كله بقية اليوم، فإذا به يبلغنى فى اليوم التالى أنه قد أتصل فعلاً بفاروق حسنى، وأنه رحب بإقامتى فى الأكاديمية خلال الزيارة القصيرة وأكد له زيادة فى الفضل أنه سيوفد مدير مكتبه واسمه على ما أذكره «صلاح» لانتظارى فى مطار روما، عند وصولى فى الحادية عشرة مساء، وأنه سيستقبلنى فى مكتبه صباح اليوم التالى لنشرب القهوة ويتم التعارف!.

فلم أملك إلا الشكر والعرفان وودعت الدكتور لويس عوض وأصدقائى فى باريس، وركبت الطائرة فى المساء متجها إلى روما وأنا مطمئن إلى ترتيب كل شيء.. فهناك مندوب من الأكاديمية فى انتظارى بالمطار بسيارته وأستديو جميل خال بالأكاديمية يستعد لاستقبالى، ثم هناك أيضًا مدير الأكاديمية الفنان الذى سمعت باسمه من قبل فى أخبار قليلة بالصحفة الأخيرة بالأهرام، وستكون هناك بالضرورة أشياء كثيرة للحديث عنها، وأطمأننت لخطة الزيارة واسترخيت فى مقعدى محاولاً النوم، حتى هبطت الطائرة فى روما وأنهيت إجراءات الجوازات وأنا أتساءل ترى كيف يكون شكل السيد «صلاح» مندوب الأكاديمية هذا؟ حملت

حقيبتى وغادرت الدائرة الجمركية، فوجدت عشرات المندوبين يحملون لافتات صغيرة تحمل أسماء ضيوفهم القادمين. . ولم أجد اسمى على إحداهما لكنى لم أفقد اطمئنانى، فالسيد «صلاح» لابد يفضل الاعتماد على فراسته فى تمييز ملامحى المصرية عند باب الخروج، فعبرت كل المندوبين وتلفت حولى يمينًا ويسارًا وذرعت المطار ذهابًا وعودة فلم أجد أحدًا فى انتظارى!.

يا إلهى! فيم كان إذن الترحيب والحفاوة والتأكيد الحار بإرسال مندوب من الأكاديمية؟.

فكرت فى أن أطرح الفكرة جانبا وأتجه إلى مكتب حجز الفنادق بالمطار، لكنى تذكرت فجأة أننى أحمل رقم تليفون الأكاديمية، ففضلت الاتصال بها لعل المندوب يكون فى الطريق للمطار فيصل بعد مغادرتى له، وأدرت الرقم فإذا بمن يجيبنى عليه هو السيد «صلاح» نفسه!.

وقبل أن أنطق بكلمة بادرنى بكلمات الاعتذار و. . آسف جدًا. . لأننى كنت فى المطار قبل ساعتين فقط من وصولك، ورجعت للأكاديمية ناسيًا موعدك. . على أية حال لا تقلق فكل شيء معد لك فاركب سيارة أجرة من فضلك وأعط السائق العنوان واحترس من ألاعيبه عند دفع الحساب، وسوف تجد عند باب الأكاديمية مندوبًا فى انتظارك ليقودك إلى غرفتك. . آسف جدًا وسوف أشرح لك الظروف حين تجيء!.

ولم يكن بيدى إلا أن أنفذ ما أشار به علىَّ، فالوقت قرب منتصف الليل. . وأنا غريب فى روما. . والغريب أعمى وعاجز وقليل الحيلة، ولو كان بصيرًا وحاذقًا وخبيرًا.

وركبت سيارة الأجرة. . وصعدت بى تلال حدائق بورجيزى حيث تقع الأكاديمية المصرية، ونزلت من السيارة فوجدت موظفًا مصريًا شابًا يقف أمام البيت المغلق فحمل عنى مشكورًا حقيبتى، وقادنى إلى ممر طويل تطل عليه

أبواب أستديوهات الفنانين، وفتح لى أحدها وأضاء النور ووضع الحقيبة على الأرض ثم انصرف.. وتلفت حولى فوجدتنى فى مرسم واسع، به حوامل اللوحات وبعض التماثيل وسلم داخلى ارتقيته، فوجدت غرفة النوم المفتوحة على المرسم، وكل شىء حولى صامت وساكن ولا مطعم ولا كافتريا للعشاء أو الشاى، فالوقت أواخر الصيف ومعظم المبعوثين فى إجازات فى مصر أو فى الشواطئ الإيطالية، ولا مفر من قضاء الليل بلا طعام، فخلعت ملابسى ودخلت فراشى وبت ليلتى الأولى فى روما غريبًا.. ووحيدًا.. وجائعًا!.

نهضت من نومى فى الصباح الباكر.. ربما بتأثير القلق أو الجوع، فغادرت مبنى الأكاديمية المصرية فى روما دون أن ألتقى بأحد أو أرى أحدًا، ووجدتنى بعد خروجى من بابها الأمامى فى حديقة كبيرة هى حدائق بورجيزى، التى كنت أعرف أنها تشتهر بتماثيل عدد كبير من شعراء العالم العظام، كما كنت أعرف أيضًا أنها تضم تمثالاً لشاعر عربى واحد هو أمير الشعراء أحمد شوقى، فترددت بين النزول من التل إلى الشارع لتناول الإفطار، والبحث عن تمثال أحمد شوقى وتأمل بقية تماثيل الشعراء العظام.. ولو بدأت هذه «المهمة» على الفور وتسمرت لفترة طويلة كعادتى أمام كل تمثال محاولاً قراءة بياناته، لربما فاتنى ليس فقط طعام الإفطار وإنما طعام الغداء أيضًا، فقاومت رغبتى وهممت بالنزول من الحديقة.. فلم تطاوعنى قدماى وأنهيت الحيرة بأن عقدت مع نفسى «اتفاقًا عادلاً»، هو أن أبحث عن تمثال شوقى فقط وأقف أمامه بضع دقائق، ثم أهرول نازلاً من الحديقة لأتناول الإفطار والشاى والقهوة، وأرجع بعد ذلك لاستكمال الجولة وتأمل كل التماثيل.

وبالفعل تلفت يمينًا ويسارًا باحثًا عن التمثال، ورأيت شابًّا إيطاليًّا توسمت فيه معرفة الإنجليزية والفرنسية وسألته بهما عن تمثال شوقى فلم يفهم شيئًا.. إلا حين سألته بالإيطالية التى لا أعرف منها سوى بضع مفردات عن «الستاتيو إجيتسيانو» أى التمثال المصرى! فأشار إلى ناحية قريبة وسرت فوجدتنى أمام أمير

الشعراء مسندًا رأسه على يده فى وضع التفكير الجميل، وممسكًا بيده الأخرى وردة فاتنة وكل وداعة الدنيا فى ملامح وجهه وعينيه الحالمتين، فيا لسعادتى حين رأيته ووقفت أمامه فى روما وليس فى أرض مصرية أو عربية! إننى لا أستطيع أن أصف لك ما أحسست به من اعتزاز وفخر، وأنا أرى تمثال أحمد شوقى فى حدائق بورجيزى وسط تماثيل أعظم شعراء العالم وفنانيه! وهو تمثال ضخم جميل صنعه المثال المصرى الراحل جمال السجينى فى الخمسينيات، ولست أدرى من الذى أجاد اختيار هذا البيت من شعر شوقى لكى ينقش عليه، فتحت التمثال قرأت هذه البيت الملائم تمامًا للمكان والمناسبة:

قف بروما وشاهد الأمر وأشهد ... أن للمـــلك خـــالقًا سبحـــانــه

وهو من قصيدة له بعنوان روما كتبها شوقى، حين زارها فى طريق عودته لمصر من باريس فى أوائل القرن الحالى فبلغها.. «وإذا أنا بين أثر يكاد يتكلم، وحجر كاد لكرامته يُتسلم» أى يقبل تقديرًا لقيمته التاريخية، كما قال شوقى فى خطاب لصديق له يشرح فيه قصة هذه القصيدة، وكيف أوحت إليه بها روما.

غرقت فى تأملاتى حتى ذكرتنى قرصة الجوع «بالمهمة الأخرى» فهبطت التل وبحثت عن أقرب مطعم أو كافتيريا، فوجدت محلاً كمحلات الحلوى الشرقية فى بلادنا والعامل يقف وراء صوانٍ كبيرة مستديرة كصوانى البسبوسة ويقطع ويقدم للزبائن، اقتربت منها فاكتشفت أنها ليست بسبوسة وإنما بيتزا شعبية، فطلبت قطعة ورفع الرجل السكين قبل أن يقطع وأشار للبيتزا بما معناه: هل تكفى هذه القطعة؟ فأشرت إليه بمضاعفتها وطلبت الشاى وتناولت إفطارى وعشاء الأمس معًا، ثم شربت القهوة واسترخيت متأملاً الميدان والبشر القادمين والرائحين.. ولم أشعر بعد أنى قد ولدت من جديد.. كما قال جوته حين رأى روما، فالميدان عادى ومشاهد الحياة به مألوفة فى أى مدينة أوروبية.

وبعد ساعة قدرت أن الوقت قد أصبح مناسبًا للعودة للأكاديمية، حيث يكون

مديرها قد صحا من نومه وذهب إلى مكتبه فألتقى به وأشكره وأتعرف عليه، معتزمًا ألا أشير إلى المفاجأة السخيفة التى تعرضت لها عند وصولى للمطار، إذ لعل لدى مدير مكتبه من الظروف القهرية ما عاقه عن انتظارى فى المطار، كما وعد بذلك «مدير الأكاديمية» الفنان فاروق حسنى.

ورجعت إلى مبنى الأكاديمية وسألت ساعيًا عن مكتب المدير، فقادنى إلى مدير مكتبه «صلاح»، واستقبلنى بتكرار الاعتذار عن عدم انتظاره لى فى المطار ليلة أمس.. فسألته عن المدير الذى ينتظرنى للتعرف حسب الترتيب السابق فتشاغل عن الإجابة.. وسألنى: تشرب قهوة تركى؟ شكرته وأبلغته أننى شربت قهوتى ولا أريد شيئًا.. وطلبت منه أن يبلغ المدير بوجودى فحك جلد رأسه بيده.. وغمغم بشىء لم أفهمه.. ثم نهض واصطحبنى إلى غرفة سكرتير المدير، وقدمنى إليه واستأذن فى الانصراف لأن وراءه عملاً عاجلاً، ثم اختفى!.

يا إلهى.. ماذا يجرى فى الأكاديمية.. ولماذا يبدو لى مدير المكتب غامضًا، وكأنه يحاول أن يخفى عنى شيئًا لا أعرفه.. إننى لست من هواة مقابلة الرسميين.. ولم أسع لمقابلة مدير الأكاديمية إلا من باب اللياقة والمجاملة للرجل الذى استضافنى فيها.. وهو لقاء لن يستغرق دقائق أشكره خلالها ثم أخرج لأتعرف على روما وكنوزها الفنية.. فلماذا يتجاهلون الإجابة كلما سألت عن هذا المدير الغامض؟.

رحب بى السكرتير بحفاوة، وكرر على الدعوة لتناول القهوة التركية فاستجبت شاكرًا.. وشربتها ونظرت فى ساعتى وانتظرت أن يدعونى لدخول مكتب المدير الذى لابد أن يكون فى انتظارى، والسكرتير يبدو مجاملاً لكنه يتحفظ هو الآخر فى الحديث كلما سألته عن المدير.. ويكتفى بقوله إنه ليس موجودًا فأسأله: هل مازال نائمًا؟ فلا يجيب إجابة صريحة. هل سيأتى بعد ساعة؟ فيتشاغل بالكلام مع موظف آخر أو يتبادل معه الإشارات غير المفهومة. حتى بدأت أشعر بالحرج وهممت بالنهوض، فأحس السكرتير بأننى أتصور أن المدير يتهرب من مقابلتى..

فقال إنه سيبوح لى «بالسر» بشرط أن أكتمه حتى الوقت المناسب. . وأنه لولا أنه قد خشى أن أسئ فهم الموقف وأغضب لما باح لى به!.

سر؟ أى أسرار فى أكاديمية مصرية صغيرة للفنون، فوق تل منعزل فى أحد أطراف روما ولا يزيد عدد موظفيها عن ٧ أو ٨؟ تردد السؤال فى ذهنى ولم أتحمس لاستقبال هذ «السر» المتوقع، لكن الرجل خفض صوته ومال للأمام ليهمس لى قائلاً إن المدير قد «استدعى» للعودة أمس للقاهرة، وركب الطائرة من نفس المطار الذى جئت إليه قبل وصولى بساعتين فقط! فلم يخطر لى شىء سوى أن أرجو أن يكون الأمر «خيراً بإذن الله» فالموظف الذى يعمل خارج بلاده لا يرجع إليهما فجأة بغير ترتيب سابق إلا فى حالات الكوارث العائلية، لا قدر الله، كالوفاة أو المرض الشديد لأحد أفراد الأسرة، والرجل كان حتى ظهر أمس يؤكد أنه سيكون فى انتظارى هذا الصباح فى مكتبه. . إذن فلابد أن أمراً عائلياً طارئًا قد اضطره إلى تغيير كل خططه والعودة لبلده. . فلعل الأمر خيراً بإذن الله كما قلت للسكرتير مرة أخرى معبراً عن أمنياتى الطيبة! فبدا للسكرتير أننى لم التقط الإشارة فازداد ميلاً على المكتب، وقال لى وهو يهز رأسه هزة حرت فى تفسيرها، أن المدير قد استدعى «رسمياً» وليس عائلياً فجأة بعد ظهر أمس.

فبدأت أشعر بالحرج. . وسوء التوقيت الذى زرت فيه لأول مرة هذه الأكاديمية، فالمدير أى مدير لا يستدعى رسمياً للعودة لعاصمته إلا إذا كانت هناك مشكلة أو مشاكل قد تطلبت استدعاءه إلى الوزارة، التى يتبعها للحديث حولها وربما «للمساءلة» عنها فيا لسوء الطالع! لماذا اخترت الإقامة بالأكاديمية فى هذا التوقيت غير الموفق بالمرة؟ لم أجد ما أقوله إزاء هذا الموقف المحرج فهممت بالانصراف مكرراً العبارة السابقة، ومؤكداً للسكرتير أن الأمر سيكون خيراً بإذن الله، فإذا بالسكرتير يرجع مرة أخرى للإيماء برأسه ويزداد انحناء على المكتب حتى كاد صدره يلمسه، ويقول لى وهو يرقب باب الغرفة أن «السيد المدير» قد استدعى للرجوع للقاهرة للاشتراك فى الوزارة التى يتم تشكيلها اليوم!.

نعم؟ قلتها متسائلاً.. فكرر على نفس الكلمات باللهجة «الخطيرة» فكادت ملامحى تفضحنى، وتكشف له دهشتى الطاغية لغرابة هذه الفكرة العجيبة، فأنا صحفى قريب من الأحداث فى بلدى، ولم أغب عنها سوى عشرين يومًا ومديره الغائب لم يتردد اسمه أبدًا بين المرشحين لتلك الوزارة لا من قريب ولا من بعيد، كما أنه غير معروف فى أوساط المثقفين الذين يتعاملون مع هذه الوزارة، فكيف طرأ على ذهن السكرتير هذا الخاطر العجيب؟ تظاهرت بتصديق «السر الخطير» الذى باح لى به وانصرفت، وأنا أتعجب مما قد تفعله الغربة والبعد الطويل عن «مركز الأحداث» بعقول بعض المغتربين؛ مما يهيئ لهم أحيانًا أنهم عالمون ببواطن الأمور ويعرفون أسرار بلادهم بأكثر مما يعرفها المقيمون، وهى حالة «نفسية» شائعة بين الجاليات الأجنبية فى كل أنحاء العالم.. وتجد تفسيرها فى محاولة تعويض البعد بالإمعان فى الاهتمام بشئون البلد الأم.. وتوهم الاطلاع على خفايا أسرارها.. وإدراك ما لا يدركه أبناؤه المقيمون!.

استرحت إلى هذا التفسير النفسى «الحكيم»، وبدأت سياحتى فى روما، فإذا بى أكتشف أن منطقة بورجيزى ليست مؤشرًا عادلا لها. وأن الجمال كله والإبداع كله فى وسط المدينة.. وفى كل ميادينها وشوارعها.. فالمدينة كلها عبارة عن متحف مفتوح تنتشر فيه الكنائس الأثرية البديعة.. وبوابات النصر القديمة والمدرجات الرومانية.. والتماثيل الرائعة والنافورات الخلابة، ناهيك عن مقاهى الشوارع الجميلة.. ومتاحف الفن العديدة التى تنتشر فيها روائع فنانى عصر النهضة، فغرقت فى بحر المتعة الثقافية والجمالية حتى الأعماق السحيقة، والتمست العذر لجوته العظيم، الذى قال إنه لم يولد حقًّا إلا حين رأى روما.

وظللت أنتقل من متحف إلى متحف، وتوقفت فى حدائق بورجيزى أمام كل تماثيلها البديعة حتى هدنى التعب فرجعت مع الأصيل إلى الأكاديمية، فإذا بى أجد كل نزلائها وموظفيها يتناقلون خبر اختيار مديرها وزيرًا للثقافة فى الوزارة، التى أعلنت فى القاهرة ذلك اليوم.

وسألونى: كنت تعرف بالطبع؟.

فسألتهم: كيف عرفتم؟ فأجابوا بأنهم يضبطون مؤشر الراديو فى غرفهم على محطة القاهرة، وقد سمعوا منها أسماء الوزراء الجدد.

فأدركت فى هذه اللحظة أننى لم أكن فقط غريبًا فى روما، وإنما أيضًا فى القاهرة.. وأننى لا أعرف شيئًا عن «مسرح الأحداث» الذى تصورت أننى قريب منه، وكفرت «بالتفسير النفسى» لظاهرة العلماء ببواطن الأمور فى الغربة هذه، وعدت لمصر بعد ثلاثة أيام بغير أن ألتقى بمدير الأكاديمية المصرية فى روما لا فى روما.. ولا فى القاهرة بعد ذلك أبدًا.. وإذا بالخبر الذى رفضت تصديقه قد أثار عاصفة شديدة فى مصر وقتها، وإذا بمدير الأكاديمية يصبح أطول وزير للثقافة قضى أطول فترة متصلة بالوزارة فى مصر، وإذا بى أعرف بعد فوات الأوان أن القرب من مركز الأحداث كالبعد عنه، سواء بسواء ولله فى خلقه شئون.. وشجون!.

* * *



١٢

الشمس على يمينى.. والقمر على يسارى؟

مشيت فوق البحر وشاهدت الشمس «تسطع» فى منتصف الليل. . ورأيت الشمس على يمينى والقمر على يسارى فى نفس اللحظة فى مكان واحد من دنيا الله الواسعة، التى لم نعرف منها حتى الآن سوى كوكب الأرض الصغير!.

ففى خريف عام ١٩٧٨، تلقيت دعوة من شركة الخطوط الجوية الفنلندية لزيارة فنلندا بمناسبة افتتاح أول خط جوى منتظم بين القاهرة وهلسنكى، وركبت الطائرة فى أول رحلة لهذا الخط من القاهرة مع عدد كبير من مسئولى السياحة والطيران ورجال الإعلام.

وفى هلسنكى بدأ برنامج الزيارة القصيرة من لقاءات وزيارات وحفلات عشاء، وبعد يومين فوجئت بأحد مسئولى شركة الطيران يبلغنا بأن مدير هيئة السياحة الفنلندية يرغب فى لقاء أعضاء الوفد من الصحفيين، والتقينا به بالفعل فى مكتبه فرحب بنا بحرارة وتحدث إلينا طويلا عن إمكانات بلاده السياحية، وطلب منا التخلف عن العودة إلى القاهرة مع بقية أعضاء الوفد؛ لأنه سينظم لنا زيارة إلى منطقة «اللآب لاند» الجليدية فى شمال فنلندا!.

وسعدنا بهذا الخبر الجديد وركبنا الطائرة من هلسنكى إلى منطقة «اللاب لاند» ووجدنا فى المطار الصغير، الذى هبطنا فيه فتاة فنلندية لا يتجاوز عمرها ١٩ أو ٢٠ سنة على الأكثر، تقدمت منا وقالت لنا فى خجل إنها «مسئولة» هيئة السياحة الفنلندية فى المدينة. . وتعجبت صامتًا كيف يمكن لفتاة صغيرة كهذه الفتاة أن

تكون مسئولة السياحة فى هذه المنطقة الشاسعة، التى يؤمها السياح من كل أنحاء العالم ليشاهدوا ما يتردد أنه الموطن الأصلى «لبابا نويل» تلك الشخصية المحببة للأطفال فى الغرب، فضلاً عن أنها المنطقة التى تستطيع أن تتلامس فيها مع ظاهرة فلكية من أغرب الظواهر الطبيعية كل سنة فترى الشمس على يمين الأفق، وتلتفت إلى الناحية الأخرى فترى القمر طالعًا على يساره!.

لكنى عجبى لم يطل كثيرًا فشعب فنلندا صغير العدد، ويقل عن ٥ ملايين نسمة رغم مساحة بلاده الشاسعة، والوظائف تنادى الشباب هناك، وقد أثبتت لى الأيام التالية أنها ليست أقل كفاءة من الكبار، فقد قادتنا بنشاط إلى سيارة ميكروباص صغيرة، وأعطت تعليماتها بحزم إلى السائق بالتوجه بنا إلى الفندق واطمأنت على إسكاننا فيه، ثم ودعتنا على أن ترجع إلينا فى الصباح لتصعد بنا إلى أقرب نقطة من رأس الكرة الأرضية!.

وفى الصباح جاءتنا السيارة وخرجنا من باب الفندق، مسلحين بالمعاطف الثقيلة وأغطية الرأس الصوفية والكوفيات الشتوية وأحذية الجليد، التى يرتديها الإنسان فوق حذائه وهى أشبه بأحذية كرة القدم لأن فى نعالها نتوءات بارزة تمنع التزحلق فوق الجليد، وركبنا السيارة متجهين إلى القطب الشمالى، فسارت بنا وسط شوارع بيضاء مغطاة بالجليد ومساكن متناثرة تغطيها «ندوف» خفيفة من الثلج الأبيض، وغابات «بيضاء» تختفى خضرتها تحت قناع من الجليد..

واكتشفت فى بعض مراحل الطريق أننا نسير بالسيارة فوق أجزاء من البحر، تجمدت مياهها خلال الشتاء القارس، ولكنها ترجع إلى طبيعتها فى الصيف، ويتحول عنها الطريق إلى مسار آخر.. وتوقفت بنا المرشدة فى الطريق ودعتنا للنزول من السيارة والمشى فوق البحر والتقاط الصور لنا، ونحن فى هذا المكان ليستطيع كل منا أن يقسم صادقا أنه قد حقق إحدى المعجزات، ومشى فوق البحر كأصحاب الخوارق والمعجزات.

وتجولنا بالفعل على الأقدام فوق «أرض» صلبة بيضاء، تصبح فى صيف

فنلندا القصير ـ الذى يبدأ فى يونيو وينتهى فى اخر أغسطس، بحراً تشق مياهه السفن والبواخر ـ ورجعنا للسيارة وواصلنا الطريق إلى المنطقة الجبلية التى سنجد فيها مطعمًا صغيراً دافئًا نتناول فيه المشروبات الساخنة، ووصلنا إلى أعلى نقطة فى الجبل الأبيض. . ووقفت قبل أن أدخل المطعم أتأمل جبل الجليد والمساحات البيضاء الشاسعة الممتدة فى الأفق، ثم رفعت رأسى إلى السماء فجأة، فإذا بى أرى أعجب مشهد يمكن أن يراه الإنسان فى أى مكان فى العالم. . فقد رأيت من موقفى أمام المطعم الصغير الشمس فى كبد السماء فى يمين الأفق، والتفت للناحية الأخرى فرأيت القمر فى يسار الأفق من الناحية الأخرى ونحن فى عز الظهر. . وسرحت طويلاً وأنا أتأمل هذا المشهد الفريد، وعرفت أننا نقف فى هذه اللحظة فوق أقرب نقطة من رأس الكرة الأرضية؛ حيث تسمح لنا استدارة الكرة الأرضية برؤية الجانب الذى يعيش فى هذه اللحظة نهاره، ونرى أيضًا القمر وهو يطل على نصف الكرة الآخر المعتم، الذى يعيش فى نفس اللحظة نفسها ليله! وسبحان خالق الكون ومبدع أسراره.

صحيح أن الشمس التى أراها من موقعى تلك اللحظة شمس «شرفيه» باهتة الضوء ومستأنسة ولا تغير من برودة الجو شيئًا، لكنها ـ وهذه عجيبة أخرى من عجائب هذا الكون ـ هى نفسها الشمس التى تلهب فى نفس اللحظة من يعيشون فى نصف الكرة الجنوبى وتحرق وجوههم. . واستغرقت فى تأملاتى طويلاً حتى بدأت أشعر بأن أنفى على وشك التجمد، فسارعت بالانضمام لزملائى داخل المطعم الدافئ، وبعد قليل دعتنا المرشدة النشيطة إلى ممارسة تجربة أخرى لا تتاح للإنسان إلا فى المنطقة القطبية من العالم، فوجدت شابا يرتدى قفازات جليدية سميكة، يطارد حيوان الرنة الشبيه بالوعل أو الجدى الكبير فى حظيرته للإمساك به وربطه فى الزحافة، وراوغه الحيوان طويلاً حتى استطاع الإمساك به وربطه فى الزحافة ودعانا لركوبها، فنظرت إلى الزميلين المرافقين لى فى الرحلة ورجوتهما ألا يخيبا ظن هذا الشاب فينا، وأن يركب أحدهما الزحافة فى جولة

قصيرة فوق الجبل، أما أنا فقد عجزت عن احتمال البرد القارس أكثر من ذلك، وسارعت بالعودة إلى داخل المطعم.

ومنطقة «اللاب لاند» منطقة شاسعة فى أقصى شمال أوروبا، يقع معظمها داخل الدائرة القطبية وتمثل أراضيها الأجزاء الشمالية من دول بحر البلطيق: فنلندا والنرويج السويد، وسكانها الأصليون يبلغ عددهم حوالى ٣٠ ألف نسمة يتركز أكثرهم فى شمال النرويج، هم قوم رحل يرعون قطعان الرنة ويمارسون الصيد البرى وصيد الأسماك، ويعتقد أنهم جاءوا من آسيا الوسطى فى إحدى الهجرات وكانوا وثنيين حتى القرن الثامن عشر، حين بدأ دخولهم فى المسيحية على أيدى المبشرين الروس والإسكندنافيين ولهم لغة خاصة غير لغات الدول الثلاثة التى يعيشون فى شمالها، ولأنهم يعيشون فى منطقة جليدية فهم يرتدون الفرو بحيث لا يبدو من الإنسان سوى وجهه فيبدو فى هيئة «بابا نويل» التى نقلها الأوروبيون والأمريكيون عنهم، وجعلوا منها شخصية «أسطورية» تداعب أحلام الأطفال فى احتفالات أعياد الميلاد.

أما شمس منتصف الليل فلم أرها فى منطقة «اللاب لاند» فى هذه الزيارة، وإنما رأيتها فى عاصمة فنلندا فى هلسنكى بعد ذلك بعشر سنوات، حين زرتها مرة أخرى فى «الصيف» حيث يطول النهار وترتفع الشمس فى السماء خلال شهرى يوليو وأغسطس إلى ما بعد منتصف الليل، وتصبغ الأفق كله بلون أرجوانى غامض يثير الشجن، وقد وقفت يومها أتاملها طويلاً وأعجب لها ومنها.

وكلما تعجبت لشىء تذكرت أننا لم نعرف بعد من هذا الكون الفسيح سوى الكرة الأرضية، التى وصفها عالم فيزياء اسمه «موارى جلمان» فقال إنها «ليست سوى كوكب صغير يدور حول نجم تافه «أى الشمس» فى مجرِّه صغيرة! «أى المجموعة الشمسية» من مجرات هذا الكون الفسيح الذى لا نهاية له، أما باقى الكون الشاسع فلم نعرف عنه إلا أقل القليل.

وكلمة «الصيف» فى فنلندا كلمة «مجازية» إلى حد كبير فهو يبدأ رسمياً فى يونيو، ويبدأ فعلياً فى يوليو وينتهى فى نهاية أغسطس، ولا تزيد درجة الحرارة فى أكثر أيامه حرارة عن ٢٠ درجة، أما بقية شهور السنة، فشتاء طويل شديد البرودة يستمر ٩ شهور، وتنخفض درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر.. وتصل إلى أدنى حد لها فى فبراير من السنة، فتصل إلى ٢٥ أو ٣٠ درجة تحت الصفر فى الجنوب، وإلى ٤٠ درجة تحت الصفر فى المنطقة القطبية.

ورغم قصر فترة الصيف التى لا تزيد عملياً عن حوالى ٦٠ يوما يعتدل فيها الجو نسبياً، وتتراوح الحرارة ما بين ١٧ و ٢٠ درجة، فالفنلنديون يفرحون جداً بمجيئه، ويخرجون إلى الحدائق والمقاهى المفتوحة احتفالاً بانتهاء الشتاء الطويل، وقد حاولت مشاركتهم «فرحتهم» هذه فى زيارتى الثانية لفنلندا، وجلست فى أحد المقاهى المفتوحة على الشارع فى أحد أيام أغسطس «الحارة» عندهم فلم أحتمل البقاء أكثر من نصف ساعة.. وخشيت الإصابة بالأنفلونزا!.

ورغم البرد وضآلة عدد السكان الذين يقلون عنه ٥ ملايين نسمة، فإن فنلندا دولة صناعية متقدمة، وقد وصل اقتصادها خلال ٢٠ أو ٢٥ سنة عقب نهاية الحرب العالمية الثانية إلى مرحلة الازدهار فيما يشبه المعجزة، مع أن الاتحاد السوفيتى المنتصر فى الحرب العالمية قد فرض على فنلندا غرامة حربية قدرها ٣٠٠ مليون دولار كل سنة، تدفع بالبضائع لمدة سبع سنوات ابتداءً من عام ١٩٤٥.

والسبب فى هذه الغرامة.. هو أن السوفيت هاجموا فنلندا فى عام ١٩٣٩، فصمد لهم الفنلنديون ببسالة غير متوقعة بضعة شهور ثم طلبوا الصلح، وقبلوا بشروطه القاسية، وكان منها انتزاع مساحة كبيرة من أرض فنلندا وضمها للاتحاد السوفيتى، ثم أرسل الألمان قواتهم إلى فنلندا وقاتلوا السوفيت على أرضها وقاتل معهم الفنلنديون، وحين انقلبت موازين الحرب ضد الألمان توغل الروس فى أراضى فنلندا لمطاردة القوات الألمانية فى أغسطس ١٩٤٢، ورغم أن الفنلنديين انقلبوا أيضًا على القوات الألمانية التى احتلت بلادهم، ورفضت الجلاء عنها..

فقد اعتبر السوفيت فنلندا من حلفاء الألمان فى الحرب الثانية، وفرضوا عليها هذه الغرامة الباهظة.

لكن رب ضارة نافعة كما يقولون، فلكى تستطيع فنلندا تسديد هذه الغرامة، التزمت بشيئين، حققا لها خلال سنوات قصيرة نتائج باهرة. . الأول هو العمل الصارم الدؤوب الذى لا يعرف الراحة لإنتاج البضائع المطلوبة لسداد الغرامة فى مواعيدها. . والثانى: التزام سياسة الحياد والحفاظ على علاقات ودية مع جارها المخيف «الاتحاد السوفيتى». . أما النتائج الباهرة. . فقد جاءت حين انتهت فنلندا من سداد الغرامة عام ١٩٥٢، فإذا بمصانعها تعمل بأقصى طاقتها، والإنتاج يزيد عن حاجة الاستهلاك والاتحاد السوفيتى نفسه يستورد منها البضائع، فأصبحت فنلندا دولة مصدرة وغزت الأسواق الخارجية.

وخلال زيارتى الثانية لفنلندا قال لى مسئول حكومى ـ وأنا أتناقش معه عن معجزة بلاده الاقتصادية ـ إنه يعتقد أن الغرامة السوفيتية قد خلقت لدى الفنلنديين روح التحدى للوفاء بالالتزامات، ثم جاءت طفرة ارتفاع أسعار البترول فى السبعينيات فخلقت طلبًا كبيرًا على الصادرات الفنلندية، فضلاً عن أن بلاده ولحسن الحظ قد تمتعت دائمًا بحكومات رشيدة، انتهجت سياسة الحياد السلمى بين الشرق والغرب، وكرست طاقات بلادها للإنتاج والتصدير، وساعدتها اتحادات العمال الفنلندية على ذلك بتجاوبها مع الحكومات فى دفع عجلة الإنتاج وعدم عرقلته بافتعال الأزمات العمالية والإضرابات.

وكل ما قاله هذا المسئول صحيح. . فالشعب الفنلندى شعب دؤوب على العمل وخلاق وقادر على الابتكار، وقد دخلت فنلندا «التاريخ» خلال فترة اشتداد الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتى وأمريكا والغرب فى الخمسينيات وأوائل الستينيات بنكتة سياسية، كانت تقول إن رئيس جمهورية فنلندا العجوز أورهو كوركينين هو رئيس الدولة المجاورة للاتحاد السوفيتى، الوحيد الذى يستطيع أن يقول للزعيم السوفيتى بولجانين بكل قوة: لا! والدليل على ذلك أن

بوجانين كان يرفع سماعة التليفون ويتحدث إليه طالبًا عدة مطالب يستجيب لها على الفور كوركينين.. ثم يسأله: هل تعبت من قول نعم؟ فيجيبه «بجرأة»: لا!.

ومع ما فى هذه النكتة من تعريض بالشخصية الفنلندية، إلا أن الفنلنديين فى واقع الأمر شعب شجاع ومكافح، وقد قاتلوا السوفيت ببسالة فى الحرب الروسية الفنلندية، وقاتلوا القوات الألمانية التى احتلت بلادهم أيضًا بشجاعة. ولكنهم شعب صغير العدد فى النهاية، وقد فرضت عليه عوامل الجغرافيا أن يربض على حدودهم الدب الروسى وهو فى عنفوان قوته وسطوته، فلم يكن أمامهم مفر من اعتماد سياسة تجنب المتاعب مع الجار اللدود.

وبسبب هذه العلاقة التى فرضتها الظروف على فنلندا، توهم كثيرون أنها من دول الكتلة الشرقية فى حين أنها دولة رأسمالية ديمقراطية، ولم تكن دولة شيوعية فى يوم من الأيام.

وحين زرتها أول مرة فى عام ١٩٧٨ والاتحاد السوفيتى مازال قائمًا، كان هم كل من قابلناهم من المسئولين الفنلنديين أن يؤكدوا لنا فى كل لقاء أو حوار أن بلادهم دولة رأسمالية تعتمد سياسة الاقتصاد الحر، على عكس الشائع عنها فى العالم الخارجى!.

والحياة السياسية على أى حالة فى فنلندا هادئة لأقصى حد، وانصراف الجميع فيها إلى العمل والإنتاج حقيقة يلمسها الزائر بسهولة، ومتاعب فنلندا بصفة عامة تعد من قبيل الترف بالنسبة لدول عديدة أخرى، ومتوسط الأجور هناك يتراوح بين ١٥٠٠ و ١٧٠٠ دولار فى الشهر.

والفنلنديون الذين يقلّون عن ٥ ملايين نسمة، وفشلت كل جهود الحكومة لحثهم على زيادة النسل، يملكون أكثر من مليون سيارة بواقع سيارة لكل خمسة أشخاص، ويخرج منهم مليون شخص كل سنة فى رحلات سياحية إلى خارج

بلادهم، ويملك معظمهم منازل مستقلة، وشراء البيت المناسب المزود بحمام ساونا فنلندى تقليدى فى فنائه أهم لدى الأسرة الفنلندية من إنجاب الأطفال.. ولهذا يؤخرون الإنجاب حتى تكتمل للأسرة مقوماتها، وهى بيت صغير مستقل وسيارة حديثة.. «وكوخ صيفى» فى منطقة الغابات لقضاء الإجازات فى أحضان الطبيعة، ثم قد يبدأون بعد ذلك فى إنجاب طفل أو اثنين على الأكثر.

وهم يقولون عن أنفسهم إنهم دولة «بترولية»، وإن بترولها هو الغابات الخضراء الكثيفة التى تغطى ٦٧٪ من مساحتها ويقطعونها ويصنعون منها الورق، ويصدرونه إلى كل أنحاء العالم، وهم يفخرون أنهم من أوائل من اخترعوا وصنعوا بوابات الحراسة الإليكترونية التى تكشف عن الأسلحة، وتستخدم الآن فى كل مطارات العالم وكذلك التليفون المرئى، وكاسحات الجليد التى يصدرون للعالم حوالى ٧٠٪ من احتياجاته منها، وأشياء أخرى كثيرة، إلى جانب تفوقهم فى صناعة الإنشاءات وبناء المساكن الجاهزة بطريقة تسليم المفتاح وهى من مبتكراتهم أيضًا، وصناعة المستحضرات الطبية التى حققوا فيها تفوقًا كبيرًا فى السنوات الأخيرة، ومن عجب أن هذا الشعب الصغير قد نجح أيضًا فى أن يخرج باقتصاده للعالمية، فأصبح له خلال ثلاثة عقود فقط ما لا يقل عن ١٧٠٠ شركة عالمية عملاقة، تعمل خارج حدود فنلندا من أمريكا إلى الصين واليابان!.

ولأنهم من أهل الابتكار.. فقد ابتكروا أيضًا حمامات الساونا الفنلندية التقليدية لمقاومة برد بلادهم وتجديد نشاطهم. فأصبحت من لوازم حياتهم لأنها المكان الوحيد فى فنلندا كلها، التى يمكن أن «يعرق» فيه المواطن الفنلندى! حيث لا تسمح برودة الجو معظم شهور السنة له بالعرق وإفراز سموم الجسم إلا فى هذه الحمامات!.

وفى زيارتى الأولى لفنلندا، تعرفت على حمامات الساونا أول مرة فى حياتى؛ إذ كانت فقرة أساسية فى البرنامج «الرسمى» للزيارة!.

وقد صحبنا المرافق إلى حمام فنلندى تقليدى، فوجدنا سيدات فنلنديات عجائز يرتدين زيا موحدًا فوقه معاطف من البلاسيتك، رحبن بنا ببشاشة وسلمن لكل منا مجموعات من المناشف «ومايوه» جديدًا لم يستعمل من قبل، ثم أشرن إلى باب مغلق فاتجهنا إليه واسترحت إلى أنهن لم يتبعنا للداخل، وأن مهمتهن تقتصر على الاستقبال وتسليم المناشف، ثم اتجه كل منا إلى «كابينة» صغيرة فخلع ملابسه وارتدى المايوه ولف الفوطة حول وسطه، وخرجنا ننتظر تعليمات المرافق، فقادنا إلى الغرفة الساخنة ودخلتها، فوجدتها غرفة خشبية صغيرة عالية الحرارة كالفرن وليس بها سوى مدرج خشبى من ثلاث درجات على شكل مدرجات ملاعب كرة القدم، وبرميل كبير ملئ بالحجارة الساخنة الملتهبة التي تشع سخونة شديدة فى جو الغرفة وتستمد طاقاتها من مصدر حرارى فى قاع البرميل، ثم جردل ماء وبجواره «مغرفة» كبيرة لم أفهم سر وجودهما فى هذه الغرفة، جلست حسب التعليمات على الدرجة الأولى من المدرج، فلم تلبث حرارة جو الغرفة أن سرت فى جسمى، وأشعرتنى بشىء من الخدر اللذيذ، وبعد ثلاث دقائق طلب منا المرافق أن نرتقى الدرجة الثانية ففعلنا فإذا بالعرق يتصبب من أجسامنا بشدة وتنفسنا يصبح أكثر صعوبة؛ لأن الهواء الساخن أخف من الهواء البارد فيتجه إلى أعلى، وقد أرتقينا درجة أعلى من المدرج فازداد إحساسنا بحرارة الجو، وبعد ٥ دقائق أخرى طلب منا المرافق أن نرتقى الدرجة الأخيرة، فما أن فعلت حتى شعرت بلسع الهواء اللاهب وانهمر العرق بغزارة شديدة من جسمى وازداد تنفسى صعوبة، والمرافق يشجعنا على الاحتمال لأطول وقت ممكن؛ لكى يفرز الجسم كل سمومه وتتفتح مسام الجلد إلى أقصى مدى لها.

ثم داعبنا مداعبة غير مفهومة، فقال لنا إنه سيخرج للحظات، وقبل أن يخرج ملأ المغرفة الكبيرة من جردل الماء ثم صبَّه فوق أحجار البرميل وهو يقول باسمًا: إلى اللقاء بعد ثوان! ثم خرج مسرعًا فلم نفهم ما يقصده.. لكننا شعرنا فجأة

بنيران السعير تلهب جلودنا وتخنق أنفاسنا فهرولنا خارج الغرفة الساخنة، ووجدناه يقف فى انتظارنا ضاحكًا وعرفنا أخيرًا سر هذه «المداعبة»، وهو أن إلقاء الماء على هذه الحجارة الساخنة يحوله إلى بخار فى لحظات؛ فيضاعف من درجة حرارة المكان إلى حد لا يحتمل لهذا، فقد قال إنه «سيرانا» بعد ثوان، فارين من هذا الجحيم وقد حدث!.

وقادنا بعد ذلك إلى كبائن متجاورة بها أدشاش للماء البارد، وطلب من كل منا أن يفتح الماء المثلج بسبب برودة الجو فوق جسمه!.

يا إلهى.. ماء مثلج ونحن خارجون نتصبب عرقًا من حمام السعير هذا؟ وماذا عن البرد.. والأنفلونزا والالتهاب الرئوى!.

هذا هو سر الساونا الذى عرفته فى ذلك الحين، فالماء البارد ضرورى لكى تنكمش مسام خلايا الجلد مرة أخرى وترجع إلى وضعها الطبيعى، والحمام المثلج بعد هذا الجحيم الساخن لا يمكن أن يصيب أحدًا بالبرد؛ لأن الجسم فى قمة حيويته وجهازه المناعى فى أحسن حالاته، بعد أن تخلص من كثير من سمومه، فأطعنا التعليمات متوجسين، واكتشفنا أننا قد تحملنا الماء المثلج بعد الحمام الساخن بغير عناء كبير، لكنى لمحت أثناء وقوفى تحت الدش من ثغرة صغيرة فى الستار سيدات الحمام العجائز يحملن جرادل كبيرة ويتحركن فى المكان وتساءلت: ماذا يفعلن وسط رجال يستحمون؟ ودققت النظر من الثغرة فوجدتهن ينتظرن كل خارج من تحت الدش ويطلبن منه الاستلقاء فوق مائدة عالية.. ثم يقمن بغسل جسمه بالصابون والسفنجة، ويلقين عليه جردل مياه نظيفة ويقدمن إليه منشفة جديدة!.

إذًا فهذا هو دورهن الحقيقى فى هذا الحمام! وفكرت ماذا أفعل لأعفى نفسى من خدماتهن الجليلة، وانتهى الأمر بأن ظللت حبيس الحمام حتى اطمأننت إلى خلو الطريق وانشغال سيدات الساونا بعدد من أعضاء الوفد، وتسللت بحذر إلى

حجرة خلع الملابس وارتديت ملابسى، ورجعت إلى غرفة الاستقبال وجلست مع بقية الأعضاء أمام المدفأة، أحتسى الشاى الساخن اللذيذ وأتبادل معهم الأحاديث الاجتماعية الخفيفة وأشعر بسلام نفسى عجيب، أما حين رجع بقية الأعضاء من عملية الغسيل، وهم يتكتمون الضحك فقد ضحكت معهم من القلب على حرجهم، حين بدأت كل سيدة من سيدات الغسيل «عملها» الجليل بأن طلبت من كل منهم خلع المايوه لكى تؤدى عملها على خير وجه! وكيف رفضوا وأحرجوا.. إلخ، ثم سألنى أحدهم، وأنت ماذا فعلت؟ فأجبته ضاحكًا:

ـ نجوت ببركة دعاء الوالدين.. وبركة الحذر والنظر من ثقب الستار قبل الخروج والحمد الله!.

* * *

١٤

ليالى «التلج».. فى ڤيينا!

سامح الله الأدباء والمفكرين والفنانين الذين أحببناهم.. فشحططونا وراءهم فى الحوارى والشوارع!.

فمنذ أحببت القراءة وأحببت عددا كبيرا من الكتاب والأدباء والفنانين، اكتسبت هواية غريبة هى أن أحاول أن أرى الأماكن التى كتبوا عنها.. والبيوت التى عاشوا فيها.. والمقاهى التى جلسوا فيها، وأصبحت للأماكن والأشياء قيم عندى لا علاقة لها بقيمتها الحقيقية، فالمقهى القديم الذى قد تأنف من فكرة الجلوس فيه بالقرب من دار الكتب المصرية.. أطوف به أنا كالعابد لأن شاعر النيل حافظ إبراهيم كان يجلس فيه فى عشرينيات القرن، وهو وكيل لدار الكتب يدخن الشيشة ويطلق النكات.

والحارة المتربة التى قد تتأفف من عبورها أتجول أنا فيها هائمًا.. لأنها الحارة التى اختارها نجيب محفوظ مسرحًا لأحداث قصصه الرائعة بين القصرين أو السكرية أو قصر الشوق.

أما السعى وراء بيوت هؤلاء الأدباء.. وإنفاق الساعات الطويلة فى البحث عن الربع الذى أقام فيه طه حسين، وهو يطلب العلم فى الأزهر.. أو البيت الذى أمضى فيه العقاد سنواته الأخيرة.. أو «الكرمة» التى عاش فيها أمير الشعراء أحمد شوقى.. إلخ.. فحدث عنه ولا حرج، فلقد استنفد من أيامى الكثير ومازال يستنفد ما بقى منها، وحين سافرت إلى أوروبا لأول مرة ورست الباخرة

فى ميناء بيريه اليونانى هبطت إلى الميناء متهيبًا. . وركبت الأتوبيس إلى أثينا وأنا مبهور الأنفاس. . ونزلت إلى شوارعها فى حرص وأدب يليقان بأرض الفلاسفة الذين قرأت عنهم وأحببتهم. .

وحين سافرت إلى باريس لأول مرة، كان أول ما بحثت عنه هو المقهى الذى كان يعقد فيه الأديب والفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر جلسته الأسبوعية. . وإلى جواره سيمون دى بوفوار وتلاميذه الكثيرون، ودفعت ثمن هذه الهواية الغريبة غاليًا ذات يوم، فقد بشرنى صديق مصرى مقيم فى باريس تليفونيًّا بأنه عثر لى على كنز يعرف أنى سأسعد به. . هو فندق صغير فى الحى اللاتينى، يعلق لافتة تقول إن الفنان العالمى بيكاسو أقام فى هذا الفندق ذات يوم. . فأسرعت أرجوه أن يحجز لى غرفة فيه، وأن يدفع عنى إيجارها مقدما قبل أن تضيع الفرصة ثم تركت فندقى النظيف الرخيص، وحملت حقيبتى وأسرعت بالتاكسى إليه فوجدته يقف مزهوًا باكتشافه إلى جوار الفندق ودخلته معه وقرأت اللافتة وأنا فى قمة النشوة. . وأخذت مفتاح الغرفة فى الدور الرابع وصدمتنى رائحة تقلية صادرة من مطبخ الفندق أفسدت على بعض خيالى. . لكنى لم أستسلم. . وشكرت صديقى بحرارة وسددت دينى المادى له. . أما دينى «الأدبى» فهيهات أن أستطيع سداده، ثم ودعته وبحثت عن المصعد، فلم أجد بالفندق مصعدًا واضطررت لحمل الحقيبة على السلم الضيق أربعة أدوار.

وصدمت مرة أخرى برثاثة الغرفة وضيقها وانخفاض سقفها والقذارة المنتشرة فى كل مكان من الفندق. . وتعجبت لذلك وكل فنادق باريس نظيفة كالجوهرة، لكنى لم أفكر فى التراجع فكله يهون فى سبيل بيكاسو وهذه الهواية اللعينة!.

وفى لندن ضاق بى سائق التاكسى، وأنا أطلب منه الانتقال من شارع إلى شارع ومن حارة ضيقة إلى أخرى؛ لكى أرى الحى الذى جرت فيه أحداث قصة ديكنز الشهيرة «أوليفر تويست» وأتخيل الصبى المحروم الذى لاطمته الدنيا ولاطمها فسألنى بحدة. . إلى أين يريد أن تذهب يا سيد. . أريد عنوانًا محددًا

أنزلك فيه وأنصرف.. فخشيت أن يتركنى وحيداً فى الحى البعيد.. وأسرعت أطلب العودة وعدت!.

وحين زرت فيينا لأول مرة.. لم يكن فى خيالى عنها سوى أسماء أعلامها البارزين كالأديب ستيفان زفايج وعالم النفس سيجموند فرويد والسياسى الشهير ميترنيخ.. وأعلام الموسيقى الذين أهدتهم للبشرية موزار وليهار وشتراوس وفتجنشتين وغيرهم.. ثم صدى لأغنية قديمة شهيرة لأسمهان تقول فيها «ليالى الأنس فى فيينا ـ نسيمها من هوا الجنة».. فخرجت من مطارها أبحث عن هواء الجنة.. وتجولت فى شوارعها بحثًا عن آثار الإمبراطورية القديمة التى عرفت باسم إمبراطورية النمسا والمجر..!.

وفى قصر الشنبرون الذى بقى مع غيره من القصور من آثار العز القديم، انبهرت بالذوق الإمبراطورى الرفيع.. وأمام أوبرا فيينا الشهيرة وقفت كالمتبتل.. وأنا أتذكر عبارة شهيرة تقول أنه ليس فى النمسا طوابير أمام أى سلعة أو خدمات سوى طابور الواقفين أمام شباك تذاكر الأوبرا.. وسألت عن ليالى الأنس الشهيرة، فأجابنى صديقى المقيم فى النمسا بأن فى إحدى ضواحى فيينا حيًّا كاملاً اسمه جرنسنج، ليس فيه سوى مطاعم تقليدية قديمة، عمرها أكثر من مائتى سنة، وترتدى فيها الجارسونات الملابس النمساوية الشعبية القديمة الزاهية الألوان، ويؤمها السياح من كل أنحاء العالم فى مجموعات كبيرة فيأكلون ويشربون ويغنون.. ومن هذا الحى جاءت شهرة ليالى فيينا، فقلت له وأنا أتحرك وماذا تنتظر؟.

وفى مطاعم جرنسنج رأيت سياح العالم كله.. يأكلون البط بالبرتقال ويغنون ويمرحون.. وفى أحد هذه المطاعم التى تدار بالكمبيوتر لكثرة عدد روادها، سألتنى الجارسونة المرهقة متعجلة: أبيض أم أحمر؟.

وفهمت بصعوبة أنها تسألنى هل تريد النبيذ أحمر أم أبيض؛ لأنها تفترض أن الجميع يشربون النبيذ مع الطعام.. فضحكت وقلت: بل أسود.. فقطبت

حاجبيها ولم تفهم فقلت أى زجاجة كوكاكولا مع الطعام.. فانطفأ حماسها وتلقت طلب الطعام، وهى مكتئبة وأكلت البط بالبرتقال وأنا مبتهج!.

وقلت لنفسى وأنا أغادر النمسا يومها ـ إنها فعلا ليالى الأنس.. فهى جميلة ونظيفة.. وغنية.. وسكانها السبعة الملايين ونصف المليون صنعوا معجزة فى سنوات قليلة، فلقد ضمها هتلر إلى بلاده بلا مقاومة سنة ١٩٣٨ ثم احتلتها أمريكا وروسيا وبريطانيا وفرنسا بعد هزيمة ألمانيا سنة ١٩٤٥ عشر سنوات، ثم استقلت سنة ١٩٥٥، واعتمدت سياسة الحياد من يومها.. وتمكنت خلال السنوات التالية من إعادة بناء اقتصادها فأصبحت دولة صناعية نشطة.

وحين زرت النمسا مرة أخرى.. حلمت من جديد ببهجة ليالى الأنس، التى داعبت خيالى من قبل فأكتشفت أن الزيارة الأولى كانت فى الصيف.. والسماء مضيئة والشوارع مزدحمة والجو صحو.. وأن زيارتى هذه فى ديسمبر والسماء تحجبها الغيوم والبرد قارس والشوارع خالية.. والثلج يعرقل الحركة ويعتقل الناس فى المكاتب والبيوت، ودرجة الحرارة تداعب الصفر هبوطا وصعودا كل يوم.. وليس فى الشوارع سوى منظر يوجع القلب، وهو منظر الشباب المصريين الذين يبيعون الصحف ويرتدون الجاكيت الأصفر المميز لكل صحيفة، ومعظمهم من حملة المؤهلات المتوسطة.. وبعضهم استراح إلى حياته هكذا فأمضى ١٥ عاما فى المهنة، ومازال يرغب فيها بلا طموح ولا تخطيط للمستقبل، فإن كان ثمة ما يعوض هذا المشهد الكئيب، فهو وجود العناصر الناجحة فى الجالية المصرية الذين حققوا نجاحًا مشرفًا لبلادهم.. وهو أيضًا أن مصر هى البلد الوحيد من دول العالم الثالث التى يشغل اثنان من أبنائها منصب مدير إدارة فى وكالة الطاقة النووية بفيينا.

ولأن البرد قارس فلقد أمضيت أيامى بفيينا فى لقاءات عمل مكثفة فى النهار من مكتب إلى مكتب ومن مبنى إلى مبنى.. والحلق جاف.. والبرد يجمد الأطراف.. والأذنان أعلنتا الاستقلال عن بقية الجسم فلم تعد تربطهما به

صلة.. وفى الليل أحتجب فى الفندق بلا رغبة فى الخروج.. أما هوايتى إياها فلم أستطع إشباعها فى هذه الرحلة، وفشلت محاولاتى المتكررة فى مدينة سالزبورج لزيارة بيت موزار عبقرى الموسيقى الذى ألف أوبرات «زواج فيجارو» و«دون جوان» و«الناى السحرى» وآلاف القطع الموسيقية الصغيرة.. ولم يعش رغم ذلك سوى ٣٥ سنة من ١٧٥٦ إلى ١٧٩١، وقضى معظمها فى حياة جافة متقشفة ومثقلا بالديون رغم كل هذا الإنتاج الضخم، وقد فشلت فى العثور على بيته الذى حولوه إلى متحف، على الرغم من أن سائق التاكسى قد أشار إليه، وهو منطلق بنا فى إحدى الزيارات، وقد عدت فى اليوم التالى إلى نفس المنطقة أبحث عن بيت موزار فإذ به سراب أراه من بعيد.. فأتوجه إليه فوق الجليد الذى يغطى الشارع، ويهددنى بالسقوط فى كل لحظة، فإذا طرقت بابه اكتشفت أنه ليس بيت موزار لكنه معهد موسيقى يحمل اسمه أو قاعة لسماع الموسيقى باسمه.. أو مكتبة موسيقية.. وهكذا.. حتى يئست وعدت.. واكتشفت أن مبانٍ كثيرة تحمل اسم الموسيقار العبقرى، حتى أن بعض أنواع الشيكولاته تحمل اسمه وصورته.. أما بيته الحقيقى فلم أهتد إليه إلا بعد منتصف الليل والبيت مغلق، وعلى أن أغادر سالزبورج فى الصباح الباكر، فعدت إلى فيينا محبطًا لأنى لم أزر بيته، ولم أعثر على ليالى الأنس الشهيرة.. التى تحصل على إجازة فى الشتاء الفارس.. وقبل أن أغادر فيينا سألنى صديقى مصطفى، ونحن نغادر أحد المكاتب بعد لقاء عمل: أأعجبتك النمسا؟ فقلت بلا تردد: ممتعة صيفًا.. جميلة بلا بهجة ولا روح شتاء.. لكن هناك شيئًا يحيرنى.. وست فسألنى عنه ففكرت طويلاً، ثم قلت له مستحيًا: هل كلمة «قهوة» كلمة عيب فى النمسا؟.

وأجاب مندهشًا: أبدًا.. لماذا؟.

فزفرت وأنا أقاوم البرد والصداع وقلت له:

- إذن لماذا لم يشر إليها أحد فى كل المكاتب التى دخلناها! ثم ركبت الطائرة عائدا إلى دفء القاهرة!.

١٥

أمريكا من الباب الخلفى

دخلت أمريكا من الباب الخلفى المظلم. . وغادررتها من الباب الأمامى المضئ، عكست الآية عن غير قصد، فكان لتجربتى العفوية أثر كبير فى تشكيل فكرة صحيحة أو مقاربة للحقيقة عن الحياة فى أمريكا. . فالسياح تحملهم الطائرات عبر الأطلنطى إلى مطارات نيويورك ولوس أنجيلوس وسان فرانسيسكو وغيرها، ويغادرون المطار فيجدون أنفسهم فجأة وسط ناطحات السحاب العالية وأضواء إعلانات النيون العملاقة وكتل المبانى الحديدية الضخمة. . والشوارع اللامعة الواسعة، فينبهرون بالقوة والضخامة. . والعملاقية فى كل شيء.

أما أنا فقد شاءت لى أقدارى أن أدخل أمريكا من مطار «نيورك» الصغير بولاية جيرسى، التى لا تبعد كثيراً عن نيويورك، فشتان ما كان بين الصورة التى رأيتها مخيبة للتوقعات فى كل شيء عند مغادرتى للمطار، وبين الصورة الخلابة البراقة الى يراها السياح الذين يدخلون أمريكا من أبوابها المضيئة!.

فلقد ركبت الطائرة الفرنسية من العاصمة الفرنسية فى الصباح مع صديقى المقيم بباريس محمود، وتأهبت للرحلة الطويلة التى سنظل معلقين خلالها بين السماء والأرض لمدة ثمانى ساعات كاملة، فتناولت إفطارى وابتلعت قرصا منوما على أمل أن أحظى بساعتين من النوم، أعوض بهما قلة نومى فى الليلة السابقة وأستعد بهما «للنهار الطويل» الذى ينتظرنى على الشاطئ الآخر من المحيط. . فالطائرات ستهبط فى مطار «نيورك» الذى لم أسمع باسمه من قبل، واحتجت لبعض الوقت لكى أنطقه نطقًا صحيحًا يفرق بينه وبين كلمة نيويورك، فى الساعة

الرابعة مساء بتوقيت ساعتى، لكننا سنجد الساعة حين نصل إلى هناك العاشرة صباحًا بتوقيت هذه الدنيا الجديدة؛ لأن رحلة الطائرة عبر الأطلنطى ستضيف إلى النهار ٦ ساعات جديدة، هى فارق التوقيت بين البلدين، وسنجد أنفسنا فى بداية اليوم بدلاً من مغيبه، ولابد أن نظل مستيقظين لكى نتكيف مع الحياة فى هذا العالم الغريب، ولابد إذن من النوم ساعتين على الأقل، ثم أصحو لأواصل قراءة الكتب التى حملتها معى عن أمريكا قبل أن ألتقى بها.

غبت عن الوعى ومضى بعض الوقت، ثم تنبهت على «خبطة» خفيفة فى كتفى، فتحت عينى منزعجًا فوجدت بجوارى راكبًا فرنسيًّا فى السبعين من العمر يعتذر لى بأنه قد أصطدم بكتفى عفوا خلال سيره فى ممر الطائرة، عدت لمحاولة النوم فما أن استسلمت له مرة أخرى حتى تنبهت من جديد على «حركة» نفس الراكب الفرنسى بجوارى، ولاحظت مندهشًا أنه يقطع الممر الذى يطل على مقعدى ذهابًا وإيابًا فى حيوية ونشاط طوال الوقت، يئست من محاولة النوم مرة أخرى فطلبت فنجانًا من القهوة وأخرجت من حقيبتى كتابا عن تاريخ الولايات المتحدة للمؤرخين الأمريكيين آلان نيفينز، وهنرى ستيل كوماجر، واستغرقت فى قراءته، كعادتى فى رحلاتى إلى الدول التى أزورها للمرة الأولى، فإنى أحمل معى دائمًا كتابا أو كتابين عن تاريخها، لأزورها وفى مخيلتى خلفية تاريخية كافية عنها، لم تكن رحلتى هذه هى الأولى لأمريكا فلقد دعيت للسفر إليها عام ١٩٨٣ من إحدى الشركات الأمريكية العملاقة لزيارة مصانعها، مع وفد محدود من صحفيى الشرق الأوسط، لكن الزيارة كانت قصيرة وامضينا أيامها تنتقل من مدينة إلى مدينة لزيارة المصانع المتناثرة على الخريطة الشاسعة، فلم أر من أمريكا وقتها إلا وجهها الصناعى وفنادقها الفاخرة التى دعينا للإقامة بها.

أما البشر.. والشوارع.. والناس وحركة الحياة فلم أكد أر منها شيئًا، إذ ما كدت أستعد فى مساء يومى الأول لمغادرة الفندق فى نيويورك لأتجول على أقدامى فى الشوارع وأرى الناس وأتحدث معهم، حتى لحق بى المرافق الأمريكى الشاب

منزعجًا وهو يسألني: إلى أين أنت ذاهب؟ ثم رجاني ألا أغادر الفندق وحدى فى الليل وألا أنتقل من مكان إلى مكان إلا إذا دعوت سيارة أجرة وركبتها من الباب للباب، حتى لا أعرض نفسى للخطر، ولم أكن أعرف لى وجهة محددة وقتها فرجعت للفندق وأمضيت ليلتى فيه، وفى الصباح الباكر كانت الطائرة تحملنا إلى مدينة أخرى، وهكذا ألحت على فكرة زيارة أمريكا زيارة طويلة نسبيًا. . ومحاولة التعرف على شكل الحياة الحقيقى فيها، بعيدا عن مؤثرات السينما والمسلسلات الأمريكية، وبعيدًا أيضًا عن قيود الدعوات الرسمية.

الراكب الفرنسى مازال يتجول ذهابا وإيابًا فى ممر الطائرة، فيحتك بكتفى عن غير قصد كل مرة، وأنا أحاول التركيز فى قراءة الكتاب مائلا بجسمى إلى الداخل قليلاً كلما عبر بى!.

قصة أمريكا مع الوجود قصة غريبة لم تتكرر فى التاريخ، فلقد اكتشفها «كريستوفر كولمبس» بطريق الخطأ فى أواخر القرن الخامس عشر وهو يستكشف طريقًا بحريًا جديدًا يتجه منه إلى غرب الأطلنطى، فيصل به إلى الهند فى شرق الكرة الأرضية.

ورجع من رحلته معتقدًا أنه وصل إلى شبه القارة الهندية، ومعه اثنان من سكان هذه الأرض بالنقوش العجيبة التى تعلو وجهيهما فعمدهما مسيحيين وأطلق عليهما لقب «الهنديين» لأنهما من سكان الهند كما كان يعتقد، فكان هذا هو سر تسمية سكان تلك الأرض الجديدة بالهنود الحمر لميل بشرتهم للاحمرار، ومات كولمبس وهو لا يعرف أنه اكتشف أغنى قارة فى الكون بثروتها الزراعية والمعدنية وبعقول العالم التى اجتذبتها إليها فيما بعد، فاختلطت وانصهرت فى «البوتقة الأمريكية» الشهيرة وصنعت شعبًا جديدًا اسمه الشعب الأمريكى، فعلى إثر كولمبس تبعه الرحالة الإنجليزى جون كابوت، والرحالة الفرنسى جاك كارتييه، ثم بادرت إسبانيا وفرنسا بإقامة «مراكز» صغيرة لها فى هذه القارة البكر، وتبعتها هولندا والبرتغال والسويد ثم أخيرًا جاء الاستيطان الإنجليزى، حين أقام

البريطانيون أول مستوطنة لهم على الساحل الشرقى الأمريكى، وأسموها «جيمس تاون».. توالت بعدها المستعمرات الإنجليزية، وتم إلحاقها بالتاج البريطانى، ومضت المستعمرات الجديدة تتوسع فى اتجاه الغرب والشمال والجنوب على حساب سكان البلاد الأصليين، الذين شاء لهم قدرهم ألا يقووا على مواجهة هذا الزحف الأوروبى الكاسح لبلادهم، إذ لم يكن عددهم فى القارة الأمريكية كلها يزيد عن نصف مليون نسمة، ولم يكن سلاحهم يزيد عن القوس والسهم وفأس الحرب، ولم يكونوا يعرفون من فنون الحرب سوى فن الكمين، فتوالت هزائمهم أمام القوات المنظمة المسلحة بالبنادق والمدفعية، واندحر هذا الشعب العظيم الذى كان يتسم بالشجاعة والفروسية أمام زحف الأوروبيين الباحثين عن حياة جديدة لهم، بعيدًا عن التعصب الدينى فى بلادهم، أو هربا من الفقر وقسوة الحياة فى مجتمعاتهم.

تنبهت من استغراقى فى القراءة على «خبطة» جديدة من جسم الراكب الفرنسى المتحرك، وتعجبت كيف لم «يهمد» ولم يجلس فى مقعده لحظة منذ خمس ساعات، ضقت بحركته المتواصلة وتوقعى لاحتكاكه بى كل لحظة فرجوت صديقى أن يناشده الجلوس فى مقعده بعض الوقت، وتحدث إليه صديقى بالفعل فاعتذر له بأنه يحتاج إلى المشى لتنشيط دورته الدموية، ووعد بالابتعاد عنا خلال ممارسته لرياضته المفضلة!.

يا إلهى خمس ساعات من الحركة المتصلة ولم تنشط بعد الدورة الدموية لديه؟ إننى ألهث إذا مشيت نصف ساعة وأبحث عن أقرب مقعد لأرتمى عليه، فلابد إذن أن هذا الراكب مصاب بالفصام الحركى الذى يدفع صاحبه للحركة باستمرار، فلا يكف عن التجوال ولا يطيق البقاء فى مكان واحد أكثر من لحظات، أو لابد أنه إنسان فائق الحيوية والنشاط رغم سنواته السبعين.. فيا ألف خسارة عن العمر الذى تبدد فى الانحناء على المكاتب حتى تخشبت العضلات، ولم تعد تجدى معها إية محاولة لتجديد النشاط أو الحيوية.

عدت للقراءة سعيدًا بوعد الراكب لنا بالابتعاد عنا، وتساءلت كيف صنعت هذه «البوتقة الأمريكية» خلال أقل من قرنين فقط منذ تاريخ قيام الدولة الجديدة فى ١٧٨٣، أكبر قوة عظمى عرفها العالم وأقوى وأغنى دولة فى تاريخ البشرية؟.

إن قصة أمريكا كما يقول المؤرخان الأمريكيان هى باختصار «قصة غرس حضارة أوربية قديمة فى بيئة برية موحشة، لكن اختلاط الشعوب فى هذه الأرض الجديدة غير الكثير من مظاهر هذه الحضارة وغير من نظمها المألوفة فأصبحت أعظم تجربة عرفها التاريخ فى انصهار الشعوب والأجناس وأيضًا فى التسامح الدينى، الذى كان ضرورة لا مفر منها لامتزاج هذه الأعراق مختلفة الديانات والمذاهب».

فلقد انبهر المستعمرون الأوائل بما رأوه لأول مرة فى هذه الأرض الجديدة من «مروج يانعة.. وأشجار باسقة ومياه عذبة» وذهلوا لخيراتها الوفيرة ولثرواتها المعدنية التى لا أول لها ولا آخر، وأرضها الخصيبة الصالحة لزراعة كل شىء، وتبين لهم أن هذه الأرض تنتج أيضًا نوعين جديدين من الغذاء لم يعرفوهما من قبل هما الذرة والبطاطس، وتعجبوا حين رأوا كل شىء فى القارة الجديدة وفيرا وغزيرًا وبلا حساب.. فالأنهار بالمئات.. والبحيرات كذلك والجبال والوديان والسهول.. أما المناخ فهو مناسب للزراعة.. وعلى كل شكل ولون فهناك المناطق الباردة حتى التجمد فى الشتاء، وهناك المناطق الحارة التى لا تطيق فيها ملابسك وهناك المناطق المعتدلة، أما الأرض نفسها فلا بداية لها ولا نهاية.. فقد احتاج الأمر إلى حوالى قرنين منذ بدء استيطان أمريكا فى بداية القرن السابع عشر، لكى يصل المستوطنون إلى كل بقاع أمريكا الشاسعة فى الغرب.. فأمريكا هى الدولة الوحيدة الآن فى العالم، التى لا تستطيع زيارتها كلها فى أقل من شهر أو شهرين، والتى تركب الطائرة فيها من أول مدينة فيها فى الشمال الشرقى.. لمدة ست ساعات كاملة لكى تصل إلى إحدى مدنها فى الجنوب الغربى، أو

تركب الطائرة من شمالها إلى جنوبها لمدة ٤ أو ٥ ساعات، والتى يعتمد سكانها اعتمادا أساسيًّا على الطيران فى الرحلات الداخلية، فالطائرات تصطف فى مطاراتها الداخلية بالعشرات كأنها سيارات أجرة تستعد للإقلاع كل دقائق، وفى أمريكا من المطارات الداخلية أكثر مما فى قارة أفريقيا كلها وربما آسيا أيضا من مطارات دولية وداخلية حتى أحدث ولاياتها هاواى، تحتاج لأن تطير فى الجو ٥ آلاف ميل من السواحل الأمريكية لكى تصل إليها.

وحتى من صنف الإنسان، أصبح فى أمريكا بعد أقل من قرنين من بدء استيطانها، الأبيض والأسود والأصفر والملون، ومن الديانات آلف دين وألف مذهب دينى ومذهب، فما سر هذه الدولة العجيبة التى قامت الحرب العالمية الثانية، وهى تنتج وحدها ٥٤٪ من الإنتاج الصناعى للعالم بأسره؟

استغرقت فى القراءة محاولا اكتشاف هذا السر، فإذا بى أتنبه من استغراقى على صوت «فرملة» حذاء الراكب الفرنسى العجيب.. فلقد استجاب لرجائنا بالابتعاد عن مجلسى خلال مشواره الدائم، لكنه نسى وعده للأسف ورجع إلينا فما أن رآنا حتى «فرمل» فجأة ورجع معتذرًا: باردون.. لقد نسيت!.

فضحكنا.. وتكرر ذلك مع كل مرة رجع إلينا فيها بعد ذلك ناسيًا وعده، وشتت تركيزى بتراجعه المفاجئ وتقهقره أكثر مما كان يفعل من قبل، وسلمنا أمرنا فيه إلى خالقنا مع اقتراب الطائرة من مطار الهبوط، بعد ثمانى ساعات طويلة من التجوال حولنا.

ووصلت الطائرة أخيرًا إلى مطار «نيورك» الصغير نسبيًّا، ووقفت أمام رجل الجوازات الأمريكى، فإذا به شاب صغير لا يمكن أن يزيد عمره عن عشرين عاما.. نظر إلى جوازى ثم قال لى بابتسامة وحيوية: صحفى؟ هل ستكتب عن الولايات المتحدة؟.. إذن أرجو أن تكتب عنها كلامًا طيبًا..! ثم ختم جوازى ومنحنى تأشيرة دخول لمدة ستة شهور، مع أننى أخبرته أننى لن أبقى ببلاده

سوى أسبوعين، وسلمنى الجواز وهو يتمنى لى إقامة طيبة، فى أمريكا و«كتابة جيدة» عن شعبها!.

وغادرت المطار وأنا أسأل صديقى كيف استطاع شعب مكون من أخلاط البشر ولم يتعد عمره المائتى عام أن يخلق مثل هذه الروح القومية لدى أبنائه؟ فشاركنى التعجب لذلك وقال لى إنه كثيراً ما دهش خلال سنوات إقامته فى أمريكا لرؤيته للعلم الأمريكى فى نوافذ ومداخل أفقر بيوت ومساكن الأمريكيين البسطاء، بل كثيراً ما رآه مرفوعًا على «خرابة» يقيم فيها رجل، لا يجد لنفسه مأوى سوى هياكل السيارات القديمة.. ومع ذلك فهو يرفع عليها العلم الأمريكى!.

وغادرنا المطار فوجدنا جورج صديق محمد ينتظرنا بسيارته وحملنا إلى مدينة جرسى سيتى، فتأملت الشوارع والبيوت من نافذة السيارة وتساءلت: أين الحلم الأمريكى الذى قرأت عنه طويلاً؟.. وأين الصورة الخلابة التى ترسمها لنا أفلام السينما والمسلسلات التليفزيونية؟.. وأين ناطحات السحاب.. والفتيات الجميلات اللاتى يقدمهن مسلسل «الجرئ والجميلة»؛ مما يوحى لك أنه لا يسير فى شوارع أمريكا إلا الفاتنات وملكات الجمال وحدهن؟.. لا شىء من ذلك كله فى جرسى سيتى.. فالمدينة كئيبة.. ومنازلها منخفضة وقديمة وشبيهة بالمنازل الإنجليزية الكئيبة ولا يميزها عنها إلا غلبة لون الهباب أو السواد عليها، أما الشوارع فلا هى مبهرة ولا نظيفة.. والقمامة موجودة فى الأركان والأشجار تميل للسواد أكثر منها للخضرة.. والمدينة فى مجموعها لا تختلف كثيراً عن عاصمة أية محافظة من محافظات الأقاليم فى بلادنا، وربما كانت بعضها أجمل منها وحتى السيارة التى ينقلنا بها جورج قديمة وكئيبة اللون، وينبعث من جهاز الاستريو الخاص بها صوت المطرب الشعبى حسن الأسمر!.

لقد كدت أحكم على «الحلم الأمريكى» الشهير بأنه خرافة ملونة، صنعتها السينما والمسلسلات الأمريكية حتى أتيح لى بعد ذلك أن أرى صورا مختلفة

للحياة فى أمريكا أدركت معها أننى قد دخلتها من الباب الخلفى، وليس من أبوابها اللامعة، لكنه كان من المفيد كثيراً أن أرى هذا الواقع الأمريكى غير البراق أيضًا لتكتمل الصورة أمامى.

ويحق لى بعد ذلك أن أزعم أننى قد حاولت دراسة الحياة فى أمريكا.. أو الاقتراب منها.. وهذا ما حاولته بالفعل فى المحطات التالية لى بعد محطة جرسى سيتى وولاية نيوجرسى..

* * *

١٦

الرقص.. فوق الألم!

أمضيت يومى الأول فى أمريكا فى تلك المدينة الكئيبة «جيرسى سيتى»؛ لكى نؤدى واجب المجاملة لمهاجر مصرى من معارف صديقى محمود الذى يرافقنى فى رحلتى الأمريكية، المصرى المهاجر اسمه نظمى، وهو الأخ الأكبر لجورج الذى استقبلنا بسيارته فى مطار «نيورك»، ومعه فتاة مصرية من بنات بحرى فى الإسكندرية تقيم فى أمريكا منذ ٣ سنوات، واليوم هو يوم زفاف أحد أشقاء نظمى الخمسة الذين استقدمهم من مصر واحدا بعد الآخر، وعملوا وافتتح بعضهم محلات تجارية مثله، أما العريس فشاب عمره ٢٥ سنة ويتزوج من مصرية تقاربه فى السن وبيت الأخ الأكبر مزدحم بالإخوة والأقارب، الذين جاءوا من ولايات أخرى ومن مصر لشهود «الفرح»! شربنا القهوة فى بيت نظمى وقدمنا التهنئة للعريس الشاب الوسيم الذى يبدو خجولا وهادئًا، ثم استأذنا فى الانصراف لننام ساعتين، نعوض بهما إجهاد السفر واختلاف التوقيت قبل أن نذهب فى المساء إلى الفرح.

المسكن الخالى الذى استرحنا فيه ـ شقة بسيطة ـ من غرفتين ومع ذلك فلا يمكن أن يقلٍ إيجارها عن ٥٠٠ دولار فى الشهر، فإيجارات الشقق هى الشىء الغالى حقًّا فى أمريكا، أما بقية متطلبات الحياة فأرخص بالتأكيد منها فى أوروبا، وبعضها كالطعام ووجبات الغداء والعشاء فى المطاعم الكبرى وسيارات الأجرة أرخص منها حتى فى مصر، هذه هى الحقيقة التى يفاجأ بها كثيرون حين يزورون أمريكا أول مرة، فأطول مشوار لسيارة الأجرة فى نيويورك لا يتكلف

أكثر من ٤ أو ٥ دولارات والحساب بالعداد، وليس بالتقدير الجزافى والسائق لا ينتظر منك بقشيشًا، ومع ذلك فلو أعطيته نصف دولار أو دولاراً فسوف يسعد بهذا البقشيش الضئيل ويشكرك عليه بحرارة، وهذه الدولارات الأربعة أو الخمسة قد تبدو مبلغًا كبيراً إذا ترجمتها إلى جنيهات مصرية، لكنها بالنسبة للمواطن الأمريكى أربع أو خمس وحدات فقط من عملته المحلية. . ويدفعها من دخل لا يقل عن ١٢٠٠ أو ١٣٠٠ دولار فى الشهر هو متوسط أجر الأعمال الصغيرة فى أمريكا، وكل من يقل دخله عن ١٦٠٠ دولار شهريا فى أمريكا يعتبر من محدودى الدخل. أما الحد الأدنى للأجور فهو ٤ دولارات فى الساعة أى حوالى ٦٠٠ دولار فى الشهر، وهو مبلغ يكفى للحياة فى مستواها الأدنى من ناحية الاحتياجات الأساسية كالطعام والشراب والملبس، أما من ناحية المسكن فلا يتيح لصاحبه إلا غرفة بلا حمام فى بيت قديم متهالك فى الأحيان الفقيرة.

لكن ما يلفت الانتباه حقًّا هو أن من يعمل بالأعمال الصغيرة لا يكاد يلمس فارقًا ظاهراً بينه وبين من يتقاضى ٥ أو ٦ آلاف دولار شهريًّا إلا فى المسكن، الذى يقيم به وموديل السيارة التى يركبها، وفى برنامج العطلة السنوية التى يقضيها كل منهما فى مكان يتفق مع إمكاناته المادية، وفيما عدا ذلك فكلاهما يستطيع دخول أى مكان للطعام أو الشراب لأن الأسعار معتدلة وفى متناول كليهما معا. . والخير كثير وأطباق الطعام وأكواب الشراب تتسم بالطابع الأمريكى التقليدى فى الضخامة والوفرة، فكوب الشاى البلاستيك يمكن أن يشربه اثنان. . وفنجان القهوة الأمريكية يملؤه لك الجارسون كلما فرغ بثمن فنجان واحد، وكذلك كوب الكوكاكولا، الذى تستطيع أن تعيد ملأه مرتين أو ثلاثًا، إذا أردت بثمن الكوب الأول وحده و«كوز» الفيشار يحتاج إلى أربعة أشخاص لالتهامه. . وكثير من محلات الأكل تعمل بنظام البوفيه المفتوح. . وتعلق لافتة طريفة تقول لك: كل بقدر ما تستطيع بخمسة دولارات أو ستة فى أحسن الأحوال.

أما البوفيه المفتوح فى فنادق الخمس نجوم، التى لا يجازف بالاقتراب من

مثيلاتها فى مصر سوى الأثرياء وحدهم ـ فهى متاحة لكل من يعمل عملا عاديًا أو صغيراً، وقد تناولت العشاء فى فندق الماريوت بنيويورك وفوجئت بلافتة معلقة فوق البوفيه تعلن أن ثمن الوجبة ٥,١٠ دولار للفرد؛ أى عشرة وحدات ونصف فقط من العملة المحلية للفرد الأمريكى، فى حين لا يقل ثمنها فى مصر فى فندق مماثل أو أقل فى المستوى عن ٥٠ وحدة من العملة المحلية المصرية، عدا الإضافات من ضريبة المبيعات وخدمة وخلافه. . لهذا يتجه مجتمعنا إلى ما يسميه علماء الاقتصاد الازدواجية الاجتماعية والاقتصادية، وهى من علامات الخلل الاقتصادى فى أى مجتمع، وشىء آخر مختلف عن التفاوت الطبقى الموجود فى معظم المجتمعات؛ بمعنى أن المجتمع عندنا يتجه إلى الانقسام نتيجة لظروف كثيرة إلى فئة من «القادرين على كل شىء» ولهم منتدياتهم وأماكن التقائهم وأفكارهم وقيمهم ومنطقهم المختلف فى الحياة، وأغلبية من «العاجزين عن أى شىء» حتى عن تناول فنجان من الشاى فى فندق كبير مرة فى السنة، ولها عالمها. . وقيمها وأفكارها ومنطقها المختلف، وكل منها لا يكاد يدرى عن عالم الاخر شيئًا، فهما يتجاوران فى المجتمع الواحد، ولكنهما لا يمتزجان ولا يتفاعلان فيؤثر كل منهما فى الاخر وقد لا يلتقيان إلا فى الطريق العام. . وكأنهما شعبان وليسا شعبًا واحداً وهذا هو معنى ازدواجية المجتمع، التى تتجه لها بعض مجتمعات العالم الثالث الآن للأسف، إن لم تحسن علاج هذا التفاوت الاجتماعى الحاد لديها.

وإذا كان فى أمريكا شىء آخر باهظ الثمن، عدا إيجارات المساكن، فهو تكلفة التعليم العالى والجامعات وتكلفة الخدمات الطبية فى عيادات الأطباء. . وتكلفه المساعده القانونيه والمحامون هم أصحاب أعلى الدخول السنوية فى أمريكا ،وليسوا المهندسين ورجال الإدارة العليا فى البنوك والشركات وأساتذة الجامعات كما يتصور البعض. . وهذه عجيبة أخرى من عجائب أمريكا سيجئ الحديث عنها

فى حينها.

ورغم ارتفاع الإيجارات فى أمريكا بصفة عامة إلا أنها تتفاوت تفاوتًا حادًا بين ولاية وأخرى، بل وبين مدينة ومدينة أخرى لا تبعد عنها ٤٠ أو ٥٠ كيلو مترًا. فالشقة من غرفتين وصالة التى يدفع فيها من يقيم فى جيرسى سيتى ٥٠٠ دولار مثلاً، قد يدفع فيها من يقيم فى مثيلتها بالضبط. وفى عمارة مماثلة لها ١٢٠٠ دولار فى نيويورك، ولهذا يفضل كثيرون من المصريين المهاجرين إلى نيويورك والأجانب بصفة عامة، أن يقيموا فى جيرسى سيتى، وأن يذهبوا لأعمالهم فى نيويورك القريبة منها كل صباح، وأما المصريون فى جيرسى سيتى.. فلقد تضاربت التقديرات حول أعدادهم، فمن قائل إنهم يزيدون عن ١٠٠ ألف مصرى.. ومن قائل إنهم يقلون عن ٦٠ ألفًا، ولكن المؤكد أنهم يتراوحون بين الرقمين.. ويعملون بالوظائف والأعمال المختلفة وفى شركات سيارات الأجرة والليموزين وشركات العقارات وغيرها، وكثيرون منهم يمارسون التجارة الحرة، ويمتلكون محلات من النوع المعروف باسم محلات الديلى أو DELI وهى الاختصار الأمريكى لكلمة DELI CATESEN، ومعناها أطعمة معلبة أو مقصف لبيع الأطعمة السريعة، وهى تقع فى المسافة بين السوبر ماركت والمطعم، ويتركز معظم نشاطها فى الصباح الباكر؛ حيث يتناول فيها الأمريكيون إفطارهم، وتستمر مفتوحة حتى منتصف الليل، على أية حال.. فقد صحونا من نومنا قبيل السابعة مساء بتوقيت جيرسى سيتى، أو قبيل الثانية صباحًا بتوقيت الجسم الطبيعى، الذى لم يتعود إضافة سبع ساعات دفعة واحدة إلى يومنا.

مر بنا جورج ليصطحبنا إلى زفاف شقيقه، ونزلنا إلى السيارة فوجدنا بها نفس الفتاة خمرية اللون السكندرية، التى استقبلتنا معه فى المطار لكنها بدلا من البنطلون الجينز الذى كانت ترتديه، ترتدى الآن فستان سهرة أسود استعدادًا للفرح، مضت السيارة على الطريق السريع خارج المدينة.. فالفرح مقام فى قاعة مخصصة للاحتفالات على مسافة ٤٠ كيلو مترا من جيرسى، وكل مشوار فى أمريكا بالكيلو مترات لا بالأمتار لأن الأرض «براح» والقارة شاسعة المساحة،

والفرح الذى كان ينبغى أن نصل إليه خلال ١٥ دقيقة، مضت أربعون دقيقة ولم تظهر له علامة.

وتبين أن جورج قد ضل الطريق إلى القاعة، فراح يسأل قادة السيارات عن مكانها، وبعد شىء من التخبط وجد فى إحدى محطات البنزين سيدة أمريكية متوسطة العمر وبدينة تزود سيارتها بالوقود، وتعرف مكان القاعة على وجه التحديد، فراحت تصف له الطريق إليها، ولكنه خوفًا من أن يضل الطريق مرة أخرى عرض عليها عرضًا بدا لى لحظتها غريبًا بل «وجارحًا»، وبدا لمن معى بل وللسيدة الأمريكية نفسها أمرًا عاديًا لا حرج فيه ولا إهانة، فلقد عرض عليها جورج أن يدفع لها عشرين دولارًا مقابل أن تسير أمامه بسيارتها إلى حيث تقع القاعة، والعرض عادى وفقًا للمنطق العملى، الذى يسود الحياة الأمريكية فالسيدة ستتكلف ثمن الوقود وبعضا من وقتها لإرشادنا إلى غايتنا، وكل شىء له مقابل فى أمريكا ولا عجب فى ذلك ولا غرابة، لكن الغريب حقا كما قيل لى هو أن السيدة الطيبة قد قبلت أن تنحرف عن طريق عودتها إلى بيتها، وتسير مسافة ٢٠ كيلو مترًا إضافية لترشدنا للطريق، ثم رفضت بعد ذلك أن تقبل «أجرًا» على ما فعلت، مكتفية بقولها لجورج حين عرض عليها ذلك فى البداية: لا أريد!.. لا أريد فقط بلا زيادة أو نقصان.. ولا غضب.. ولا كيف تعرض على هذا العرض المهين؟!! كما كان يمكن أن يحدث لو وقعت القصة فى مصر أو دولة عربية أو حتى بعض الدول الأوربية.

لهذا ألحت على جورج حين وصلنا إلى القاعة أن يدعوها لحضور الزفاف وتناول العشاء معنا فيه، وهو عرض يبهج أى أمريكى إذا سمح له وقته بذلك، لأنهم مغرمون حقًا بحضور الحفلات والدعوات المجانية التى يتاح فيها الطعام والشراب بلا مقابل مهما كانت درجة ثرائهم، وقد عرض عليها جورج ذلك بالفعل، ولكنها اعتذرت برغبتها فى العودة لأطفالها لأنها تعمل منذ الصباح،

وتريد أن تلحق بهم قبل موعد نومهم.. ولولا ذلك فقط لأسعدها أن تحضر معنا زفافًا مصريًّـا، فشكرناها بحرارة ولوحت لنا مودعة ثم انطلقت بسيارتها!.

الأمريكيون على المستوى الشخصى قوم بسطاء ودودون.. يتسمون بروح التفاؤل والمرح والاعتداد بالنفس، وقد اكتسبوها كما يقول المؤرخ الأمريكى آلان نفُر من جو الحرية الذى عاشوا فيه منذ نشأة بلادهم.. والمؤكد هو أن قلوبهم تتفتح بسهولة ويسر للأغراب على عكس الأوربيين، الذين ينطوون غالبًا على إحساس غريزى كامن فى الأعماق بالنفور من الأجانب، وعلى إحساس بالاستعلاء العنصرى، الذى يعلن عن نفسه عند الضرورة على الآخرين.

وإحقاقًا للحق فهذا الإحساس بالاستعلاء العنصرى والنفور من الأجانب الكامن فى الأعماق، لا ينفرد به الأوربيون وحدهم.. فمعظم أبناء شعوب العالم القديم ينطوون عليه، ويقيمون حاجزًا نفسيًّـا بينهم وبين الغرباء والأجانب. ولقد عاش الصينيون على سبيل المثال قرونا طويلة وهم يعتبرون الأجانب، ومن هم غير صينيين «أرواحًا شيطانية»، لا يجوز لها أن تدنس أرض الحضارة الصينية القديمة، وبعض الشعوب المختلف الغنية منها والفقيرة على السواء تحمل هذا الإحساس إيضًا حتى الآن تجاه الغرباء، ولا أكاد أجد شعبًا نجا من هذا الإحساس بالنفور من الأجانب والغرباء كالشعب المصرى العريق، الذى لا يكتفى فقط بالانفتاح على الغرباء بسهولة، بل ويحبهم أيضًا، وقد يميزهم فى معاملاته عن بنى جلدته أنفسهم.. يستوي عنده فى ذلك السويسرى والأمريكى مع الهندى والباكستانى والتشادى وابن قبائل الزولو من جنوب أفريقيا، فهل يستطيع أحد من علماء الأجناس وطبائع الشعوب أن يفسر لنا هذه الظاهرة الفريدة!.

أما تفسيرها عند الأمريكيين فمفهوم، وهو أنهم شعب من أخلاط المهاجرين من مختلف الأعراق والأجناس، وقد بنى حضارته على أساس التسامح العرقى والتسامح الدينى، باستثناء موقفه من السود الأمريكيين، الذين استمر استرقاقهم فى أمريكا منذ وصلت أول شحنة من الرقيق الأفارقة إلى فيرجينيا على ظهر

سفينة هولندية، باعت منهم عشرين زنجيًا للمستوطنين الجدد عام ١٦١٩، إلى حرب تحرير العبيد التى اشتعلت بين الجنوب والشمال، واستمرت خمس سنوات وانتهت بهزيمة الجنوب المتمسك بنظام الرقيق عام ١٨٦٥، وأيضًا باستثناء ذلك قد لا تلمس أثرًا كبيرا للاستعلاء العنصرى، أو النفور من الأجانب فى الشخصية الأمريكية.

وعلى الرغم مما بدأ يظهر مؤخرًا فى أمريكا من اتجاهات يمينية معادية للمجتمع الأمريكى نفسه والسود.. والغرباء، إلا أنها ليست الاتجاهات السائدة أو المؤثرة فى المجتمع، وإنما السائد هو الفلسفة البراجماتية العملية، التى ترى أنك ما دمت تفيد وتؤدى عملك مقابل أجرك فأهلاً بك وسهلاً، ولايعنيهم جنسك أو أصلك العرقى أو لونك بعد ذلك فى شيء حتى ولو كرهتهم! ومنطقهم فى ذلك عملى وواقعى أيضًا: أنت تعيش على أرضنا.. وتكرهنا كأمريكيين.. بل وتكره أمريكا كلها؟ فلا بأس بذلك ما دمت تؤدى عملك على خير وجه، وتخدم الآلة الأمريكية الهادرة بإخلاص، أما كراهيتك لنا فلا تعنينا فى شيء، فلسوف ينشأ أولادك على الأرض الأمريكية وهم متعاطفون معها، أما أحفادك فسوف يولدون أمريكيين مائة بالمائة، بعد أن تكون قد رحلت أنت إلى العالم الآخر، وبهذا المنطق العلمى صهرت البوتقة الأمريكية كل الأجناس والأعراق وصنعت منها الشعب الأمريكى.

غادرنا سيارة جورج ودخلنا قاعة الحفلات «فستيا»، فأحسست فجأة بأننى قد انتقلت من أمريكا إلى حى شبرا فى القاهرة، بمجرد أن دخلت صالة الفرح!.

يا إلهى!! لا يمكن أن يكون هذا الفرح فوق الأرض الأمريكية، وعلى بعد آلاف الأميال من مصر، ولا يمكن إلا أن يكون فرحًا مقامًا فى قاعة للأفراح بالإسكندرية أو فى حى شبرا بالقاهرة.

٦٠٠ مصرى بزوجاتهم وأطفالهم يجلسون إلى الموائد.. «وكوشة» فى صدر

الصالة يجلس فيها العروسان. . و«بيست» تقف عليه فرقة موسيقية مصرية تعزف أنغام أغانى الأفراح المصرية وعلى رأسها: مكسوفة. . مكسوفة منك! مش قادرة. . مش قادرة أقول لك. . إلخ.

ومطرب مصرى يغنى ويحيى ـ عريس الليلة وشقيقه الأكبر نظمى وإخوته فردا فردا، و«عائلة فكرى»، و«عائلة حبيب». . و«عائلة صبحى». . اللى شرفونا الليلة!

و«البيست» مزدحم بالأطفال والرجال والبنات الذين يرقصون على واحدة ونص، وأشقاء العريس والأصدقاء «ينقطون» المطرب بالدولارات وينثرونها عليه كما يحدث فى ملاهى القاهرة. . وشقيق العريس الأكبر يرقص بالعصا ابتهاجًا بالمناسبة السعيدة.

وليس فى القاعة كلها من غير المصريين سوى الجارسونات. . ولا شىء آخر «ينبهك» إلى أنك لم تغادر مصر، ولم تركب الطائرة آلاف الأميال لترى الحياة الأمريكية، فكأنما ركبت الطائرة من القاهرة إلى القاهرة!.

أما ما حدث بعد استقرارنا فى مقاعدنا بلحظات، فلقد فاق كل التوقعات ولا أغالى إذا قلت إننى لم أشهد له مثيلاً من قبل لا فى مصر، ولا فى أى مكان آخر.

فلقد التف حولنا إخوة العريس يرحبون بنا وهم فى ملابس السهرة السوداء، وكلهم شباب مهذبون ومجاملون، وفجأة وجدتهم يهرولون منزعجين فى اتجاه باب الصالة، ورأيت الأنظار تتجه إلى المدخل فنظرت إلى حيث ينظرون فوجدت العريس الشاب. . يتجادل بعنف مع شقيقه جورج، الذى احضرنا إلى المكان وينفجر الموقف بينهما بسرعة رهيبة، فإذا بالعريس يهم بخلع جاكيت السهرة السوداء، لكى يتضارب مع شقيقه، وإخوته يمنعونه ويفصلون بينه وبين جورج ويجرونه جرا ليعود إلى عروسه التى تنتظره. . ويبعدون جورج إلى الناحية

الأخرى، والعريس يدمدم منفعلاً إلى حد اصفرار الوجه والانتفاض غضبًا بضرورة أن يخرج فورًا من الصالة.. ولا يبقى بها ثانية واحدة! وإخوته يعدونه بتحقيق رغبته ويسحبونه إلى الكوشة إلى أن يستجيب بصعوبة لأيديهم، ويجلس إلى جوار العروس مبهور الأنفاس غاضبًا ومكتئبًا، وأنا وصديقى محمود نرقب ما جرى.. ونحن مذهولان فاغرا الفم من الدهشة.. وسألنا بالطبع عن سر ما جرى، فعلمنا أن الفتاة الخمرية التى صحبتنا فى سيارة جورج هى سر المشكلة، فجورج فيما يبدو مرتبط بها ويريد أن يتزوجها، وإخوته يرفضون هذا الارتباط رفضًا نهائيًّا ويكرهونها، وقد حذره العريس من دعوتها لزفافه فلم يأبه جورج لهذا التحذير وجاء بها إلى الفرح متحديًا الأسرة، فما أن رآها العريس تدخل الصالة مع شقيقه حتى انتفض من مقعده غاضبًا وتوجه إلى جورج، وطلب منه مغادرة القاعة هو وفتاته، فحدثت المشادة التى كادت أن تؤدى إلى التشابك بالأيدى!.

تخيلت ما يمكن أن تتسبب فيه هذه «الفضيحة العائلية» المباغتة من ألم نفسى غائر وإحراج بالغ للأخ الأكبر أمام مدعويه وضيوفه، وهو رأس العائلة ورجل دمث الأخلاق ودود، فأحسست بالإشفاق عليه، وتألمت له على البعد وأنا أرقبه وهو يهدئ شقيقه العريس فى الكوشة، ثم رجع إلى مائدتنا، فرأيت مسحة من الألم تكسو وجهه.. فازددت إشفاقًا عليه وتألما لحاله، وحاولت تهوين الأمر عليه لكيلا يمضى الليلة كلها حزينًا مكتئبًا، فوضعت يدى على كتفه مواسيًا، وقلت له إنه طيش شباب وانفعال عارض مألوف بين الإخوة متقاربى السن، ولا يؤثر على مشاعرهم الحقيقية تجاه بعضهم البعض، ولن يمضى وقت قصير حتى تصفو النفوس ويرجع الصفاء لقلوب الإخوة، فهوّن عليك فما أكثر ما يحدث فى الأفراح من منازعات عابرة.. وما أكثر ما تشهد علاقات الإخوة من انفعالات مؤقتة، وواصلت مواساتى لنظمى، وهو يبتسم ابتسامة حزينة ويهز رأسه فى ألم.

وبعد دقائق رأيت جورج أحد طرفي المشكلة يتجه إلى الكوشة ويعتذر لشقيقه ويقبله ويبلغه أنه احتراما لرغبته قد طلب من فتاته أن تجلس خارج الصالة، ثم رأيته يتجه إلى البيست ويرقص تعبيراً عن مشاركته لأخيه فرحته وعن صفاء نفسه بعد ما حدث، ورأيت فى هذا المشهد الذى لم ينتبه له نظمى ما يمكن أن يخفف عنه حزنه فلفت نظره إليه كأنما أقول له: هل رأيت؟ لقد تحقق ما تنبأت به لك منذ لحظات، فنظر إلى شقيقه الذى يرقص وهو يتعجب.. وظل رغم ذلك غارقًا فى صمته وحزنه.. فهممت بأن أحدثه عن بعض المشاكل، التى شهدتها فى مناسبات مماثلة، محاولاً إخراجه من صمته، فإذا بجارى الذى يجلس إلى يمينى فى المائدة يسألنى سؤالا عن بريد الجمعة، فملت ناحيته لأجيب عن سؤاله، وأنا أتعجل الانتهاء من الحديث معه لأرجع إلى نظمى، ورجعت له بعد لحظات فإذا بى أجد مقعده خاليًا.. وسألت صديقى محمود عنه فأشار إلى «البيست» باسمًا بلا كلام: ونظرت إلى حيث أشار، فإذا بى أرى الأخ الأكبر الذى أجهدت نفسى لمواساته يرقص فوق البيست بالعصا «العوجاية»، ويتمايل بها فى انسجام غريب.. «وسلطنة» متناهية ناحية اليمين.. وناحية اليسار، ويشارك الراقصة الشرقية رقصها ويضع العصا بين صدره وصدرها، ويرقصان معًا على أنغام البهجة والانسجام، بل ويسحب بعد قليل زوجته من رقبتها بالعصا المعوجة لتشاركه الرقص والابتهاج، وكأن شيئًا لم يكن.. ولم تقع كارثة محرجة منذ ١٥ دقيقة فقط، لو حدثت لأحد فى مصر لفسد مزاجه وأصيب بالاكتئاب أيامًا متوالية.. ولربما تجنب لقاء من شهدوها حرجًا وخجلاً منهم فترة غير قصيرة!.

يا خسارة تألمى لك وإشفاقى عليك وجهدى النفسى للتخفيف عنك! أهكذا تتصرفون فى أمريكا؟ حزن وألم لمدة ١٥ دقيقة.. ثم رقص وفرفشة وابتهاج بعد ذلك مباشرة؟ يا بختكم! يبدو أن المنطق العملى الأمريكى قد سحب آثاره

عليكم، فأصبحتم أكثر واقعية وأقل استعداداً منا للندب واللطم والعويل فى مواجهة مواقف الحياة المؤلمة.

ومن يدرى فربما تكونون أنتم على حق.. ونحن على خطأ.. لكن: رقص بعد ربع ساعة من كارثة عائلية أمام المئات! هذا ما لا أستطيع هضمه بأى منطق ولو كان المنطق البراجماتى!.

كانت هذه «الرقصة» هى آخر ما استطعت احتماله من تلك الليلة، فانصرفنا من الفرح شاكرين أصحابه إلى حيث قضينا الليل، وفى الصباح الباكر كنت وصديقى نستقل سيارة أجرة، ونغادر «جيرسى سيتى» إلى نيويورك على مسيرة نصف ساعة.. فما أن اقتربت منها السيارة حتى أحسست بأننى قد انتقلت من «حياة» إلى «حياة».. ومن دولة إلى دولة أخرى رغم قصر المسافة.. وهكذا الحال فى أمريكا التى تتباين فيها أشكال الحياة إلى حد كبير من ولاية إلى ولاية.. وربما من مدينة إلى أخرى، وكأنها قارة مكونة من ٥٠ «دولة» وليست دولة واحدة من ٥٠ ولاية!.

* * *

١٧

المدينة الصفراء

توقفت سيارة الأجرة أمام العنوان الذى أعطيناه للسائق، فوجدت نفسى فجأة فى قلب الصورة التقليدية التى تراها لمدينة نيويورك فى بطاقات البريد! عمارات شاهقة الارتفاع كالمكعبات السوداء العملاقة تخرق سقف السماء.. كتل قاتمة اللون من الحديد والألومنيوم والزجاج ترتفع كالأبراج تتحدى السحاب.. وإعلانات نيون هائلة الحجم بارتفاع ثلاثين أو أربعين دوراً تخطف الأبصار بألوانها الزاهية وأشكالها المتغيرة.. فيتسمَّر أمامها السياح اليابانيون بكاميراتهم مذهولين.. أما الصورة التى رأيتها لشوارع نيويورك من خلف زجاج الغرفة بالدور الثالث والثلاثين من فندق «هوليداى إن كراون بلازا» فقد كانت جديرة بالتأمل حقـًا، فلقد نظرت من خلف الزجاج فرأيت رؤوس الكتل المعمارية السوداء ترتفع فى السماء كأنها أشواك مدببة، ورأيت عن بعد قمة عمارة «الإمباير ستيت» الشهيرة التى يؤمها السياح، والمكونة من ١٠٢ دوراً بارتفاع ٣٨١ مترا، والتى كانت أعلى مبنى فى امريكا والعالم حتى عام ١٩٧٣، حين انتهى بناء برج «سيذر تاور» فى شيكاغو من ١١٠ طوابق وبارتفاع ٤٣٦ مترا فتراجعت «الإمباير ستيت» إلى المركز الثانى ثم إلى المركز الثالث فى ترتيب ناطحات السحاب، حين انتهى بناء الناطحة الجديدة «ترامب سيتى» من ١٥٠ دوراً وبارتفاع ٥٥٠ متراً فى نيويورك. والفضل فى كل ذلك لفكرة الأمريكى أليشا جوافز أوتيس، الذى ابتكر فى منتصف القرن ١٩ مصعداً تجره الثيران القوية فيرتفع للأدوار العليا.. ثم طور فكرته سنة ١٨٦١ باستخدام محرك بخارى لإدارته ثم ازداد الأمان فى

استعماله. . مع استخدام الكهرباء فى إدارته فى بداية القرن العشرين، فسمح ببناء هذه الشواهق العالية وسكناها.

أما حين نظرت إلى أسفل مقاومًا إحساس الدوار الذى ينتابنى فى الأماكن العليا، فقد رأيت شوارع نيويورك صفراء بلون سيارات الأجرة فى المدينة، فنيويورك على خلاف معظم مدن أمريكا الهادئة، تعانى من أزمة مرور طاحنة وأزمة أشد فى أماكن انتظار السيارات؛ مما يدفع أصحاب السيارات إلى عدم دخول المدينة بها وركوب سيارات الأجرة التى تكاد تنفرد بشوارع هذه المدينة الصاخبة.

ومهنة سائق الأجرة هى مهنة الأجنبى المهاجر إلى نيويورك غالبًا، وبين سائقى الأجرة فيها عدد كبير من المصريين والمسلمين الأفارقة والآسيويين بوجه عام.

وقد ركبت إحدى هذه السيارات، فلاحظت أن اسم السائق المعلق داخل السيارة مع صورته يبدأ «بمحمد»، وتجاذبت معه أطراف الحديث. . فعرفت منه أن نيجيرى مهاجر لأمريكا منذ بضع سنوات، وعرف منى أننى مصرى، فقال لى إنه يحب من أندية مصر الرياضية نادى الزمالك؛ لأن النيجيرى إيمانويل إيمونكى لعب له ٣ سنوات ثم ركبت سيارة أخرى، فوجدت اسم السائق «محمدا» أيضًا وعرفت منه أنه من بنجلاديش، ولم يستطع بأن يفسر لى سر انتشار «محمد» وأمثاله فى سيارات الأجرة التى تملكها شركات أمريكية كبيرة، سوى بقوله لى إنه ربما تكون التجربة قد أثبتت لهذا الشركات أنه وأمثاله مسالمون، ولا يثيرون المتاعب ولا يرتكبون حوادث العنف مع الركاب.

والمصرى المهاجر يبدأ هجرته لأمريكا بنيويورك غالبًا، ويصل إليها فى العادة ضيفًا على أقارب له أو أصدقاء سبقوه للهجرة واستقروا فى نيويورك، فينزل لديهم فى شقة من غرفتين يقيم فيها ٤ أو ٥ أشخاص، ثم يبدأ بمساعدتهم رحلة البحث عن عمل فى المطاعم أو محلات البقالة أو محطات البنزين، وقد يعثر

عليه بعد ثلاثة أو أربعة أيام وقد لا يعثر عليه قبل شهر، لكنه سيجد عملا فى النهاية.

وسيجد بعد شىء من البحث والتجوال لوحة صغيرة من الكارتون، معلقة على زجاج بعض المطاعم والمحال التجارية تقول «مطلوب المساعدة».. ومعناها أن هناك وظيفة خالية، لكن دخله منها لن يسمح بأن يستقل بمسكن من غرفتين أو غرفة واحدة، وإنما لابد أن يشارك آخرين إيجار المسكن الباهظ، وسوف يستمر فى هذا العمل سنوات إلى أن ينهى مشكلة أوراقه، ويحصل على الإقامة فيصبح من حقه العمل كسائق أجرة إذا أراد، أو العمل بمؤهله الدراسى إذا أتيحت له الفرصة، أو يشارك آخرين فى عمل خاص.

والفارق بين بداية المصرى فى الهجرة وبداية اللبنانى أو الفلسطينى تصوره هذا القصة التى يتناقلها المصريون هناك، وتقول إن المصرى ينزل ضيفًا على أصدقاء له فيبحثون له عن «وظيفة» فى مطعم أو محل كما بدأوا هم هجرتهم، وتطول به السنوات وهو يعمل بأجر، أما الفلسطينى أو اللبنانى فينزل ضيفا على أحد أبناء بلده فيسلمه من اليوم الأول حقيبة بها ملابس أو عطور أو ساعات، ويطلب منه أن يبيع محتوياتها فى الأسواق ويتقاسم معه الربح، فلا تمضى شهور حتى يكون الوافد الجديد قد اشترى سيارة نصف نقل يحمل عليها تجارته الخاصة، ولا تمضى سنوات أخرى حتى يكون قد أصبح تاجرا ناجحًا وثريًّا!.

والقصة صادقة فى دلالتها على اختلاف الشخصيتين فعلا فى مفهومهما «للعمل»، فعقلية المصرى هى غالبًا عقلية الموظف.. وعقلية الفلسطينى أو اللبنانى أو السورى هى عقلية التاجر غالبًا أيضًا.

غادرت الفندق أتجول فى الشوارع المحيطة به.. فشاهدت من بعيد إعلانا ملونًا يحمل صورة نجم الكوميديا القديم جيرى لويس، فظننته إعلانا عن فيلم جديد له، وتعجبت من أنه مازال على قيد الحياة، ولكنى اقتربت من الإعلان ففوجئت بأنه عن مسرحية يؤدى دور البطولة فيها.

وتنبهت فى هذه اللحظة إلى أن الفندق الذى أقمت فيه يقع فى شارع برودواى شهير، الذى ارتبط اسمه بتاريخ المسرح الأمريكى، ويضم أكبر عدد من مسارح المدينة.

حرصت على مشاهدة المسرحية واسمها «اللعنة على فريق اليانكى» وهو فريق «للبيسبول» بالطبع، أكثر الرياضات شعبية فى أمريكا، فكانت معبرة عن المسرح الأمريكى المعاصر الذى يعتمد على التكنولوجيا المتقدمة فى الإخراج والإبهار والاستعراضات الضخمة أكثر من أى شىء آخر.

والأمريكيون بصفة عامة ومعظم الأوروبيين كذلك لايحبون مدينة نيويورك.. ويعتبرونها «أسوأ» دعاية لأمريكا، ويفسرون لك سر هذا الود المفقود بينها وبينهم بأن الأمريكان فى كل انحاء أمريكا مرحون ومجاملون.. إلا فى نيويورك، وأن المدن الأمريكية لا تعرف غالبًا تلوث الجو بعادم السيارات ولا الهواء الفاسد إلا فى نيويورك، ولم أشاركهم كراهيتها أو النفور منها.. ربما لأن لها شخصية المدينة الحية الصاخبة التى تعجب الزائر العابر مثلى، وقد لا تناسب المقيم.. ففى نيويورك كل تناقضات الحياة الأمريكية الصارخة بأكثر حدة من غيرها من المدن، ففيها الثراء الخرافى إلى حد التخمة وشارع المال الشهير «وول ستيريت» والمساكن الفاخرة إلى حد الخيال فى حى مانهاتن، وفيها أيضًا الفقر إلى حد الإملاق والمساكن الفقيرة إلى حد التخلف، وافتقاد المواصفات الصحية فى حى الزنوج الشهير هارلم.. وحى بروكلين.

وفى نيويورك أرقى مسارح أمريكا.. وأشهرها.. والمتاحف العالمية وأكبرها متحف المتروبوليتان، وفيها إلى جوار ذلك أحقر علب الليل وأعجب المطاعم وأغربها فى الديكور والذوق الفنى الفاسد فى حى «ذى فيلاج» أو قرية جرنيتش!.

وفى نيويورك أنجح رجال المال والبنوك الذين يتحكمون فى أسواق المال العالمية.. وفيها إلى جوارها.. وربما أمام مكاتبهم مباشرة أكبر عدد من المتسكعين والمتسولين الذين يستجدون منك ثمن كوب من البيرة، ومعظمهم من السود، وكثيرون منهم يحملون لافتة من الكارتون مكتوبا عليها «بلا بيت» أى بلا سكن ولا مأوى، وليس المطلوب منك أن تساعده في دفع إيجار بيته؛ لأن هذا مستحيل بالطبع وإنما أن تعطيه فقط دولاراً أو دولارين لكى يشترى البيرة أو المخدر لأن مأواه هو الشارع.. ولو أراد له مأوى فيستطيع دخول «الملجأ» الحكومى المخصص لإيواء المتشردين، ولكنه لا يريد دخوله لأنه لو فعل فسوف يسرق النزلاء الآخرون كل ما معه من دولارات وملابس!.

وقد سمعت وقرأت الكثير عن العنف فى نيويورك، ولكنى لم أشهد من مظاهره شيئًا والحمد لله خلال إقامتى القصيرة. ففى اليوم الثانى من زيارتى لها اشتريت صحيفة محلية فوجدت قصتها الرئيسية عن سكرتيرة فى الخامسة والثلاثين من عمرها تأخرت فى عملها حتى العاشرة والنصف مساء، ثم نزلت إلى ساحة انتظار السيارات لتركب سيارتها، وجلست وراء عجلة القيادة بالفعل ففوجئت بثلاثة صبية ضخام الأحجام، يحيطون بها من كل جانب وهددوها بسكين واغتصبوها وسرقوا نقودها! ثم ذابوا فى الظلام وهيهات أن يتوصل إليهم أحد.

وروت لى سيدة مصرية فاضلة أنها كانت فى زيارة لنيويورك قبلى بأسابيع، ودخلت محلا تجاريًا مع زوجها ففوجئت بعملاق أسود يقتحم المحل بهدوء شاهرًا مسدسه، ثم طلب من صاحب المحل أن يفرغ محتويات كيس النقود أمامه واستولى عليها، وغادر المحل فى هدوء وهو يرمق الزبائن بنظرات ينطلق منها الشرر! وهيهات أن يقاومه أحد أو يلحق به مطاردًا إياه!.

وحسب أرقام الشرطة الأمريكية، فإن واحدا من كل ألف مواطن يتعرض لحادث سرقة أو أعتداء أو قتل كل يوم فى نيويورك، و ١٥ من نساء أمريكا يجدن

الرماية وإطلاق الرصاص، ويحملن مسدسات صغيرة فى حقائب اليد، كما أن ٣٠ ٪ منهن يجدن فنون الدفاع عن النفس.

وفى حى «ذى فيلاج» توقفت أمام كشك لبيع الصحف والسجائر، وتصفحت المجلات فلفت نظرى وجود أكثر من مجلة متخصصة فى شئون الأسلحة الصغيرة، واشتريت إحداها من باب الفضول، فوجدت صورة الغلاف لمسدس صغير، وعنوانها هو «هل تستطيع حقا أن تعيش بأمان بدونه»؟!.

ثم عشرات المقالات والتحقيقات بعد ذلك أنه أنسب سلاح لكل إنسان وكيف يستعمله إلخ.. ومع ذلك فلم أر عنف نيويورك ولا عنف الحياة الأمريكية بصفة عامة رأى العين لحسن الحظ، وإنما رأيت المعاملات اليومية تجرى فى نيويورك وفى غيرها من المدن الأمريكية بسهولة ويسر، ويحكمها قانون غير مكتوب اسمه «روح العدل» وعماده شعار يقول «خد حقك.. وأعطنى حقى» ورأيت الحياة فيها وفى غيرها تمضى وفقًا لشعار آخر يقول: «افعل ما تشاء وبمطلق حريتك.. لكن لا تخالف القانون، لأنك إذا خالفته فسوف يطبق عليك بصرامة وبلا رحمة».. لا فرق فى ذلك بينك وبين رئيس أمريكا! وهذا صحيح.. ولعله سر قدرة المجتمع الأمريكى على احتواء متناقضاته العديدة.

فمفهوم الحرية الشخصية فى أمريكا، مفهوم واسع ومطلق إلى أقصى حد، والقانون الأمريكى يسمح لكل إنسان فى أمريكا بحمل السلاح، بل وبأن ينشئ أيضًا ميليشيات عسكرية، يرتدى أفرادها ال زى العس كرى الخاص، وتعلن بلا مواربة عن هدفها الرئيسى وهو قلب نظام الحكم، ويسمح القانون أيضًا بتدريب الشباب فى الغابات على الأعمال الحربية، وفى أمريكا «مهاويس» كثيرون يدربون أتباعهم على العمليات العسكرية فى الأحراش، ويحلمون بيوم الخلاص من الحكومة الأمريكية وكل أنواع الحكومات، كل ذلك تحت بصر القانون الأمريكى وسمعه وبلا اعتراض من جانبه، إلا إذا تحول الكلام إلى فعل أو عمل إرهابى.

فهنا فقط يهوى القانون بمطارقه الثقيلة على رؤوس «المهاويس». . وحين كنت في أمريكا، كان البحث عن مرتكبي حادث انفجار أوكلاهوما يشغل الصحف ونشرات الأخبار بالتليفزيون. . وتم القبض على المتهم الوحيد الذي نجحوا في التوصل إليه وأنا هناك، وكان أمريكيا فتنفس المصريون والعرب والمسلمون في أمريكا بصفة عامة الصعداء، بعد أن كانت موجة جديدة من العداء قد بدأت تحيط بهم، وتتهمهم بأنهم وراء هذ العمل الإرهابي، وبعد أن انهالت مكالمات التهديد على المنظمات الإسلامية والعربية هناك، ومع ذلك فقد ظل هذا الأمريكي الشاب المتهم المنتمي للجناح اليميني الجديد، الذي يعادي الأقليات جميعًا والسود والمهاجرين الجدد. . مازال هذا الشاب صامتًا ويرفض الحديث عن شركائه في الجريمة ومحرضيه، ولا يستطيع أحد إجباره على الكلام، لأنها «حريته الشخصية». . وليس هناك ضرب ولا تعذيب يستنطق الحجر والموتى كما في بلاد الله خلق الله في العالم الثالث البائس. . وهذه هي الحياة الأمريكية بإيجابياتها وسلبياتها، ولك أن تقبلها أو ترفضها كما تشاء.

والأتوبيس السياحي الذي ركبناه ليطوف بنا أحياء المدينة، تنقل بنا بين شوارعها ومعالمها المختلفة، والمرشد الأمريكي الأسود يلاحق المعالم بتعليقاته اللاذعة والساخرة من كل شيء في الحياة الأمريكية، ابتداء من أصحاب الملايين في شارع «وول ستريت»، الذي اكتشفت لدهشتي أنه شارع صغير لا يتعدى طوله ٢٠٠ متر، إلى محافظ نيويورك وسلطاتها المحلية. . إلى «الرئيس الأمريكي» نفسه، بل وإلى تمثال الحرية أشهر معالم نيويورك، الذي يرتفع في الماء أمام الميناء بطول ٣٦ مترًا من تصميم وإعداد النحات الفرنسي «بارتولدي».

وأيامي الأربعة في نيويورك انتهت سريعًا للأسف، وآن لي أن أتجه إلى محطة السكة الحديد لأركب القطار إلى واشطن العاصمة، والتي لابد لك إذا أردت السفر إليها أن تضيف إلى اسمها حرفين آخرين، فتقول «واشطن دي سي» وإلا

وجدت نفسك فى ولاية واشنطن فى أقصى الشمال الغربى، وليس فى العاصمة الأمريكية.

وفى محطة السكة الحديد بنيويورك، فوجئت باتساعها الرهيب الذى يضارع اتساع أكبر مطارات العالم.. وفوجئت بنظافتها المتناهية.. وهى شىء غير مألوف فى نيويورك.. وجاء القطار فركبته مع صديقى وجلسنا فى مقاعدنا استعداداً لرحلة تستغرق ثلاث ساعات، وتأملت وجوه الركاب، فلاحظت أن الجميع يلتزمون بالامتناع عن التدخين فى القطار، وأن «البوفيه» الذى يحتل إحدى عرباته هو وجهتهم جميعًا.. التى لابد من الحج إليها مرة أو مرتين خلال السفر.. فلقد وقفوا جميعًا وبلا استثناء أمام موظف البوفيه، ورجعوا حاملين الطعام فى علب من الكارتون.. فالأمريكيون عمومًا من هواة الأكل، ويتسمون غالبًا بالبدانة وحين بدأت أمراض السمنة تؤثر عليهم.. وتهدد متوسط الأعمار عندهم بالانخفاض عن ٨٦ سنة - يا عينى! - اندفعوا بجنون للاهتمام بكل ما يحفظ عليهم صحتهم ويبعد عنهم شبح المرض والموت!.

فطاردوا التدخين فى كل مكان حتى كادوا يحصروه فى أمكان قليلة جداً، وامتنعوا هم أنفسهم أو معظمهم عنه، فأصبحوا خلال سنوات قليلة من أقل الشعوب فى نسبة المدخنين، مع أنهم أكبر منتج فى العالم للسجائر والأدخنة، وانتشرت الأطعمة الصحية منخفضة السعرات الحرارية فى كل مكان، وابتكروا المشروبات الغازية «الدايت» أو منخفضة السعرات، وانتشرت إعلانات السلع الغذائية الصحية، وإعلانات برامج التخسيس الغذائية والرياضية تحت شعار عجيب هو «حافظ على شكل أمريكا»؛ بمعنى أن تكون أقل بدانة وأكثر رشاقة.. فتصبح أمريكا كذلك!

والأمريكيون أصلا من مدمنى الطعام وهم الذين اخترعوا زجاجة «الكوكاكولا» فى حجم مولود صغير، وهم الذين يقدمون لك الجيلاتى فى «دورق» كبير وليس فى كوب صغير، والذين يشترون الفيشار فى «جردل» كبير

من الكارتون يلتهمونه بتلذذ شديد خلال مشاهدة برامج التليفزيون، وهم أيضًا شعب من «أكلة الثلج» إذا صح هذا التعبير، فهم يلتهمون منه كميات لا أظن شعبًا آخر من شعوب الأرض يلتهمها أو يستخدمها، وإذا طلبت فى محل عام كوبا من البيبسى كولا فسوف يملأ لك الجارسون الكوب حتى حافته بالثلج أولا ثم يصب فوقه بعض الكولا . . وقد حدث هذا معى فى أحد المحلات فقلت للفتاة الجارسونة إنى لا أريد كل هذا الثلج، فأجابتنى بتعجب: لم لا؟ إنى سوف أملأ لك الكوب بالشراب مرة ثانية وثالثة مجانًا! .

فقد ظنت أننى أعترض على ضآلة كمية البيبسى كولا فى الكوب، وليس على كثرة الثلج التى لا تتصور أن يعترض عليها أحد، فطمانتنى إلى أن من حقى أن أملأ الكوب بالشراب عدة مرات بثمن كوب واحد . . ولم يكن هذا هدفى فرجوتها أن تضع لى قطعتين فقط من الثلج، وتتخلص من الباقى ففعلت متعجبة! .

والأمريكيون أيضًا هم الذين اخترعوا «البيرجر» الغنى بالدهون، والسندوتش متعدد الطوابق ويحتاج إلى فم ثور لكى يتسع له. وهم الان موزعون بين حبهم للطعام ورغبتهم فى الصحة والحياة لأطول مدى ممكن، فلاحقهم الطب الأمريكى الذى يعرف كراهيتهم للحرمان من أطايب الطعام، فاخترع لهم دواء يخفف الكوليسترول أى نسبة الدهنيات فى الدم، مع استمرارهم فى الوقت نفسه فى تناول كل ما يحبون من أطعمة مهما كانت دسمة أو عالية السعرات . . والقرص الواحد بدولار . . ومن يريد أن يستمتع بلذة الطعام الدسم وطول العمر فليدفع! وليأكل كل ما يشاء . . ويستمتع بالصحة والحياة.

ولأنهم يتشبثون بالحياة بكل وسيلة ممكنة، فلقد اندفعوا لممارسة الرياضة والجرى «والأيروبكس» أى الرياضة على أنغام الموسيقى والرقص، وهو اختراع أمريكى أيضًا بدأ فى التليفزيون، ثم انتقل منه إلى النوادى الصحية التى انتشرت بكثافة فى الحياة الأمريكية . . وفى أمريكا شركات خاصة للتأمين على الحياة،

تشترك فيها بقسط شهرى، فتدفع لك معاشا خاصا بعد بلوغ سن اعتزال العمل وهو فى أمريكا ٦٥ سنة، وهذه الشركات تعلن عن نفسها فى الصحف بإعلانات جذابة منها هذا الإعلان، الذى لفت نظرى واثار تأملاتى ويقول: هل فكرت فى العشرين سنة التالية لسن الاعتزال.. وهل أعددت عدتك لها؟

وسن الاعتزال فى أمريكا هو بداية الحياة فعلا وليس نهايتها، كما هو الحال عندنا للأسف، وأسعد الأمريكيين هم من تخلصوا من مسئوليات العمل وتفرغوا للعناية بأنفسهم.. والقيام برحلات سياحية فى الداخل والخارج.. والاستمتاع بالحياة بعد ٤٠ أو ٤٥ عاما من العمل واللهاث وراء لقمة العيش.

والمسنون يمثلون أغلبية كبيرة ومؤثرة فى أمريكا، ولهم أنديتهم الخاصة وامتيازاتهم فى المواصلات والمسارح ودور السينما.

ولكن هذا حديث آخر أواصله مع وصول القطار إلى واشنطن فى المحطة القادمة بإذن الله.

* * *

١٨

.. فى «مجاهل» أمريكا!!

وصل القطار إلى محطة واشنطن فتحركت لمغادرته متلهفًا على رؤية هذه المدينة، التى لا تخلو من اسمها نشرة أخبار بالتليفزيون فى كل أنحاء العالم.

للعواصم دورات كدورات التاريخ، تتركز عليها خلالها الأبصار وتترقب ما يصدر عنها من أنباء وقرارات تتأثر بها بقية الشعوب، كان أجدادنا حتى مطلع القرن العشرين يتوجهون بأبصارهم إلى مدينة الأستانة، عاصمة دولة الخلافة العثمانية «إستانبول حاليًا»، ويحرصون على «الحج» إليها كل صيف؛ ليلتقطوا الأخبار ويتلمسوا أسباب النفوذ فى بلادهم، ويحصلوا على الرتب العثمانية: «بك» و «باشا» وما إلى ذلك، ثم سقطت دولة الخلافة وتفككت وتوقف تأثيرها على مجرى الأحداث فى الدول العربية، فتوجهت الأبصار من بعدها إلى لندن عاصمة الإمبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس، حيث كانت تُقرر مصائر شعوب الإمبراطورية فى مقر وزارة الخارجية البريطانية، وفى ١٠ شارع دواننج ستريت، مقر رئاسة الوزراء.

ثم جاءت فترة تاريخية أخرى، تطلعت فيها الأبصار والعيون مرتجفة إلى برلين عاصمة ألمانيا النازية فى عصر الرايخ الثالث.. تترقب كل ما يصدر عنها من أنباء جرت على العالم كله بعد حين ويلات الحرب العالمية الثانية، التى راح ضحيتها حوالى ٥٠ مليون نسمة فى شتى أنحاء الكرة الأرضية.. ثم حظيت «موسكو» عاصمة الاتحاد السوفيتى فى سنوات الصعود والمجد، عقب نهاية الحرب الثانية ببعض هذا الاهتمام، وتطلعت إليها الأبصار فى فترة احتدام الحرب الباردة،

تترقب أنباءها مشفقة من أن تجر العالم ذات يوم إلى صدام نووى رهيب بين القوتين العظميين فى العالم، ثم انفردت واشنطن فى السنوات الأخيرة بهذا الاهتمام وحدها بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وتفككه.. وتركزت العيون والأبصار عليها.. كعاصمة للقوة العظمى الوحيدة فى العالم الآن.

وبهذا الإحساس تذهب إلى واشنطن لتراها لأول مرة، فتدهش كثيرًا حين تكتشف أنها مدينة صغيرة هادئة لا يزيد عدد سكانها عن ٨٠٠ ألف نسمة، منهم نسبة كبيرة من السود والملونين، وأنها تخلو من ناطحات السحاب والأبراج الشاهقة، ولا يزيد ارتفاع أعلى مبنى بها عن عشرة أدوار، ويلفت نظرك الطابع الأوروبى الواضح لهذه المدينة الصغيرة الهادئة. وتزداد دهشتك حين ترى البيت الأبيض الشهير، الذى يبدو فى خلفية نشرات الأخبار بالتليفزيون كموطن غامض للأسرار والقرارات الخطيرة، فإذا بك تراه بيتًا صغيرًا بسيطًا فى بنائه وهندسته المعمارية، ويحيط به سور حديدى يكشف للمارة فى الطريق ما يجرى فى حديقته، وتكتشف أنت أنك تستطيع أن تلمس هذا السور أو تستند بظهرك إليه دون أن يعترض عليك أحد. إذ لا أبراج للحراسة تحيط به.. ولا دبابات ولا حرس شرف بزيه التقليدى، كما فى قصر «باكنجهام» الملكى فى لندن، ولا شىء سوى بوابة حديدية فى طرف السور يقف عندها من الداخل حارس واحد يختفى معظم الوقت فى كشك الحراسة، ولا تكاد تراه إلا عندما يفتح البوابة لدخول سيارة، ونفس الحال عند البوابة الخلفية للبيت الأبيض الشهير.

تساءلت حين رأيته: أين الحرس.. والحراسة المكثفة؟ وأين الحواجز التى تمنع الاقتراب من مقر عمل وإقامة رئيس أقوى دولة فى العالم الآن؟.

فسمعت الإجابة بأنه لا شىء من ذلك، اعتمادا على الأجهزة الإليكترونية الحديثة وتوفيرا للجهد والمال.

ومع ذلك فلا تمضى فترة دون أن تسمع أو تقرأ خبراً عن شاب أمريكى مغامر، تسلل إلى داخل البيت الأبيض واقترب من مقر إقامة الرئيس الأمريكى، وضبطه الحرس رغم أجهزة الإنذار، والأجهزة الأخرى المعقدة، ونفس الحال بالنسبة لمبنى الكابيتول الذى بنى عام ١٧٩٣؛ ليضم الكونجرس الأمريكى بمجلسيه.. مجلس النواب ومجلس الشيوخ.

وبضعة أيام كافية تماما لأن تستوعب مدينة واشنطن دى سى عاصمة أمريكا وتتعرف على كل ملامحها، وتعرف قصة إنشائها كحل وسط للخلاف بين ولايات الشمال وولايات الجنوب على مقر العاصمة، وكيف انتهى الخلاف باختيار جورج واشنطن لهذا الموقع على ضفة نهر «بوتوماك»، وبناء العاصمة التى أُطلق عليها اسمه، وكان توماس جيفرسون هو أول رئيس أمريكى يحكم بلاده من العاصمة الجديدة.

وبضع ساعات فقط من التجوال فى شوارع واشنطن كافية لأن تلاحظ كثرة عدد السود بها وكثرة عدد «المدهولين» والمتسولين فيها، أما «المدهولون» الذين يسيرون فى الشوارع بلا هدف وهم يتحدثون إلى نفسهم، أو يهذون بكلام غير مفهوم، فأسباب «دهولتهم» الأساسية هى المخدرات والخمر.. ونسبة منهم أيضًا مرضى العقل غير الخطرين الذين يغادرون المستشفيات، وليست لهم بيوت ولا أسر فيهيمون على وجوههم، يستجدون المارة ثمن كوب البيرة ويشتبكون مع أنفسهم فى حديث متصل طويل.

وإذا كانت بضعة أيام كافية أن ترى واشنطن ومعالمها السياحية القليلة، فإن بضعة شهور أخرى لا تكفى لكى تزور كل مدن أمريكا.. وتتعرف على وجه الحياة الحقيقى فيها، فالقارة شاسعة.. ونمط الحياة فيها يختلف من الساحل الشرقى إلى الساحل الغربى ومن الشمال إلى الجنوب، والأمريكى الذى تلتقى به فى نيويورك ليس هو نفسه، فى طباعه وعاداته وقيمه، الأمريكى الذى تلتقى به فى ولايات الوسط الغربى أو ولايات الجنوب.

ومن يتجول فى كل أنحاء أمريكا، يكتشف أن العمران والزحام والكثافة السكانية إنما تتركز فقط فى ولايات الساحل الشرقى وبعض ولايات الساحل الغربى، أما فيما عدا ذلك فأرض «براح»، ومدن شبه خالية من السكان، وغابات ومجاهل وصحارى، لم تقتحم بعد ولم يتم تعميرها بالدرجة الكافية.

وقد فهمت حين تجولت فى أمريكا لماذا مازالت تفتح باب الهجرة إليها حتى الآن.. ولماذا تتغاضى عن وجود ما يقرب من عشرين مليون من البشر فيها بلا أوراق إقامة صحيحة، وكل ما تفعله السلطات الأمريكية إزاءهم هو أنه إذا سافر أحدهم إلى بلاده فإنه يعجز عن دخول أمريكا مرة أخرى.. أما وهو فى أرضها فلا أحد يسأله عن أوراق الإقامة، ولا شرطة تطارده لترحيله، رغم علم الجميع أن إقامته غير قانونية، وهناك تقديرات ترى أن أمريكا تستطيع أن تستوعب من ١٥٠ إلى ٢٠٠ مليون آخرين من البشر، دون أن تضيق بأهلها وسكانها، وهناك من يطالبون بالفعل بزيادة عدد المهاجرين إلى أمريكا عشرين أو ثلاثين مليونا؛ لتنشط الأسواق ولتجد السلع الأمريكية من يشتريها.

وقد زرت مدينة «أوماها» بولاية «نبراسكا» فى الوسط الغربى، والتقيت فيها بأستاذ مصرى ناجح فى جامعتها، فذهلت لاتساع المدينة الهائل وطرقها وشوارعها الشاسعة، ودهشت أكثر من أنها خالية من السكان، حتى ليمكن أن تستوعبهم جميعًا إحدى ناطحات السحاب على حد تعبير مهندس معمارى مصرى، مقيم فى أمريكا.. .لكنهم يبنون المدن للمستقبل وليس للحاضر.

وزرت مدينة «لودرفيل» بولاية فلوريدا فى أقصى الجنوب، ومدينة «بالم بيتش» الساحلية الشهيرة، التى طالما شاهدت معالمها الجذابة فى أفلام السينما الأمريكية فتساءلت.. ولكن أين البشر وأين الزحام.. وأين ضجيج الحياة؟

واستضافنى صديقى محمود بضعة أيام فى بيته بأقصى جنوب فلوريدا، حيث الجو الاستوائى الحار معظم شهور العام، فأعجبت بجمال الطبيعة البكر فى

المنطقة، وجمال البيوت المتناثرة فى أحضانها، لكنى رأيت المنطقة كلها خامدة هادئة لا تكاد تلمح فيها ماراً فى الطريق، ولا وسيلة لشراء مستلزمات الأسرة إلا بركوب السيارة، بضعة كيلو مترات إلى أماكن المجمعات التجارية، أما مدرسة الأبناء فعلى مسافة ٤٠ كيلو مترا، تقطعها زوجته الفرنسية الطيبة السيدة فيفان بالسيارة على الطريق السريع مرتين فى الصباح وفى الظهر؛ لتوصيل ابنيها وإعادتهما من المدرسة للبيت كل يوم!.

أما الطبيعة فساحرة.. وأما قطع أراضى البناء فمتوافرة لمن يريد، وبثمن لا يزيد عن ٨ أو ٩ آلاف دولار، وكلما بدأ بناء بيت جديد أزيلت الأحراش التى تشبه أحراش أفريقيا لبناء البيت مكانها.

والأمريكيون كأشخاص ليسوا حادى الذكاء.. بل ربما كان متوسط ذكاء اليابانى أعلى منه لدى المواطن الأمريكى، لكنهم يندرجون فى إطار نظام اقتصادى واجتماعى ذكى، يستوعب احتياجات الإنسان ويصهر الجميع فى خدمته.. ويجيد استثمار القدرات والإمكانيات، وسر النجاح فى عبارة واحدة هو العمل.. والعلم، العمل الشاق المضنى الذى استعمر به أجدادهم هذه القارة الشاسعة وسيطروا به عليها.

وأبسط نموذج له ما قاله لى أستاذ جامعة مصرى، مهاجر إلى أمريكا منذ عشرين عاما ويعمل حاليا بإدارة الضرائب الأمريكية بواشنطن، من أن رئيسه فى العمل يدخل مكتبه فى السابعة صباحا كل يوم ولا يغادره إلا فى السادسة مساء، ويستعين «بالجيمنزيوم» الموجودة فى المبنى نفسه على تجديد حيويته بأداء التمرينات الرياضية لمدة ٤٥ دقيقة، فى فترة الظهيرة كل يوم.

وكذلك يفعل معظم الموظفين والعاملين فى مختلف الإدارات الحكومية؛ فالنظام الرأسمالى الأمريكى لا يتهاون مع الكسل والتراخى والإهمال فى العمل، والفصل هو أسرع جزاء لمن يتراخى أو يهمل أو يقصر، وإذا كانت القوانين

الاجتماعية تحمى العاملين من الفصل التعسفى فى معظم دول أوروبا، وتجعل منه أمرًا ليس ميسورا إلا بضوابط متشددة، فلا شىء يحول دونه فى أمريكا التى يقوم نظامها الاقتصادى على قاعدة "HIRE AND FIRE" أو عين وافصل كما تشاء، ولا تتردد فى ذلك لأن المهم عندهم العمل والإنتاج. ولأن الإدارة لا قلب لها ولا مكان لديها للعواطف الإنسانية فى أى مجال.

وصحة الأمريكيين تعينهم على تحمل العمل الجاد الذى يرقى إلى مستوى الأشغال الشاقة، وإسرافهم فى الطعام يعوضهم عما يبذلون من طاقة وجهد فى العمل، وحين ترى رجلاً عائداً من عمله يخيل إليك أنه عائد من معركة، وليس من وظيفته أو عمله، ولا يخرج نظامه فى البيت بعد العودة عن تناول العشاء ثم الاسترخاء أمام التليفزيون لمدة ساعة أو ساعتين، يشاهد خلالهما مباريات البيسبول أو كرة السلة، ثم الاستسلام بعدها لنوم ثقيل تداعبه فيه أحلام الثراء والقدرة على سداد الفواتير المختلفة؛ فالثراء هو حلم الجميع الذى يشقون به فى أمريكا، وأقدار الناس تتحدد عندهم بما يكسبون كل سنة، ومن يكسب أكثر من ٤٥ ألف دولار فى السنة يضع قدميه على أول طريق الحياة المريحة، أما الملايين فلا يصنعها إلا رجال المال والصناعة ونجوم البيسبول، الذين كانوا مضربين عن اللعب خلال زيارتى لأمريكا لمطالبتهم برفع أجورهم، وأبطال كرة السلة المشاهير كمايكل جوردان الذى اعتزل اللعب لمدة سنة قائلا لمن حوله: لقد حققت لنفسى كل شىء أردته، ولم يعد لدى ما أريد أن أفعله، واعتزل اللعب والأضواء وتفرغ عاما طويلا للاستمتاع بالملايين التى جمعها فلم يسعده الفراغ، وعاد من جديد للعب واحتفلوا بعودته احتفالا هائلاً.. أما العلم.. الدعامة الأخرى للمجتمع الأمريكى، فينفقون عليه بسخاء يستحق الإعجاب حقًا.. ويعتمدون عليه مع العمل فى التغلب على المصاعب التى تواجه الاقتصاد الأمريكى.

وفى أمريكا ٣٠٠ جامعة تمنح طلبتها درجتى الماجستير والدكتوراه، و٢٨٠٠ كلية جامعية أو معهد عام يلتحق بها الطلبة بعد انتهاء الدراسة الثانوية، وعشرات

الآلاف من مراكز البحث المستقلة، ومراكز الأبحاث العلمية التابعة للشركات والمصانع، ومئات الآلاف من العلماء، وأفضل العقول فى العالم الذين تجتذبهم أمريكا للعمل بها من كل أنحاء الدنيا، ليس فقط بما يحصلون عليه من أجور عالية، ولكن - وهو الأكثر إغراء لهم - بما يجدون من تسهيلات واعتمادات مالية سخية للإنفاق على إبحاثهم، التى قد تستغرق سنوات، دون أن تظهر لها نتائج مبشرة، ومع ذلك فالإنفاق مستمر، والصبر لا ينفد.

قال لى العالم المصرى الكبير الدكتور أحمد زويل، الأستاذ بجامعة كاليفورنيا، إن الكشف الذى توصل إليه فى استخدامات الليزر قد أنفق عليه حوالى ٣٠ مليون دولار، واشترك فيه فريق كبير من الباحثين والمساعدين تقاضوا أجورهم من الجامعة حتى اكتمل البحث، وظهرت نتائجه العلمية الباهرة بعد عدة سنوات من العمل المضنى، بلا كلل ولا يأس من الجامعة ولا تساؤل عما أنفق خلال هذه السنوات.

وخمسة عشر يوما مضت كلمح البصر، وأنا أتنقل بين مدن أمريكا المختلفة، ولم أشعر بعد أننى قد عرفت الحياة الأمريكية أو فهمت كل أسرارها، وحانت ساعة الرحيل فتوجهت إلى مطار نيورك فى جيرسى سيتى لأركب الطائرة عائدًا إلى باريس، وفى خاطرى تساؤل لازال يبحث عن إجابة: ترى كم من الزمن يحتاج المرء لكى يزور كل ولايات هذه الدولة الخمسين الشاسعة؟.

وكم من الزمن يحتاج أن يعيش فيها؛ لكى يستطيع بعده أن يكتب عن أمريكا.. و«يزعم» أنه قد تعرف عليها؟!.

***

١٩

ظننت أنى لن أراك!

كان المشهد المثير الذى رأيته يجري أمامى هكذا، ٤ فتيات وسيدات يجلسن على المقاعد فى صف ناحية اليمين.. و ٤ رجال بينهم رجل متوسط العمر يجلسون فى صف آخر ناحية اليسار، وبين الاثنين يقف شاب مرح شديد الذكاء يدير الحديث، ويبدو كأنه حلقة الوصل بين الجميع، يسأل الشاب المرح إحدى الفتيات الجالسات إلى اليمين عن ظروف نشأتها، فتحكى له أن أمها أنجبتها من صديق لها لم تتزوجه ثم أنجبت بعدها ولدًا، وهجرها صديقها فعجزت عن رعاية الطفلين وحدها فسلمت الابن الصغير إلى دار الرعاية؛ لكى تنظم منحه لأسرة أخرى تتبناه وتضمن له حياة أفضل، ولم تَع ذاكرتها كطفلة هذا الحادث فنسيته تمامًا.. ونشأت فى رعاية أمها التى تزوجت فيما بعد كهلاً ولم تنجب منه، وتعلمت فى المدارس الثانوية وعملت وتزوجت، ثم ماتت أمها فكان بين ما تركته لها رسالة تبوح لها فيها بقصة شقيقها، الذى سلمته لدور الرعاية منذ ٤٠ عاما وتنصحها بالبحث عنه؛ لكى يشد أزرها فى الحياة، فحاولت أن تعرف مصيره من سجلات دور الرعاية لكنها لم تهتد إليه.

وسألها الشاب المرح: وماذا تريدين من شقيقك هذا لو توصلت إليه؟ فترد عليه متعجبة من السؤال: لا شيء سوى أن أراه وأعرفه وأدعوه لزيارتى ورؤية طفلتى، فأن يكون لك شقيق تهتم بأمره وتتصل به فى الأعياد والمناسبات، ويتصل بك من حين لآخر محييًا، إحساس جميل لم أجربه فى حياتى وأتوق لأن أشعر به.

ويؤمن الشاب المرح على كلامها بعطف ظاهر، ثم يتجه إلى صف الرجال

ويسأل رجلاً عن ظروف حياته فيحكى أنه قد نشأ فى أسرة لأب مهندس وأم ربة بيت، وأنه كان طفلاً وحيداً لم تنجب الأسرة غيره.. وطالما تمنى أن يكون له أخ أو أخت كغيره من الأطفال، لكن أباه قال له إنه غير قادر على إنجاب غيره، فيسأله الشاب المرح أيهما كنت تفضل أن يكون لك أخ أو أخت؟ فيجيب إنه كان سيسعد بأيهما.. لكنه لو خير بينهما فإنه كان يتمنى أن تكون له أخت؛ لأن الفتيات أكثر عطفًا وارتباطًا بإخوتهن.

ويؤمّن الشاب المرح على حديثه بتعاطف أيضًا، ثم يدعوه للاقتراب من المنصة التى يقف بالقرب منها ويعطيه ملفا يطلب منه قراءته، فيقرأه باهتمام شديد ثم يتلفت حوله وملامح وجهه تنطق بالتأثر الشديد، ثم يوجه حديثه إلى الفتاة أو السيدة التى روت قصة حياتها ويسألها: هل أنت ابنة وحيدة بلا أخ أو أخت؟ فتجيبه: نعم، فيسألها: هل تحبين أن يكون لك أخ؟ فترد بلهفة: بكل تأكيد، فيقول لها: أنا هذا الأخ الذى تبحثين عنه، فتنهض الفتاة صارخة ويتعانق الفتاة والشاب، وكل منهما يبكى متأثرًا وتشاركهما السيدات الحاضرات بدموع الفرح والتأثر!.

لم يكن هذا المشهد الذى رأيته فيلما سينمائيًّا، وإنما كان حلقة من حلقات برنامج تليفزيونى اسمه «ظننت أنى لن أراك أبدا»، تقوم فكرته على أساس الجمع بين الإخوة والآباء والأمهات والأبناء، الذين فرقت بينهم الحياة وعجزوا عن التوصل إلى بعضهم البعض، وقد تابعت الحلقة باهتمام شديد حين شاهدتها فى غرفة فندقى بمدينة أوماها الأمريكية بولاية نبراسكا، ورأيت بقية الفتيات والرجال يصرخون حين يكتشف كل منهم شقيقه أو شقيقته التى لم يراها أبدًا من قبل، وعرفت أن معدى هذا البرنامج يتلقون طلبات البحث عن الإخوة أو الأبناء المفقودين من المشاهدين، فيمضون الأيام والأسابيع فى البحث عنهم ويتتبعون مصائرهم من سجلات مؤسسات الرعاية الاجتماعية، ويتنقلون وراءهم من أسرة إلى أسرة أخرى تبنتهم بعدها ومن مدينة إلى مدينة، حتى يتوصلوا

إليهم ثم يدعونهم لحضور تسجيل البرنامج، فيفاجأون خلال تسجيله بملف كامل بالوثائق، يثبت لكل منهم أنه شقيق أو أب لهذا الشاب أو تلك الفتاة الجالسة أمامه فى صف الفتيات!.

يا إلهى.. كم يتكلف إعداد مثل هذا البرنامج من وقت وجهد ومال! صحيح أن الإعلانات التجارية هى الممول الأساسى لمثل هذا البرنامج الناجح وتحرص على استغلال لحظات المشاهدة الهامة، التى يحبس المشاهدون فيها أنفاسهم لكى تقطع الحدث، وتطل على المشاهد المترقب بدعايتها عن السلع أو الخدمات التى تروج لها.. لكن يبقى رغم ذلك أنك ستمضى ساعة من الزمن متحفزًا باهتمام شديد لمتابعة ما يجرى أمامك.. وأنك ستسعد باجتماع شمل الإخوة الغائبين، وستتأثر بصرخات الفرح وهيستريا اللقاء والدموع، وقد تشاركهم فى لحظات الصدق الإنسانى النادرة هذه بعض مشاعرهم وبعض دموعهم، ومؤكد أنك سوف تتساءل كيف يجد مثل هذا البرنامج «مادته» المثيرة هذه باستمرار.. أو لماذا تلجأ فتاة أو شاب إلى البحث عن أخ أو أخت مفقودة عن طريق هذا البرنامج، بدلاً من نشر إعلان بالصحف أو التليفزيون باسم الأخ الغائب أو الأخت الغائبة ثم ترقب اتصاله بصاحب الإعلان؟.

والجواب هو أن هؤلاء الإخوة لا يحملون أسماء عائلية واحدة؛ لكى يعرف كل منهم أنه المقصود بهذا الإعلان، وإنما يحمل كل منهم اسمًا عائليًّا، مختلفًا، لهذا فلا فائدة من محاولة البحث عنه بطريق الإعلان المباشر، أما كيف يجد هذا البرنامج وأمثاله مادته المثيرة باستمرار، فلأنها متوافرة بكثرة فى المجتمع الأمريكى، الذى يبيح التبنى الكامل بمعنى نسبة الأطفال المتبنيين إلى «آبائهم» الجدد، وتغيير كل أوراقهم الرسمية من شهادة الميلاد إلى ملف أوراق المدرسة أو البطاقة الشخصية بالاسم الجديد، فينشأ الطفل وهو لا يعرف له أبا ولا أما سوى من يحمل اسميهما فى أوراقه، ويمضى فى الحياة جاهلاً جذوره العائلية، إلى أن

يفاجأ ذات يوم وهو فى سن الشباب أو الرجولة أو وهو زوج وأب بمن يقول له: هل تحب أن يكون لك أخ أو أخت، تحبك وتهتم بأمرك وتتبادل معك بطاقات التهنئة فى الأعياد والمناسبات؟.

فيجيب سائله: نعم ومن يكره أن يكون له من بين زحام البشر من يحبه ويتعاطف معه.. ويتذكره فى المناسبات الدينية والأعياد؟.

فتبدأ إجراءات الجمع بين أخيه أو أخته الباحثة عنه.. إلى أن تتوج بنهايتها الدرامية أمام كاميرات التليفزيون وأمام المشاهدين، ولأن أعداد الأطفال الذين يتم ترتيب تكفل أسر أخرى برعايتهم وتنشئتهم كثيرون الآن فى المجتمع الأمريكى على وجه الخصوص، فلقد ظهرت مشكلة هؤلاء الغرباء على السطح ووجدت فيها برامج التليفزيون المتخصصة فى تقديم الجديد والمثير دائمًا مادتها الخصبة الوفيرة.

وأصل المشكلة دائمًا هو ذلك القانون، الذى يسمح للأسرة الجديدة بأن تنسب الطفل إليها وتغير كل أوراقه الرسمية إلى الاسم الجديد، وجزء كبير من هؤلاء الأبناء الذين ينتهى مصيرهم إلى دور الرعاية فى انتظار تكفل أسر أخرى بهم.. أنجبتهم فتيات مراهقات فى سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة، وعجزن بالطبع عن تحمل مسئوليتهم فسلمنهم طائعات إلى دور الرعاية، وفى هذه الدور قد يمضون كل حياتهم إلى أن يخرجوا للحياة فى سن الثامنة عشرة، وقد يسعدهم الحظ باختيار أسرة أمريكية لهم فينضمون إليها وينشأون فى أحضانها، وبعضهم قد تعيده هذه الأسر إلى الدار نفسها بعد بضع سنوات لتغير ظروفها الاجتماعية أو لوفاة الأم وهى عصب الأسرة، أو لعدم التواؤم بينها وبين الابن الجديد، فيرجع الطفل إلى الدار، وقد يمضى بها سنوات أو شهوراً جديدة إلى أن يصل إلى سن الشباب، فينطلق فى الحياة معتمداً على نفسه وغير شاعر بالانتماء العائلى لأية أسرة فى الوجود، وقد شاهدت منذ فترة فيلما أمريكيًّا مثيراً عن قضية الصبى،

الذى أقام دعوى أمام المحاكم الأمريكية، قدمتها باسمه محامية مهتمة بقضايا الأسرة، يطلب فيها أن «يطلق» أبويه، ليكون من حقه أن ينتمى إلى أسرة أخرى وجد لديها من العطف والاهتمام ما لم يجده لدى أبويه!.

وقد أقيمت الدعوة فعلا كدعوى طلاق، وقالت المحامية المتحمسة للقاضى إن الصبى «جريجور» يرغب فى طلاق أبويه لأنهما لم يحسنا رعايته، فالأب عاطل وسكير ولا بيت له كما أنه منفصل عن زوجته، والأم عابثة وسكيرة وتسمح لعشيقها بالإقامة فى بيتها، وهو رجل فظ ولا يشعر بالعطف على هذا الصبى الوحيد، وقد اعتدى عليه بالضرب أكثر من مرة، والغريب أن الأسرة التى تبنت هذا الصبى لم تكن محرومة من الأطفال، بل كان لديها ٦ أبناء.. لكن الأب الذى يتطلب عمله زيارة دور الرعاية والتفتيش عليها شاهد هذا الصبى، وشعر بعمق احتياجه النفسى إلى أن يظله سقف أسرة مستقرة يتبادل أفرادها العطف والاهتمام، فأسر إلى زوجته برغبته فى ضم هذا الصبى الحائر إلى أسرته، ولم تتردد الزوجة العطوف طويلاً قبل الموافقة على رغبة زوجها، وبدأ الاثنان بالفعل فى رعاية الصبى والاهتمام به، لكن الأب ظهر على المسرح فجأة وطلب ضم ابنه إليه ورفض الصبى بإصرار، واختلى به رب الأسرة وحدثه طويلاً عن حاجة ابنه إلى مكان آمن يعيش فيه، ولن يستطيع هو توفيره له، وهو ينتقل من مكان إلى مكان بلا مسكن ثابت ولا عمل مستقر، وتأثر الأب بصدق رغبة رب الأسرة ووقع له إقراراً بموافقته على ضم ابنه إلى هذه الأسرة.

وتصورت الأسرة الأمريكية أن متاعبها قد انتهت.. لكن أم الصبى فاجأتها بطلب نزع الصبى من أحضانها وإعادته إليها فهى أم عابثة حقـًّا.. لكنها أم أيضًا فى النهاية ولا تريد أن تتنازل عن طفلها، وحار رب الأسرة ماذا يفعل للاحتفاظ بالصبى الذى ارتبط به هو وزوجته وأبناؤه ارتباطًا عاطفيـًّا ونفسيـًّا عميقًا، والقانون فى صف الأم ليس لأنها أمه الطبيعية فقط، وإنما لأن لديها مسكنًا ثابتًا

يمكن أن ينشأ فيه الصبى، وعملا صغيراً يمكن أن يتكفل بنفقات الحياة، وهذان هما العاملان الأساسيان، اللذان تتحرى المحكمة توافرهما، لكى تحكم بإعادة الطفل إلى أمه.

واستشار رب الأسرة محامية صديقة متخصصة فى شئون الأسرة، فتعاطفت مع الصبى بعد أن زارت أمه وتيقنت من عجزها عن أن تقدم لأبنها المثل الذى ينبغى أن يحتذيه فى حياته، فتفتق ذهنها عن فكرة هذه الدعوى الغريبة التى لم تشهد لها المحاكم الأمريكية مثيلاً من قبل.. دعوى طلاق يقيمها الصبى ضد أبويه؛ بحجة عجزهما عن حمايته من أخطار الحياة ورعايته الرعاية الكافية.

وشهدت جلسات المحكمة وقائع مثيرة، أثبت فيها الصبى أن عشيق أمه قد ضربه بعنف أكثر من مرة، وأن أمه تقضى معظم أيامها مخمورة وتهمل رعاية طفلتها الصغيرة ورعايته.. وبعد جلسات طويلة عاصفة حسم القاضى النزاع بحكم يثير التأمل، وقال للحاضرين قبل أن يعلنه: إن حقوق الأبوة والأمومة ليست حقوقًا أبدية غير قابلة للتحويل، وإنما تكتسب هذه الحقوق بالتضحيات التى يقدمها الآباء والأمهات لأبنائهم، وبالحب الذى يحملونه لهم وبالمسئولية التى يتحملونها عنهم، وعلى ضوء ما لمست فى وقائع هذه القضية فإنى أشعر أن «جريجور» يستحق أن يعيش فى عالم آخر، يشعر فيه بالأمان والحب اللذين يفتقدهما فى بيت أمه.

ثم توجه القاضى بحديثه إلى الصبى قائلاً: من الان أنت ابن جورج روس، وإليزابيث روس، فانصرف مع «أبويك» مشكوراً!.

وغادر الصبى مبنى المحكمة فى صحبة أبويه البديلين، وبكت أمه الحقيقية وهى تقول إنها تتمنى له حياة أفضل ومستقبلاً آمنًا فى رعاية هذين «الأبوين»!.

وقد أثارت هذه القضية ضجة كبيرة فى وسائل الإعلام الأمريكية وفى العالم كله منذ بضعة أعوام، وقدمتها السينما الأمريكية فى فيلم شبه وثائقى التزم إلى

حد كبير بوقائع القصة الحقيقية، وكتبه بإتقان كاتب السيناريو الشهير بلير فيرجسون. . وقد استغرقتنى أحداث هذ الفيلم بشدة وتعاطفت مع الأبوين اللذين يرعيان ستة أبناء،واتسع قلبهما رغم ذلك للاهتمام بصبى خائف وحيد، ولم أتعاطف كثيراً مع الأم العابثة المخمورة التى كاد طفلها يلقى مصرعه بسبب إهمالها.

لكنى رغم ذلك قد تحفظت على ما يسمح به القانون الأمريكى وقوانين معظم الدول الأوروبية من انتساب الطفل رسميًّا إلى رجل آخر غير أبيه، ومن تغيير كل أوراقه الرسمية إلى الاسم الجديد، كأنما لم يكن له أب أنجبه من صلبه، مهما كان الرأى فيه، وكأنما لم تكن له أم حملته وهنًا على وهن، ووضعته فى لحظة ميلاد كان الموت أقرب إليها فيها من الحياة، وتمنيت لو كانت هذه الأسرة قد ضمته إليها باسم أبيه وأمه الطبيعيين، وتذكرت حكمة الآية الكريمة التى حرمت نسبة الأبناء لغير آبائهم فى قوله جل شأنه:

﴿ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله﴾ واسترجعت هذه الآية مرة أخرى، حين شاهدت حلقة ذلك البرنامج المثيرة **«ظننت أنى لن أراك أبداً»**.

وشاهدت أشخاصًا فى سن الرجولة. . وسيدات فى سن النضج يتلهفون جميعًا على أن «يعرفوا» إخوتهم، الذين فرقت بينهم رحلة الأيام وحرمتهم من التعرف عليهم سنوات طويلة لهذا السبب وحده. . وهو نسبة الأبناء لغير آبائهم وأمهاتهم.

فسبحان من جلت حكمته عن الأفهام. . ورأى للبشر ما فيه صلاح أمرهم، فعمى البعض عن مغزى حكمتـه، فـكانت النتيجـة أن تجاور بعض الأبناء وهم لا يعرفون بعضهم بعضًا، حتى جاء مقدم هذا البرنامج، وتولى تعريف كل منهم بالآخر. . ونال شهرته من هذه المهمة الإنسانية العجيبة!.

* * *



٢٠

أكره أمي!

لفت انتباهى هذه العبارة الغريبة، فتجمدت فى مقعدى لأعرف من ذلك الذى يكره أمه وما أسبابه! أرهقتنى المقدمات الطويلة والإشارات المتكررة قبل بدء جلسة المصارحة، فاعتصمت بالصبر حتى بدأت وقائعها المثيرة. . أما الجلسة نفسها فعلنية وكل شىء فيها على رؤوس الأشهاد بلا تحفظ ولا حساسية!.

وأما الأم المكروهة فسيدة فى الثالثة والأربعين من عمرها، تبدو قوية الشخصية ومازالت تحتفظ بقدر ملحوظ من جمالها. . وأما الابنة الكارهة ففى الثالثة والعشرين ومتزوجة ولها طفلة وليدة. . ولا تقل جمالاً إن لم تزد عن أمها. . أما أسباب الكراهية كما روتها الابنة للحاضرين ـ وأمها تجلس فى مقعد ملاصق لها ـ فهى أنها قاسية ومتسلطة وكانت تضربها وهى طفلة وتتهمها بالكسل والتراخى فى أداء أعمال البيت، ورعاية شقيقها الأصغر منها فى غياب الأم. . ومازال فى ظهرها أثر قديم من علقة نالتها منها؛ لأنها تركت شقيقها الصغير وحده فى البيت. . وخرجت للتنزه مع صديقاتها مخالفة بذلك تعليمات الأم لها. .

فإذا كانت هذه الأسباب كافية لأن تبرر نظرة الكراهية البغيضة التى توجهها لأمها أمام الحاضرين، وهى تروى ذلك عنها، فالسبب الأهم الذى يبرر لديها كل ما تحمله لها من بغض هو أنها تعتبرها مسئولة عن موت أبيها، الذى كان يعطف على ابنته، ويخفف عنها جفاء أمها معها. . أما كيف مات الأب واعتبرت الابنة أمها مسئولة عن ذلك. . فلقد انتحر بإطلاق الرصاص على رأسه، بعد أن

تمسكت الأم بطلب الطلاق منه وفشل فى إقناعها بالعدول عنه، وجريمتها الكبرى عند الابنة هى أنها لم تتحسَّب لهذه الرغبة عند الأب، ولم تقم بتأمين المسدس بحيث يتعذر عليه استعماله حين يرغب فى الانتحار، وكانت النتيجة أن أمسك به وأفرغ رصاصاته فى رأسه، ولو كانت الأم قد أرادت إنقاذه لنزعت كبسولة إطلاق النار من المسدس وأخفتها!.

وروت الابنة كل ذلك وهى تنظر إلى أمها فى تحد سافر وكراهية قاتلة.. كأنما لم تكن أمها.. ولم تكن هى ذات يوم طفلتها الصغيرة، وحين جاء دور الأم لتدافع عن نفسها، قالت فى ثبات تحسد عليه ـ وإن كانت مكتئبة ـ إن ابنتها كانت فى طفولتها وصباها طفلة كسولة ولا تريد أن تشارك أمها أية أعباء منزلية، فكان من واجبها أن ترغمها على القيام بواجباتها لمصلحة الأسرة كلها ولمصلحتها هى أيضًا فى المستقبل؛ لأنها لو كانت قد تركتها لنفسها لما فعلت شيئًا أكثر من التجول خارج البيت طوال الوقت، تاركة شقيقها الصغير وحده بلا رعاية فى غياب الأب والأم فى عملهما أو بعض مشاغلهما الأخرى، أما الضرب فلم يكن بالصورة الوحشية، التى تحاول ابنتها أن تصورها بها للحاضرين، ولم يتجاوز بضع مرات للضرورة القصوى، وأما مسئوليتها عن موت الأب أو انتحاره، فأكذوبة سخيفة لا يصدقها إلا عقل مريض كعقل هذه الابنة الجاحدة التى ترفض أمها، وتقطع كل صلة بها منذ ٣ سنوات ولا ترد على مكالماتها.. ولا تسمح لها بأن تزورها فى بيتها أو أن ترى حتى حفيدتها منها، ولقد تزوجت أباها بعد قصة حب صادقة وتبادلا الحب بضع سنوات بعد الزواج، وأنجبا طفلين، ثم انهار الزواج كما تنهار زيجات كثيرة وطلبت الطلاق من زوجها فماذا فى ذلك!.

وقبل أن تسمع الأم جوابًا من الحاضرين، قاطعتها الابنة قائلة فى شراسة: لماذا لم تؤمِّن المسدس لكيلا ينتحر به أبى؟.

فتجيبها الأم فى برود: أبوك حاول الانتحار ٤ مرات، ونجح فى المرة

الأخيرة، وإذا كنت لم أؤمن السلاح بحيث يتعذر انطلاق الرصاص منه فلعلى كنت مغفلة حين لم أنتبه لذلك، لكنه ليس كل إنسان يعرف كيف يتعامل مع السلاح.. فما الخطأ الذى فعلته؟.

وترد عليها الابنة فى تحدٍ واضح: وما الصحيح الذى فعلتيه؟ فلا تفقد الأم أعصابها ولا تنتفض ثائرة عليها.. وإنما تقول لها بلهجة ذات معنى: يكفى أننى لم أقل عنك إنك قاتلة أو عاهرة كما تقولين عنى، لمجرد أننى تزوجت رجلاً آخر بعد أبيك.. فلماذا أنت غاضبة منى هكذا؟.

فتقول الابنة: لأنك لم تكونى موجودة أبداً فى البيت حين كنا نحتاج إليك!.

وتتجه الأم بنظرها إلى ابنها الشاب، وتقول له: قل لهم كم هى كاذبة.. وكم هى ظالمة لى، وتتوجه إليه الأنظار فيقول الشاب فى شىء من الحرج - ولعله كان الوحيد الذى يشعر به فى هذه الجلسة الغريبة - إن أخته تقاطع أمها منذ ثلاث سنوات وترفض التحدث معها، وأنه حاول منذ عام إقناعها بأنه لا جدوى لما تفعله مع أمه لأنه لن يعيد أباهما إلى الحياة، ولكنه لم ينجح فى إزالة المرارة والبغضاء من نفس أخته تجاه أمها، أما أمه فقد حاولت التودد كثيراً لأخته لكنها لم تجد منها سوى الجفاء.. وهو حائر وممزق بين الاثنين.. لكنه لا يلوم أمه فى شىء.. ولا يرى فيها أمـًّا قاسية كما تراها أخته.. وتتدخل الأم فى الحديث لتكشف عن جانب آخر من أبعاد المشكلة مع ابنتها فتقول: إنها تركت البيت حين بلغت العشرين من عمرها، وفضلت أن تعيش وحدها، ولم تعترض الأم على ذلك مادامت لا تجد راحتها فى العيش مع أمها فى مكان واحد، لكن الابنة الساخطة عليها غادرت بيتها.. وأرادت منها فى الوقت نفسه أن تدفع عنها إيجار مسكنها المستقل ونفقات حياتها المنفردة.. ورفضت هى ذلك لأنه ليس من العدل أن تدفع لمن يكرهها ويريد الابتعاد عنها، وهذا هو سبب غضبها الحقيقى منها!.

وتنفعل الابنة نافية عن نفسها ذلك، وإن كانت قد ارتبكت بعض الشيء وظهرت عليها لأول مرة منذ بداية الجلسة الغريبة بعض آثار الحرج، وحاولت أن تؤكد أن المسألة أعمق وأبعد أغواراً من ذلك بكثير، فأمها قد أهدرت طفولتها فى البداية، ولم تعترف لها بحق اللهو واللعب كأى طفلة فى سنها، بل كانت تقول لها دائمًا إنها «غلطة» تورطت فى مجيئها للحياة، بعدم استعمالها لوسائل منع الحمل فى الوقت المناسب، فإذا أرادت أمها أن تمحو كل هذه المرارة من نفسها فلتعتذر لها أمام الجميع عما سببته لها من آلام خلال مرحلة الطفولة وبداية الشباب. . أما هى فلا تستطيع الاعتذار لأحد عن أنها كانت طفلة لها أخطاء الأطفال وتصرفاتهم، وتتعلق العيون بالأم التى تجلس صامتة ترقب ابنتها بنظرة جامدة، فصمتت الأم لحظات ثم وجهت الحديث إليها قائلة: أتريدين منى اعتذاراً عن كل ما حدث بيننا؟.

وهل نبدأ صفحة جديدة فى علاقتنا معًا إذا اعتذرت لك؟ إذا كان الأمر كذلك. . فإنى أعتذر لك أمام الجميع!.

ثم بكت. . واقتربت من ابنتها لتحتضنها. . فلم تصدها الابنة ولم تبادلها فى الوقت نفسه حرارة العواطف، وإنما مالت بجسمها إليها بعض الشيء لتمكنها من احتوائها بين ذراعيها واحتضانها.

وتنفس الحاضرون الصعداء، وصفقوا طويلاً لانتهاء صفحة القطيعة والمرارة بين أم وابنتها.

وتدخل «وسيط الخير» بين الطرفين فى الحديث، وقال للأم وابنتها معًا: إن بينكما تاريخًا من الغضب المكتوم والكراهية. . ولقد كان بإمكان كل منكما أن يطوى صدره على هذه المشاعر البغيضة تجاه الآخر إلى نهاية العمر. . لكن ذلك لم يكن أمراً عادلاً ولا سليمًا، ذلك أنكما تستطيعان بكل تأكيد أن تلقيا بكل هذه الظلال الكئيبة وراء ظهريكما، وتبدآ معًا مرحلة جديدة من علاقتكما معًا، فهذا

هو الاختيار الحكيم حقـًـا فى مثل هذه الظروف، وها أنتما قد بدأتما الخطوة الأولى فى هذا الطريق وأرجو أن تواصلاه إلى النهاية.

أما وسيط الخير هذا فلم يكن صديقًا للأسرة ولا قاضيًا للأحوال الشخصية، وإنما كان المذيع الأمريكى المعروف جيرى سبرنجر، وأما الحاضرون الذين تابعوا باهتمام تفاصيل قصة الخلاف بين الأم وابنتها من البداية للنهاية، فلقد كانوا جمهور برنامج «جيرى سبرنجر شو» الناجح، وأما الأم وابنتها فشخصيتان حقيقيتان من شخصيات المجتمع الأمريكى الغريب، الذى لا يرى بأسًا فى مناقشة أدق الشئون الشخصية أو العائلية للإنسان على الملأ وأمام الجميع.

وأما البرنامج نفسه فهذا هو خطه وطريقته فى التوفيق بين المتخاصمين والمتغاضبين، بأن يجمع بينهم أمام جمهور البرنامج ليواجهوا بعضهم البعض بالاتهامات، ويفرغوا ما فى صدورهم من مرارة وكراهية أمام الآخرين اعتمادًا على فكرة أن مجرد تبادل شخصيتين متغاضبتين الحديث فيما بينهما، وطرح موضوع الخلاف بينهما للمناقشة، فيقول كل منهما أسبابه ووجهة نظره فيه، وإنما يقرب من أمل الصلح بينهما ويعتبر خطوة إلى الأمام فى علاقتهما معًا، ولهذا يطلب البرنامج فى بداية كل حلقة من مشاهديه أن يكتبوا إليه بأسماء الأشخاص المتغاضبين معهم وعناوينهم ليجمع بينهم فى جلسة مصارحة، قد تؤدى بهم إلى الصلح واستعادة العلاقة الإنسانية المبتورة.. ويبذل معدوه جهدًا كبيرًا فى البحث عن هؤلاء الأشخاص، ودعوتهم للحوار مع من يختلفون معهم.

ولقد كانت الأم فى هذه الحلقة المثيرة التى شاهدتها فى غرفتى بفندق هوليداى إن بواشنطن هى التى اتصلت بهذا البرنامج.. وطلبت من معده أن يسعى فى الصلح بينها وبين ابنتها، التى تزوجت منذ أكثر من عام، وأنجبت مولودة لم تسمح لها بعد برؤيتها، وكانت عبارة «أكره أمى» هى عنوان هذه الحلقة المثيرة «وإشارته» التى ظلت تتردد بين لحظة وأخرى خلال إذاعتها.

أما أخر المفاجآت المذهلة، فقد جاءت حين انتقلت كاميرا البرنامج مع الأم والأخ لزيارة الابنة فى بيتها لأول مرة، بعد جلسة المصارحة والمصالحة بينهما أمام الجمهور لتسجل استقبال الابنة لأمها.. ورؤية الجدة لحفيدتها لأول مرة، فإذا بالابنة ترفض استقبال أمها وتقول لمذيع البرنامج: إنها إذا كانت قد تصارحت أو تصالحت مع أمها تحت ضغط مشاعر الحاضرين فى البرنامج، فإنها مازلت تحتاج إلى بعض الوقت قبل أن تستطيع التصرف بطريقة طبيعية مع أمها، ولهذا فهى تطلب تأجيل هذه الزيارة إلى أن تتهيأ لها نفسيًا فيما بعد.. ويوافقها زوجها على ذلك!.

ويخرج المذيع ليبلغ الأم برد الابنة وهو محرج، فلا تفقد الأم ثباتها رغم مسحة الألم الواضحة، وتقول له: ماذا تريد منى هذه الفتاة لكى تنسى؟ لقد طلبت منى اعتذاراً وقدمته لها، فماذا تريد أكثر من ذلك؟!.

ويشعر الابن الشاب بالعطف على أمه.. ويربت على ظهرها فتحتضنه وتسيل دموعها فى حسرة وألم! ويجرى كل ذلك على رؤوس الأشهاد وأمام عيون المشاهدين ولا خجل.. ولا حساسية.. ولا أى اعتبار لخصوصية الإنسان وأسراره العائلية والشخصية!.

فماذا يمكن أن نسمى هذا النوع العجيب من البرامج التليفزيونية، التى تهتك ستر الحياة العائلية للأفراد وتضع كل أسرارها ومشاكلها على مائدة البحث تحت أنظار الملايين؟ ومن الضحية من بين هاتين السيدتين؟

لقد تعاطفت مع الابنة فى البداية وكرهت أمها حين تحدثت عن قسوتها عليها فى طفولتها.. ومسئوليتها عن انتحار الأب يأسًا من الحياة لإصرارها على الطلاق منه.

ثم تعاطفت مع الأم تدريجيًا بعد ذلك حين أحسنت الدفاع عن نفسها، وأوضحت الجانب الآخر للمشكلة، وتخلت عن مظهرها الجامد وراحت

تستجدى مشاعر ابنتها الكارهة، وتعتذر لها أملا فى أن تستعيد علاقتها الإنسانية معها.

ثم كرهت الابنة كثيراً فى النهاية، حين رفضت استقبال أمها فى بيتها والسماح لها برؤية حفيدتها.. ورأيت فى تصرفها هذا حقداً مريراً لا يجدى فى تبريره شيء، واجتراءً على حقوق الأم لا تغسله مياه البحر بمفهومنا نحن «متخلفى» العالم الثالث، ممن لا يزالون يتمسكون بالقيم العائلية ويؤمنون بها.

وهكذا فقد بدأت بكراهية الأم.. وانتهيت بكراهية الابنة.. وأشياء أخرى كثيرة فى مفاهيم المجتمع الأمريكى الصاخب عن الأسرة والأبناء وحقوق الأبوين وحدود الحياة الخاصة للإنسان.. لكن هذه قصة أخرى!

* * *

٢١

بيت من زجاج!

إذا كانت هذه هى حياة الرئيس الأمريكى حقًّـا أو أى رئيس.. فلا كانت الرئاسة.. ولا كانت مظاهر الحكم ولا سطوته؟.

فهذا الفيلم الممتع الذى شاهدته خلال رحلة الطائرة الطويلة من باريس إلى نيويورك، يقول لنا إن الرئيس الأمريكى يعيش فى بيت من زجاج لا يخفى شيئًا، وإن كل شىء فى حياته ابتداء من أخص الخصوصيات إلى الشئون العامة، يتم على رؤوس الأشهاد وفى العلن.. وعلى عينك يا تاجر.. كما يقولون، فإذا أحب امرأة حتى ولو كان أرملَ محرومًا وفى حاجة إلى حنان امرأة، فلن يستطيع أن «يحبها» وحده، وإنما سوف يكون معه حراسه وسكرتيرته الخاصة.. ومستشاره السياسى، بل وسكرتيره الصحفى أيضًا!.

وإذا أراد أن يرسل إليها باقة زهور تعبر لها عن حبه وأشواقه، فلسوف يعرف ملايين المواطنين بهذا الخبر السعيد، وسوف تذيع محطات التليفزيون.. وتنشر الصحف كل شىء عن نوع الورود وثمنها.. وتجتهد فى تفسير مغزاها، وهل هى بمناسبة عيد ميلاد الصديقة أم بمناسبة دعوته لها للعشاء!.

أما إذا استضاف من يحبها فى استراحته خلال عطلة نهاية الأسبوع، فلسوف تهتك الصحافة والتليفزيون سره هذا.. وتحول المناسبة الخاصة إلى مناسبة علنية، وسوف يناقش منافسه فى الانتخابات قصته مع فتاته هذه ويتهمه بالانشغال عن شئون الدولة، مع أن الرجل يعمل ١٦ ساعة كل يوم، ولا يكاد يجد لحظات

ينفرد فيها بالحديث مع ابنته المراهقة، التى تحتاج إلى صدر أم يحتويها، وحكمة أب يهديها إلى سواء السبيل! والفيلم يبدأ بالرئيس الذى يحكم أقوى وأغنى دولة فى العالم.. وهو يسير فى ممرات وأبهاء البيت الأبيض متجها إلى مكتبه، تتقدمه بخطوة سكرتيرته السمراء المخلصة لتذكره بأسماء كل من يصادفه فى الطريق من العاملين بالبيت الأبيض، فيحييهم أو يرد عليهم تحيتهم بأسمائهم ليشعر كل منهم أن الرئيس يعرفه على المستوى الشخصى، فما أن يقتربا من البستانى الأسود ويحييه البستانى باحترام: صباح الخير يا سيدى الرئيس، حتى تهمس السكرتيرة الذكية على الفور: شارلى!.

فيسارع الرئيس الأمريكى برد التحية قائلاً: كيف حالك يا شارلى؟ فإذا دخلا جناح مكتب الرئيس.. ونهض العاملون به لتحية رئيسهم، تعمدت السكرتيرة أن تقول لإحدى الموظفات: عيد ميلاد سعيد يا فلانة، فيسارع الرئيس بتهنئتها بعيد ميلادها، وتبتسم الموظفة فى سعادة بمجاملة الرئيس، الذى لا ينسى حتى أعياد ميلاد العاملين معه! ويقول الرئيس لسكرتيرته: أرسلى إليها باقة زهور باسمى، فتجيبه مبتسمة.. لقد فعلت!.

ثم يدخل الرئيس إلى مكتبه البيضاوى الشهير، الذى يتأثر العالم بما يصدر عنه من قرارات واتجاهات، ويبدأ يومه الحافل فيدخل إليه مستشاره السياسى، ويعرض عليه الأمور العاجلة.. ويدخل إليه سكرتيره الصحفى الشاب حاملاً معه آخر أخبار منافسه على الرئاسة وحملته الانتخابية، وتقف السكرتيرة الشخصية متأهبة لتسجيل كل ملاحظة أو قرار شفوى، ونلحظ نحن بسهولة أن الجميع مفتونون بشخصية هذا الرئيس الجذاب المتواضع، الذى يعاملهم جميعًا بحب واهتمام وبساطة، ونلمس عمق العلاقة الإنسانية بينه وبينهم جميعًا، وخاصة مستشاره السياسى الذى نفهم من تطور الأحداث أنهما كانا زميلين فى الدراسة، وأن هذا المستشار ظل دائمًا إلى جوار صديقه أو بمعنى أصح وراءه بخطوة؛ لأنه يؤمن به، وبمواهبه وقدراته طوال رحلة صعوده السياسى.

فلا عجب بعد ذلك أن يكون صديقه الأفضل والأقرب إليه، يمضى معه أوقات فراغه القليلة فى جناحه الخاص يلاعبه البلياردو، ويتبادلان الحديث فى شئون الحياة العادية.

وأما يوم الرئيس فطويل وحافل باللقاءات والاجتماعات واللجان والاتصالات التليفونية وأما ليله فجاف وبارد وممل، فالرجل يعيش وحيداً مع ابنته التى لا يتجاوز عمرها ١٤ عامًا، بعد رحيل زوجته منذ ثلاث سنوات متأثرة بالمرض الخبيث، وهو يرجع إلى جناحه الخاص فى السابعة أو الثامنة مساء، فيجد ابنته الوحيدة تغالب الملل، وقد اكتسبت طابعًا من الحزن الدائم الشفيف، بعد رحيل أمها وافتقادها للصحبة الملائمة لها.

ويمضى الأب مع ابنته بعض الوقت، محاولاً أن يتسلل إلى أعماقها الحزينة والتخفيف عنها، لكن هيهات أن يطول حديثهما كثيراً فجناح الرئيس كمكتبه تمامًا مفتوح الأبواب ليلاً ونهاراً لكل طارق، وفى كل لحظة يدخل عليه من يبلغه بنبأ هام، أو يطلب منه قراراً بشأن موقف طارئ، فإذا اختلى بنفسه بعد ذلك فى فراشه يشاهد التليفزيون، لم يسلم الأمر بعد ذلك وفى أية ساعة من الليل من اقتحام مفاجئ لوحدته فى الفراش، وهو عارى الصدر لا يرتدى إلا الشورت الداخلى، من مستشاره السياسى أو سكرتيره الصحفى أو سكرتيرته أو أحد رجال أمنه؛ لإبلاغه بحدث هام ودعوته للنهوض من فراشه لاتخاذ ما يراه ملائمًا بشأنه!.

وفى وسط هذه الظروف كلها، أبلغه مساعدوه أن مشروعه لتخفيض الإنفاق الحكومى سوف يلقى معارضه قوية داخل الكونجرس الأمريكى، وأن اللجنة التى خصصها لإقناع الأعضاء به تواجه صعوبات قوية بسبب إحدى عضوات لجنة فنية من لجان الكونجرس، تتزعم معارضة مشروعة وتؤثر بموقفها على بعض الأعضاء، ويطلب الرئيس مقابلة هذه السيدة أملاً فى أن ينجح فى تخفيف حدة معارضتها، وتجئ السيدة الشابة لمقابلته فى مكتبه، فما أن تقع عينه عليها حتى

يخفق قلبه بشدة. . ويكاد يفقد سيطرته على نفسه، ويتساءل ذاهلاً يا إلهى ماذا دهانى حين رأيت هذه السيدة؟ ثم يتمالك نفسه بصعوبة ويناقشها فلا يجد منها إلا كل إصرار على موقفها، وتنتهى المقابلة بينهما بلا نتيجة حاسمة.

وفى المساء يجد نفسه جالسًا فى جناحه، ولا شىء يشغل ذهنه سوى هذه السيدة الجميلة العنيدة، يجمع وجهها بين نقيضين فتبدو مبتسمة، وعلى وشك البكاء فى الوقت نفسه، وبعد تردد طويل يرفع سماعة التليفون، ويطلب رقم تليفون هذه السيدة، ويقول لها بصوت مرتجف:

ـ أنا فلان! هل تحبين أن تتناولى معى العشاء فى أى يوم مناسب لك؟.

وتبدأ قصة غرام الرئيس الأمريكى بهذه السيدة الشابة الجميلة، التى أيقظت مشاعره الحميمة وحنينه القديم للحب والحياة، وبعد بضعة مناوشات بينها وبينه تستجيب لدعوته وتصبح صديقة الرئيس، التى يوقف موكبه الرسمى فى الشارع أمام محل الزهور من أجلها وينزل ليشترى لها باقة ورد!.

لكن لأنه يعيش فى بيت من زجاج، فلقد شاركه قصته معها عدد لا يحصى من العاملين بالبيت الأبيض وأمن الرئاسة وجهاز المخابرات، وأصبح الجميع يعرفون «صديقة الرئيس» ويحيونها باحترام ومودة حين تجىء لمقابلته.

ثم لم تلبث الأنباء أن تسربت بسهولة إلى خارج البيت الأبيض، فنشرت الصحف وأذاعت محطات التليفزيون كل شىء عن غرام الرئيس وبأدق التفاصيل!.

والتقط الخيط المرشح المنافس الذى يحلم بمقعد الرئاسة فى الانتخابات القادمة، ليستخدمه فى تشويه صورة منافسه، وإفشال مشروعه فى الكونجرس للقضاء عليه.

ويعتمد الرجل فى حملته على تجريح الرئيس واتهامه بالعبث والمجون، وفى كل مؤتمر انتخابى يعقده يتحدث عن «صديقة الرئيس» ومغامراته معها، والرئيس

الأمريكى يرقب ما يقال فى التليفزيون وفى الصحف. . ويتألم ليس لتجريحه هو وإنما لتجريح فتاته التى أحبها بصدق، ورغم ذلك فإنه يلتزم الصمت تجاه هذه الحملة القذرة ويتعفف عن الرد عليها.

وترتفع حدة هجوم المرشح المنافس عليه. . ويزداد وقاحة وعدوانية تجاهه، ويشعر السكرتير الصحفى الشاب بأن من واجبه أن يتصدى لهذا الحملة وإلا أثرت تأثيرًا سلبيًّا بليغًا على موقف رئيسه، لكن الرئيس الأمريكى يرفض الرد على ما يوجه إليه، ويرفض السماح للسكرتير الصحفى بذلك بعناد شديد.

ثم يدعو الرئيس صديقته لقضاء الليل معه فى جناحه الخاص لأول مرة وتجئ إليه صديقته، فيبدو كأى رجل عاشق يحب فتاته ويشفق على نفسه من «التجربة» بعد هذه السنوات من الحرمان العاطفى، لكن الوقت يمضى فى سلام ويقضى العاشقان أمسية سعيدة يستسلمان بعدها للنوم، وفى السادسة صباحًا يفتح الرئيس عينيه فيجد فتاته ترتدى ملابسها فى عجلة. . وقبل أن ينهض من فراشه يفاجأ بدخول سكرتيره الصحفى عليه، وهو مازال عارى الصدر ولا يرتدى إلا «الشورت»، وفتاته مازالت تكمل ارتداء ملابسها، ويحييها السكرتير «باحترام» ثم يلتفت إلى رئيسه قائلا: إن التليفزيون والصحافة يحاصران البيت الأبيض بعد أن شوهدت سيارة «الآنسة» وهى تعبر أسواره فى المساء، ولهذا فإنه ينبغى تسريبها الآن من الباب الخلفى، بعد اتخاذ إجراءات التمويه الكافية حتى لا تضبطها عدسات الصحافة والتليفزيون! وقبل أن يفكر الرجل فى الأمر أو يجد فرصة لارتداء الروب المنزلى يدخل عليه غرفه نومه مستشاره السياسى، ثم سكرتيرته الخاصة ثم أحد رجال المخابرات. . . إلخ، فيحيون جميعًا «الآنسة» ثم يتوجهون إلى الرئيس بما يقترحون لمواجهة هذا الموقف العصيب!.

وللحظات ثقيلة تصبح مشكلة رئيس أقوى دولة فى العالم هى كيفية إخراج صديقته من البيت الأبيض، بغير فضيحة إعلامية مدوية!.

ومع ذلك فلقد نشرت الصحف واذاعت محطات التليفزيون قصة هذه الليلة السعيدة التى أمضاها الرئيس مع صديقته، وأفاضت فى الحديث عن هذا التغير الجديد فى حياته الخاصة. ويشارك المنافس العتيد بأكبر قدر ممكن فى هذه الفضيحة ويبدع فى السخرية والإشارات الجنسية الصارخة.. وهو يتحدث عن ليلة الرئيس السعيدة فى أحضان صديقته! ويلح السكرتير الصحفى على رئيسه بأن يدافع عن نفسه ويرد على هذه الحملات، لكنه يتمسك بألا يقحم فتاته فى المعركة الانتخابية؛ لأن علاقته بها شيء خاص لا يجوز امتهانه فى هذه المزايدات الرخيصة.

ويفقد السكرتير الصحفى الشاب أعصابه، وهو فى مكتب الرئيس أمام المستشار السياسى والسكرتيرة، ويصيح بانفعال شديد فى وجه رئيس أمريكا بأنه يدمر نفسه ويدمر كل العاملين معه بهذا الصمت العاجز، مراعاة لمشاعر امرأة واحدة، ويعلنه باستقالته وينصرف غاضبًا ولا يغضب منه الرئيس.. وإنما يسأل مستشاره عن رأيه فيصارحه بأن السكرتير الصحفى على حق!.

ثم يتجاوز المرشح المنافس كل حدود اللياقة فى استغلاله لقصة هذه السيدة ضد منافسه، فلا يتورع عن أن يصفها فى إحدى خطبه السياسة بلقب «العاهرة»!.

وتغضب السيدة لكرامتها وتصب جام غضبها على صديقها الرئيس، وتطلب منه ألا يتصل بها مرة أخرى.

ويفقد الرئيس فى النهاية ما بقى له من صبر، فيسأل ابنته مشفقًا: هل أنت حزينة لعلاقتى بفلانة؟ فتجيبه الابنة فى عطف: لا يا أبى فأنت وحيد وتعمل كثيراً، ولكنى حزينة لما تتعرض له أنت من جراء ذلك؟ ويحتضن الأب الابنة فى حنان واكتئاب؟ ويحسم أمره فجأة فيتجه فى الصباح إلى مكتبه فى اللحظة نفسها، التى يعقد فيها المتحدث الرسمى باسم البيت الأبيض مؤتمره اليومى مع

ممثلى الصحافة والإعلام، وخلال اللقاء يسأل أحدهم المتحدث الرسمى: هل ينوى الرئيس أن يصطحب صديقته معه إلى منتجع كامب ديفيد فى الأجازة القادمة؟

ويتلعثم المتحدث ويصمت متفكرًا، فيسمع الجميع فجأة صوتًا قويًا يجئ من ناحية باب القاعة ويقول: نعم.. إذا وافقت صديقته على ذلك وقبلت رجاءه! ويلتفت الحاضرون إلى مصدر الصوت، فيرون الرئيس يدخل إلى المؤتمر فى خطوات ثابتة، ويتجه إلى المنصة ويمسك بالميكروفون، ثم يقول إن منافسه الانتخابى يشغل نفسه ويشغل البلاد معه عن قضاياها الهامة بالحديث عن صديقة الرئيس، مع أن الرئيس إنسان كأى إنسان آخر له مشاعره.. ومن حقه أن يحب، وأن يقع فى غرام امرأة إذا كان رجلاً وحيدًا كما هو حاله.. فهل سنواجه قضايانا الأساسية بالحديث عن صديقة الرئيس؟.

إننى رجل وحيد، وقد ماتت زوجتى منذ أكثر من ثلاث سنوات، أخلصت خلالها لذكراها وذكرى حبها، ثم وضعت الأقدار فى طريقى امرأة شريفة أيقظت مشاعر الحب المكتوم فى قلبى، فأخلصت لها الحب الصادق كما أخلصته من قبل لزوجتى، وأنا رجل جاد ولا وقت عندى للمجون.. ولم أعرف فى حياتى سوى امرأتين هما زوجتى وهذه السيدة، فهل أخطأت حين أحببت امرأة طيبة وعطوفة قدرت ظروفى وأحبت ابنتى وعطفت عليها؟ وهل تستحق مثل هذه المرأة أن يصفها منافسى بأنها «عاهرة» جارحًا بذلك شرفها وكرامتها كمواطنة؟ إن بلادنا تواجه قضايا ومشكلات جادة وتحتاج إلى رجال جادين للتعامل مع هذه القضايا الحادة، فهل يصلح من يتناولون الأمور بهذه الخفة والالتواء لأن يتصدوا لها؟ إننى لست آسفًا لنفسى فى كل ما حدث.. لكنى آسف حقًا وحزين لما نال هذه السيدة من سهام التجريح والإساءة بسبب حسابات انتخابية حقيرة، وإننى لأرجوها أن تقبل اعتذارى عن كل ذلك وأسفى أيضًا.. وشكرًا لكم.

ثم يغادر القاعة حزينًا والجميع يقفون مذهولين، وفى مكتبه يسأله مستشاره عن وجهته بعد ذلك، فيقول له: إنه سيذهب الآن إلى بيت هذه السيدة ويظل واقفًا على بابها حتى تأذن له بالدخول، فلا يكاد يتم كلمته حتى يراها داخلة من باب المكتب ودموع الحب والتأثر تلمع فى عينيها! لقد سمعت كلمته وهى تقود سيارتها، فوجدت نفسها تتجه تلقائيًا إلى البيت الأبيض.

وتستولى الفرحة الطاغية على الرئيس ويندفع إليها فيتعانقان.. ويتبادلان قبلة حارة طويلة، تحت أنظار المحيطين بالرئيس الذى يعيش فى بيت من زجاج!.

ويتجه العاشقان إلى باب المكتب بين سعادة الجميع، وارتياحهم لانتصار الحب على السياسة والحسابات الانتخابية القذرة.

وينتهى هذا الفيلم بدخول الرئيس إلى بهو حفل استقبال كبير يسبقه النداء المألوفة: رئيس الولايات المتحدة الأمريكية! فيندفع الجميع بلا استثناء إلى التصفيق له بحرارة بالغه وحماس شديد.. وتلمع نظرة الإعجاب والتأييد فى عيون الجميع، وتتسع ابتسامة الرئيس العريضة أكثر وأكثر، وهو يغرق فى طوفان من الحب.. والترحيب.. والتعاطف.. إلى مالا نهاية!.

فهل تحب بعد ذلك أن تكون رئيسًا للولايات المتحدة أو لأية دولة.. إذا كانت حياتك الخاصة وأسرارك الشخصية سوف تنتهك فيها على هذا النحو الفاضح؟.

* * *

٢٢

البلاد السعيدة!

سألنى «فخامة» الرئيس الأفريقى العربى بكبرياء عجيب، فيه وفى معظم من قابلتهم من مواطنيه:

ـ ماذا زرت فى بلدنا؟.

فأجبته مبتسمًا: زرت كذا وكذا وكذا من مناطق بلدكم، فقال لى باستنكار: فقط؟.. ألم تذهب إلى الجنوب؟ ألم تر منطقة كذا؟ ولا منطقة كذا؟.

فأجبته محرجًا: لم يتسع الوقت لذلك.. فلقد اضطررت للبقاء فى العاصمة معظم أيام رحلتى فى انتظار مقابلتكم، وقد كان مستشاركم السياسى يتصل بى كل صباح فى فندق شيراتون، ويطلب منى عدم مغادرة الفندق لأن المقابلة ستتم اليوم فى أى وقت.. فألازم الفندق انتظارًا لاستدعائى للمقابلة، ويمضى النهار الطويل دون أن يتصل بى أحد، ودون أن أستطيع مغادرة العاصمة لزيارة أى مكان.. وفى الصباح التالى تتكرر القصة نفسها بالتفاصيل نفسها.

لكن فخامة الرئيس لم يقتنع بهذه الأسباب، وسألنى:

ـ متى ستسافر إلى بلدك؟.

فأجبته بأنى سأعود إليها بعد غد.. وتمنيت لو كنت أستطيع الكذب عليه والزعم له بأنى سأسافر صباح اليوم التالى، حتى لا يطلب منى زيارة أية منطقة أخرى فى بلاده فكل مناطق بلاده متشابهة ولن أرى جديدًا فيها.. وقد زرت منها ما يكفينى واكتويت بلهيب الشمس الحارقة ودرجة الحرارة التى تزيد عن

الخمسين.. وبجفاف الحياة فى بلاده بما فيه الكفاية.. وقد طالت زيارتى لبلده فى انتظار هذه المقابلة «السامية».. وفاتورة الفندق الباهظة تتضاعف كل يوم بلا نهاية.. وقد تأخرت عن العودة لعملى ثلاثة أيام حتى الآن.. ولكن «فخامة الرئيس» وأى رئيس يحب دائمًا أن يطلع زائره على كل معالم «نهضة» بلاده.. إذن فلابد من رحلة جديدة فى الشمس الحارقة إلى منطقة من مناطق بلاده الجرداء، وانتظرت كلمة القدر فى برنامج يومى الأخير فى هذه الدولة العربية الأفريقية الصغيرة.. جيبوتى، ولم يطل انتظارى فقد التفت الرجل إلى مستشاره السياسى، وطلب منه ترتيب رحلة لى صباح الغد إلى محافظة الجنوب فى بلاده.. وتظاهرت بالابتهاج «لهذا الخبر السار»!.

وانتهت المقابلة التى كان المفروض أن تكون ختامًا لرحلتى الصحفية إلى بلاده منذ سنوات.. وأما المقابلة فلم تزد عن عشرين دقيقة.. وأما مراسمها فكانت غاية فى البساطة والتواضع، فقد جاءنى فى الفندق موظف مصرى منتدب من الأمم المتحدة للعمل كخبير بوزارة الخارجية بهذه الدولة الأفريقية، واصطحبنى إلى القصر الجمهورى فى سيارته؛ لأن مستشار الرئيس لم يجد عنده من يكلفه بإحضارى.

وفى الساعة الثانية بعد الظهر، دخلت معه فى سيارته الصغيرة فناء القصر الجمهورى، دون أن يعترضنا أحد أو يفتش السيارة أو يطلب أوراقى الشخصية، فلا حراسة قبل القصر.. ولا بعده.. ولا حارس على الباب الحديدى.. وإنما نزل مرافقى من سيارته، ودفع هو الباب الحديدى للقصر فانفتح وعاد فركب السيارة ودخل بها الفناء.. وركنها فى أحد جوانبه ودخلنا المبنى.. وسألنا أول من صادفنا عن مكتب مستشار الرئيس وطرقنا بابه ودخلنا، ورحب بنا الرجل.. وطلب لنا قهوة، فكان أول فنجان قهوة شربته فى أحد المكاتب الحكومية فى هذا البلد السعيد، مع أنى كنت قد قابلت قبله سبعة من وزرائه وأجريت معهم مقابلات صحفية.. وبعد كلمات المجاملة الضرورية، فاجأنى المستشار السياسى

بأن قال لى: نحن «زعلانون» من الأستاذ هيكل! فقد قال عنا فى أحد مقالاته بالأهرام إنا لسنا عربًا وإنما أفارقة ولا نحسن حتى الكلام بالعربية، وأنه لم يكن يجوز لنا أن ننضم إلى الجامعة العربية من الأصل!.

فتناقشت معه حول هذه القضية بعض الوقت، ولفتُّ نظره برفق إلى أن الأستاذ هيكل قد ترك رئاسة تحرير الأهرام منذ عام ١٩٧٤، وهو حر فى أن يرى ما يشاء ولمن يختلف معه فى الرأى أن يرد عليه أو يناقشه.

ثم استأذن المستشار من مرافقى المصرى وتركه فى مكتبه واصطحبنى إلى الدور العلوى، وقادنى إلى صالون واسع وتركنى فيه وانصرف! وجلست وحيداً عشر دقائق ثم انفتح الباب فجأة فتهيأت للنهوض استعدادًا لمصافحة الرئيس فإذا بالداخل رجل يرتدى بدلة مزركشة بالقصب، تحيرت فى فهم طبيعة وظيفته ونهضت لمصافحته باحترام، فابتسم وسألنى: ماذا تشرب؟.

فطلبت فنجانًا آخر من القهوة وعدت للجلوس.. وجاءت القهوة وشربتها ومضت عشر دقائق أخرى ثم فتح الباب، ودخل رجل طويل أسمر يرتدى بدلة «سفارى» بسيطة، ويضع على رأسه طاقية ونظرت إليه وأنا جالس مستطلعًا.. ثم نهضت مرتبكًا.. فقد تذكرت فجأة أنى رأيت هذا الشخص منذ يومين فى حفل العيد الوطنى بالمسرح الوحيد بالعاصمة.. وقد وقف له الحاضرون احتراما عند دخوله. إنه «الرئيس» وقد انفتح الباب ودخل، دون أن يبلغنى أحد بمقدمه، ودون أن يعلن أحد عن وصوله بطريقة مسرحية كما أرى فى المسرحيات التاريخية، ودون أن يسبقه مصورو الصحف والتليفزيون كما يحدث عادة فى مقابلات الحكام، ومددت يدى مصافحًا باحترام، وأنا أتلفت حولى باحثًا عن مصور الرئاسة الذى سيسجل هذه «اللحظة التاريخية»، فلم أجد مع الرئيس سوى مستشاره وموظف آخر يبدو أنه مدير مكتبه. وصافحنى الرجل بترحيب ودعانى للجلوس.. وتحدث إلىَّ قليلاً عن زيارتى لبلاده.. وبلغة عربية شبه عاجزة، وقدم لى «أجوبته» عن الأسئلة التى سلمتها لمستشاره السياسى منذ أسبوع، مكتوبة بخط يد المستشار وليس على الآلة الكاتبة!.

ثم سألنى عن الأماكن التى زرتها فى بلاده، وانتهى الحديث بترتيب هذه الزيارة الجديدة لإقليم الجنوب!.

وعدت للفندق مهمومًا بهذه الرحلة الموعودة، التى لابد من القيام بها احترامًا لرغبة الرئيس.. وفى الصباح التالى جاءنى فى الفندق موظف الخارجية المصرى.. وبدأنا الرحلة الشاقة فى درجة حرارة لا تقل عن ٥٥ درجة وفى سيارة قديمة غير مكيفة.. وعلى طريق خال من الاستراحات والبشر وكل أنواع الخدمات.

وبعد ساعة من بداية الرحلة، كان الصداع قد تمكن منى بلا رحمة.. والعرق قد غطى وجهى وبلل ملابسى وزجاجة الماء المثلجة من الفندق قد تحولت إلى زجاجة من الماء المغلى المقزز.. وليس حولنا من كل الجهات سوى أرض خالية جرداء تنفث الحمم وتتراقص فوقها دوائر كالبخار من الهواء الساخن الملتهب.. وقد انقطع حبل الكلام بينى وبين مرافقى تعبًا وسأمًا.. ولم يبق لى من أمل فى الحياة سوى فى كوب كبير من الماء المثلج، مع فنجان قهوة وقرصين من الأسبرين.. يليهما بعد فترة قصيرة كوب من الشاى اللذيذ.

واستعنت بأحلام اليقظة الجميلة عن فنجان القهوة والماء المثلج فى مكتب سيادة محافظ الإقليم، الذى ينتظرنا، على احتمال ما بقى من الطريق الموحش الملتهب وتماديت فى أحلام اليقظة.. فتذكرت فجأة «البلاد السعيدة» الأخرى التى وصل إليها فى جنوب أمريكا «كانديد» بطل الرواية التى تحمل اسمه للأديب الفرنسى فولتير.. فرأى «كانديد» فى مدخل القرية أطفالاً يرفلون فى ثياب مزركشة بالقصب والذهب فظنهم من أبناء الملوك، ثم فوجئ بعد أن دخل القرية مع تابعه بأن بقية أطفال القرية يرتدون الملابس نفسها.. وبأن المطاعم والفنادق فى هذه البلدة العجيبة بالمجان وتنفق عليها الحكومة.. ورأى قطعًا من الذهب والماس ملقاة فى الأرض بإهمال.. ولا يلتفت إليها أحد كأنها من حصى الطريق.. واصطحبهما صاحب الفندق الذى نزلا فيه إلى رجل من حكماء القرية ليجيب عن أسئلتهما الحائرة عن الحياة فى بلادهم، فوجدوا باب بيته من الفضة

الخالصة وجدرانه مرصعة بالأحجار الكريمة وسقفه من الذهب.. ووجدا الرجل فى «ربيعه» ال ٧٢ بعد المائة! وفسر لهما حال بلاده بأن أهلها القدامى قد خرجوا لغزو بلاد مجاورة منذ سنوات بعيدة فهلكوا عن آخرهم.. فأمر من بقى من أمرائها من بقوا من سكانها على قيد الحياة بعدم مغادرة بلدهم الطيب.. فعاشوا فى عزة بعيدين عن شرور العالم الخارجى.. وزادت موارد الدولة عن عدد سكانها فعم الخير الجميع!.

وحين سأله «كانديد» عن ديانة أهل هذه البلاد السعيدة، أجابه بأنهم يعبدون الله.. لكنهم لا يرفعون إليه الدعوات؟ لأنهم أوتوا كل شىء ولا ينقصهم شىء يدعون به الله!..

ثم علم الملك بمقدمهما فأرسل إليهما عربة تجرها الخراف، تنقلهما إلى قصره واستقبلتهما على باب القصر عشرون فتاة عذراء جميلة قدنهما إلى الحمام وقدَّمن لهما ثيابًا نظيفة من ريش البلابل.. واستقبلهما الملك بحفاوة ودعاهما للعشاء على مائدته ورتب لهما زيارة إلى مدينته، فرأيا فى كل شوارعها النافورات والعيون التى يتفجر منها ماء الورد.. وأحجار الطريق التى تفوح منها رائحة القرنفل، فلم يعجبا حين عرفا أنه ليس فى البلاد محاكم ولا سجون.. وإنما قصر للعلوم!.

واستمتع كانديد وتابعه بضيافة الملك شهرًا كاملاً.. وكان من الممكن أن تستمر إقامته فى هذه البلاد السعيدة إلى الأبد.. لكنه الإنسان الذى لا يطيق الغربة الأبدية ولو كانت فى جنة الأرض.. واشتد على كانديد نداء الحنين إلى بلده وإلى حبيبته كيونجوند فقال لتابعه: لو أننا بقينا هنا لما اختلفنا عن الآخرين فى شىء، أما لو عدنا إلى بلادنا ومعنا بعض هذا «الحصى» الملقى فى الطريق لأصبحنا أغنى من كل ملوك أوروبا!.

واستأذنا الملك فى الرحيل فأذن لهما به، وأذن لهما بأن يحملا معهما ما

يشاءان من «حصى الطريق» الأصفر فحملا حمولة ١٢ خروفًا من قطع الذهب، وعاد كانديد إلى بلده بعد رحلة طويلة ومغامرات مريرة، خسر خلالها معظم ما حمله من ذهب البلاد السعيدة، ومع ذلك فقد بقى معه ما يجعله هدفًا لتقرب الأصدقاء والمعارف منه.

تذكرت هذه البلاد السعيدة فلم أحلم بالعودة من إقليم الجنوب، الذى أقوم بالرحلة الشاقة إليه بحمولة من الذهب ولا الماس.. وإنما حلمت فقط بكوبين أو ثلاثة من الماء المثلج اللذيذ وفنجان من القهوة.. ولا بأس بعد ذلك بكوب من الشاى إذا استحكم كرم سيادة المحافظ وأصر عليه، وقد بقينا فى السيارة نسبح فى عرقنا حتى الآن أكثر من ساعتين، لم نر خلالهما إنسانًا واحدًا، كأن أهل البلاد قد هجروها إلى مكان آخر.. وأخيرًا ها هى بعض المبانى الصغيرة الفقيرة تلوح لنا على البعيد.. وها هو ميدان صغير لا شىء حوله، ولافتة تشير إلى مقر المحافظة.. وها هو بيت صغير بسيط من دور واحد، تقف أمامه سيارة جيب، وعلى بابه لافتة تقول.. إنه مقر محافظ الجنوب ولا شىء آخر بعد ذلك، فلا موظفين يتحركون أمامه أو داخله ولا أهالى ولا شىء آخر حولنا!.

ونزلنا من السيارة القديمة متهالكين.. ودخلنا إلى المبنى الصغير، فلم نجد فيه أحدًا واتجهنا إلى مكتب المحافظ وراء السهم الموضح.. وطرقنا الباب فوجدنا فى نهاية الغرفة شابًا فى الخامسة والثلاثين، يرتدى بدلة سفارى قديمة، ويجلس وراء «مائدة» صغيرة قديمة هى مكتبه، فقدمنا نفسينا إليه.. رحب بنا بتحفظ غير مفهوم، وقال لنا: إنه تم إبلاغه من القصر بمجيئنا فانتظرنا منذ الصباح.. ثم سألنى عما أريد أن أعرفه عن إقليمه.. ولم أكن أريد أن أعرف شيئًا.. ولا كان عنده ما يستحق أن أعرفه.. لكن لابد من وصل حبل الحديث حتى تأتى القهوة والماء المثلج، فسألته بضعة أسئلة لا تقدم ولا تؤخر، وأجابنى عنها بتحفظ وكبرياء غريب لم أستطع تفسيره.

وتلفتُّ حولى أترقب مجىء الماء والقهوة، فلم يأت بهما أحد، وفوجئت

بسيادة المحافظ يطلب منى بعد قليل النهوض معه؛ ليطلعنى على أهم معالم إقليمه «الخطير» وخرجنا معه وركبنا السيارة الجيب، التى قادها بنفسه وطلب من سائقنا أن يتبعنا بسيارته. . ولم أفهم مغزى هذا الطلب ولم أعلق عليه، وتحرك سيادة المحافظ بسيارة الجيب ودخل «عاصمته» فرأينا شارعًا واحدًا لا يزيد طوله عن ٣٠٠ متر، على جانبيه بضعة بيوت من دور واحد. . ولم نلمح مارًّا ولا عابرًا. . ولا إنسانًا واحدًا يقف على مدخل بيته فى هذا اللهيب، ثم توقف أمام مدخل الطريق الذى جئنا منه. . ومد يده لنا مصافحًا ومودعًا فى جمود! وصافحناه مذهولين. . وعدنا إلى سيارتنا ونحن لا نصدق ما نراه، فلقد انتهت الزيارة التى قطعنا من أجلها مائتى كيلو متر فى هذا الجحيم، بعد عشر دقائق فقط من الحديث فى مكتب سيادة المحافظ، وعشر دقائق أخرى فى سيارته الجيب، وآن لنا أن نعود من حيث أتينا. . عطشى كما جئنا وبلا قهوة ولا أسبرين!.

وقتهم من ذهب هؤلاء المسئولين العظام. . وليست شوارعهم ولا حصى أرضهم كما فى البلاد السعيدة! هكذا قلت لنفسى ولمرافقى الذى كاد أن ينفجر من الغيظ والتعب، فقال لى: إنه يستطيع أن يقسم أن سيادة المحافظ هذا ليس وراءه ما يفعله من هذه اللحظة وحتى عام ٢٠٠٥. . لكنه فقط يريد أن يعود إلى بيته ليخلد للراحة ويتناول إفطاره المتأخر. . فأهل هذه البلاد يذهبون إلى «عملهم» دون إفطار، ولا يطيقون البقاء بعد الساعة الحادية عشرة صباحًا ثم يهرولون عائدين للبيت لتناول الإفطار والاستمتاع بقيلولة «قصيرة» تستمر حتى الخامسة مساء. . وضحكنا من الغيظ خلال رحلة العودة المرهقة. . وتندرنا طويلاً بمنظر سيادة المحافظ، وهو يودعنا مطمئنًا إلى أنه قد أدى واجبه معنا على أكمل وجه. . وأجاب عن أسئلتنا. . وأطلعنا على معالم مدينته الساحرة. . وآن له أن يعود ليستريح من عناء المجهود الذى بذله معنا، وكلما اشتد عطشى. . وقسا الصداع على رأسى، زفرت قائلاً: الله يسامحك. . يا فخامة الرئيس!.

٢٣

والحزن.. لا يسدد ديونًا!

استيقظت من نومى ذلك الصباح منتعشًا بإحساس السفر مرة أخرى.. سأركب الطائرة بعد ساعتين من مطار هيثرو بلندن إلى أدنبرة عاصمة أسكتلندا، أمضيت فى لندن ثلاثة أيام فقط، قادمًا إليها من باريس.. وسأغادرها هذا الصباح إلى أسكتلندا لمدة يومين، ثم أعود إلى باريس مرة أخرى لأمضى فيها ما بقى لى من إجازتى، تأشيرة دخول فرنسا تتيح لى الخروج والعودة إليها عدة مرات طوال مدة صلاحية التأشيرة، أما تأشيرة بريطانيا فتحمل دائمًا خاتم «دخول لمرة واحدة» كأنها تأشيرة دخول إلى الجنة، وليست إلى دولة مثقلة بالمشاكل والبطالة.. ولم تعد مقصد الشباب الباحث عن حياة أفضل، كما كانت حتى السبعينيات! الصديق الذى جاء ليصحبنى بسيارته إلى المطار لم ألتق به منذ ثلاث سنوات؛ لأنى لم أزر لندن خلالها.. وقد هالنى ما لاحظته عليه من تغيير فكأنما قد تقدم به العمر عشرين سنة! كنت قد علمت بأن الحياة قد امتحنته إمتحانًا قاسيًا فى العام الأخير، ولكنى لم أتصور أن تكون بصماته على وجهه وملامحه واضحة إلى هذا الحد.

وفى الطريق إلى المطار الذى يستغرق أكثر من ساعة، روى لى قصته مع مرض ابنته الشابة الغامض، الذى أسلمها للفراش غائبة عن الإدراك وفاقدة للذاكرة شهورًا طويلة حتى سلم باليأس من أى أمل فى شفائها، وبدأ يستعد لمواجهة الاحتمالات الحزينة، فإذا برحمة ربه تتداركه فجأة على غير توقع.. وإذا بابنته التي فشلت معها كل محاولات العلاج تستجيب له لأول مرة ضد كل توقعات الأطباء، ثم تتوالى المعجزات فتتقدم ابنته فى الشفاء شيئًا فشيئًا، وتسترد

وعيها وذاكرتها وقدراتها على الكلام، والسمع والحركة، ثم تغادر الفراش وتخضع للعلاج الطبيعي بضعة شهور، وتعود إلى بيتها سائرة على قدميها، والأطباء لا يجدون تفسيرًا طبيًّا لكل ما يجرى لها، وتختبرها المدرسة فتجد مستوى ذكائها قد عاد إلى معدلاته السابقة، رغم إصابتها بعدة جلطات فى المخ وتعيد قيدها فى السنة النهائية من المرحلة الثانوية! اختنق صديقى بدموعه أكثر من مرة وهو يروى لى تفاصيل محنته التى استغرقت عامًا كاملاً.. واختنقت معه وألقت السماء الرمادية الكئيبة ظلالها الاكتئابية على الموقف فزادتنى إحساسًا بالشجن، لم أنجح بعد - ورغم كثرة المحاولات - فى أن أقيم هذا الحاجز الزجاجى، الذى نصحنى به منذ سنوات طبيب صديق بين ما أسمع من هموم وأحزان.. ومشاعرى وصدرى حتى لا تتراكم رواسبها فى أعماقى، وتؤثر على قدرتى على العمل والابتهاج للحياة، وهيهات لى أن أنجح فى ذلك لو أردت!.

واصل صديقى رواية قصته المحزنة، ثم توقف عن الكلام فجأة وأدار رقمًا فى تليفون السيارة.. وتحدث إلى ابنته ثم أعطانى السماعة لأحدثها، وأتأكد من أنها قد استردت عافيتها، فتحدثت معها بضع لحظات.. وتمنيت لها أن تعوضها الأيام عما عانته فى محنة مرضها، ووضعت السماعة وصدى صوتها الخافت المحمل بالشجن يتردد فى مسمعى، وقال لى أبوها: إن «شعرها» قد نما من جديد حتى أصبح الآن كشعر الغلام، بعد أن كان قد تساقط كله خلال المرض، وأنه قد تضامن معها بحلاقة شعره بالموسى حتى ينمو شعرهما معًا، ففهمت فى هذه اللحظة فقط سر قصر شعره الواضح الذى حيرنى حين رأيته، ودعت صديقى مواسيًا ومهنئًا بمعجزة شفاء ابنته.. ودخلت إلى المطار، وأنا أحاول انتزاع أفكارى من جو قصته المحزنة لأستعيد إحساسى الذى تبدد ببهجة السفر.

ركبت الطائرة إلى أدنبرة واستغرقنى كعادتى أدعية السفر عند الإقلاع، فلم أنتبه ليد المضيفة الممدودة إلىَّ بشراب الترحيب المعتاد إلى أن نبهنى جارى فى المقعد المجاور.

أسكتلندا هى إحدى المقاطعات الأربع التى تتكون منها بريطانيا أو المملكة المتحدة، وهى: إنجلترا وأسكتلندا وويلز وأيرلندا الشمالية، وتقع فى شمال الجزيرة البريطانية وقد اتحدت مع إنجلترا عام ١٧٠٧، بعد سلسلة من الحروب وفترات الاستقلال والعودة إلى الخضوع للتاج البريطانى، ولها ممثلون فى مجلس اللوردات، وسكانها الذين يزيدون قليلاً عن خمسة ملايين، لهم تاريخ قديم فى إنتاج الأقمشة الصوفية والويسكى، الذى يحمل اسم بلادهم فى كل أنحاء العالم والبيرة والورق، وأيضًا فى بناء السفن الكبيرة والعملاقة فى ميناء جلاسجو ثاني مدن أسكتلندا.

ولأن أسماء الدول ترتبط عندى دائمًا بأدبائها ومفكريها وفنانيها المشاهير، فقد راجعت ذاكرتى باحثًا عن الأدباء الأسكتلنديين المشاهير، الذين قرأت لهم أو عنهم من قبل، فلم يثبت فى الذاكرة سوى اسم سير والتر سكوت (١٧٧١ - ١٨٣٢) الشاعر والروائى، الذى كتب عدة قصص تاريخية، كان من أشهرها قصة «إيفانهو» التى قدمتها السينما الأمريكية فى الخمسينيات. ارتباط الدول فى ذهنى بأدبائها وفنانيها.. وقد عرضنى من قبل لموقف محرج فى إحدى دول الكتلة الشيوعية السابقة. فقد كنت فى زيارة لرومانيا منذ ٢٢ عامًا، ودعينا إلى لقاء مع بعض أعضاء اتحاد الكتاب فى رومانيا..

وجلسنا نتبادل الحديث معهم عن طريق مترجم يعرف العربية، وكان أحدهم يعرف الإنجليزية، فأشرت خلال الحديث معه إلى أنى قد قرأت إحدى المجموعات القصصية للكاتب الرومانى «بترو ديمتريو»، وكانت على ما أذكر بعنوان «ليالى يونيو»، ففوجئت به يبتهج ابتهاجًا شديدًا بهذه المعلومة «الخطيرة»، ويتلفت إلى زملائه الذين لا يعرفون الإنجليزية ويتحدث إليهم بالرومانية، مترجمًا ما قلته له ومرددا اسم «ديمتريو» فلمعت عيون الأدباء الرومان ونطقت نظراتهم إلى بالإعجاب والاحترام الشديد «لثقافتى» المتواضعة.

واستهوتنى اللعبة فأردت الاستزادة من هذا الإعجاب، وقلت للأديب الرومانى أننى قد قرأت أيضًا رواية الأديب المبدع كونستنتان جورجيو «الساعة الخامسة والعشرون»، واستمتعت بها كل الاستمتاع، وترقبت ابتهاجه المضاعف والتفاته إلى زملائه، مترجمًا هذه المعلومة «الثمينة» أيضًا، فإذا بملامحه يكسوها الفتور والضيق على عكس ما توقعت، ثم يقول لى باقتضاب: نعم.. نعم ويشيح بوجهه بعيدًا عنى دون أن يترجم حديثى، الذى رأيت آثاره تنعكس بغير ترجمة على الوجوه التى وجمت فجأة، فتشاغلت بالحديث فى شىء آخر، وأنا أحاول فهم سر هذا الوجوم الغريب ثم انتهت الجلسة وسألت مرافقى وهو عضو بالحزب الشيوعى بالطبع عن تفسير ما حدث فأجابنى، وهو ينظر إلىَّ شذرًا أن ديمتريو أديب شيوعى ملتزم، أما كونستنتان جورجيو فهو أديب «حقير» منشق على الحزب الشيوعى الرومانى ويعيش فى باريس، وأن روايته التى أعجبتنى هذه ممنوعة فى رومانيا مع كل مؤلفاته.. فوجمت بدورى للمفاجأة بضع لحظات، ثم كتمت ضحكى.. وتظاهرت بالاستياء لهذه «الخيانة» من جانب جورجيو لمبادئه، وقلت لمرافقى إننى سأعيد النظر فى تقييمى لأدب جورجيو على ضوء هذه الحقيقة الخطيرة، فلانت ملامحه الصارمة بعض الشىء، وما أن أدار ظهره منصرفًا حتى أفرجت عن ضحكى المكتوم لهذه المفارقة، التى أحرجتنى من حيث لا أدرى!

لم تطل رحلة الطائرة أكثر من ساعة ثم غادرتها، فوجدت صديقى مدير مكتب الأهرام فى لندن وقتها فى انتظارى، وهو صحفى وكاتب سياسى قدير لكنه مضروب بالأدب والفن مثلى، وقد كتب قبل عمله فى لندن أكثر من مسرحية وسهرة تليفزيونية ومجموعة قصصية، وقد حمل معه هوايته الأدبية إلى لندن فلم تمض على إقامته بها شهور، حتى كان قد حول وسط مشاغله الصحفية العديدة إحدى قصصه القصيرة إلى مسرحية من فصل واحد.. وتمت ترجمتها إلى الإنجليزية، واتفق مع مخرج بولندى شاب على إخراجها والاشتراك بها فى مهرجان أدنبره المسرحى، الذى يقام بالمدينة فى أغسطس من كل عام، ومن أجل

هذه المسرحية بالذات حولت خط سير رحلتى الأسكتلندية، التى قمت بها أصلاً لزيارة مركز طبى حديث افتتح مؤخراً فى جلاسجو إلى أدنبره، وقررت أن أشاهد المسرحية فيها أولا ثم أزور المركز الطبى مؤخراً فى جلاسجو فى اليوم التالى، زرت أدنبره مرة واحدة منذ عدة سنوات لكنى لم أرها بهذا الجمال، خلال فترة إقامة المهرجان المسرحى الذى تجئ إليه الفرق المسرحية من كل أنحاء العالم.. ويستطيع أى هاوٍ للمسرح مثلى أن يشاهد فيه، إذا أراد عروض ٢٨٠ فرقة مسرحية كاملة!

أودعت حقيبتى الفندق واسترحت لفترة قصيرة، ثم تأبطت ذراع صديقى المؤلف.. ودخلت قاعة المسرح الذى تعرض فيه مسرحيته، جلست مشدوهًا بالحوار الراقى بين الممثلين، وكلهم مصريون فيما عدا ممثلة إنجليزية واحدة، ومسرحية «رجل على القمة» تحكى عن مأساة شعوب العالم الثالث مع بعض حكامها، الذين يبدأون حياتهم ثوريين مثاليين يحلمون بالعدل لشعوبهم، ثم ينتهون بعد الانقضاض على الحكم إلى الاستماتة فى البقاء فى موقع السلطة وحكم شعوبهم بقبضة حديدية.. وتختلط عندهم الحدود بين ذواتهم وبين شعوبهم؛ فيتصور كل منهم أنه رجل الأقدار الذى لا حياة لشعبه بغيره!.

انتهت المسرحية وصفقت للممثلين خاصة الفنان المصرى «على» الذى قام بدور الزعيم، وهو مصرى عمل لفترة فى الإذاعة البريطانية، وسألنى المؤلف عن رأيى فى المسرحية، فأجبته ذاهلاً:

ـ لم أشبع من هذه الوجبة الفكرية الممتعة، وتمنيت أن تطول أكثر من ذلك.

وغادرت المسرح وأصداء حوار المسرحية الذى يثير التأمل فى رأسى.

وفى اليوم التالى مر بى فى الفندق أحد مديرى المركز الطبى الحديث، الذى دعيت لزيارته.. واصطحبنى بسيارته فى رحلة استغرقت ساعة ونصف الساعة إلى جلاسجو، وحدثنى خلالها طويلاً عن فكرة هذا المركز الحديث ومميزاته، ثم سلمنى إلى مديرة العلاقات العامة بالمركز السيدة «مايتريد فيرجسون» وانصرف إلى

عمله كمسئول عن نظام الكمبيوتر، الذى يحفظ السجلات الطبية لمرضى هذا المركز ويدير كل أعماله، ومن تلك اللحظة فى الظهيرة حتى السادسة مساء طفت بأرجاء المستشفى الحديث، الذى تكلف ١٨٠ مليون جنية أسترلينى وأقيم بالتعاون بين جامعتى هارفارد الأمريكية وجلاسجو الأسكتلندية. . والتقيت بكبار مديريه واستمعت إلى شرحهم لفكرة المركز أو المستشفى، والتى تقوم على أساس بناء مستشفى حديث يدار بطريقة مستشفى «مايو كلينك» نفسها، الشهير فى أمريكا مع إقامته فى أسكتلندا ليكون قريبًا من المرضى فى أوروبا والشرق الأوسط.

انتهت جولتى التى سمعت فيها الكثير عن هذا المركز المتقدم، وعلى العشاء تواصل الحديث أيضًا عنه مع السيدة روز مارى ماكاى المديرة التنفيذية له، وزوجها طبيب الأورام الأمريكى الكبير. . وأحسست أننى قد تناولت وجبة دسمة من المعلومات الطبية عن هذا المركز، استمرت طوال اليوم. . فعدت إلى غرفتى بالفندق الملحق بالمستشفى نفسه، آملاً فى الاسترخاء لمدة ساعة، ثم الاستسلام لنوم مريح فإذا بأخبار القبض على الإرهابى الدولى كارلوس تطل على شاشة التليفزيون وتبقينى ساهرًا. . أتنقل بين القنوات المختلفة حتى الثالثة صباحا.

وفى اليوم التالى ركبت الطائرة عائدًا إلى باريس وانتهت رحلتى الأسكتلندية القصيرة، التى تمنيت أن تطول أكثر لأزداد قربا من الشخصية الأسكتلندية الودودة التى لا يغير رأيى فيها ما يرويه عنها الإنجليز من نكات تسخر مما تسميه البخل الأسكتلندى الشهير، وهو مادة ثابتة فى الفكاهة الإنجليزية المتحفظة التى لا أستجيب لها غالبًا، كما لا يغير رأيى فيها أيضا ما قرأته فى الأمثال الأسكتلندية الشائعة نفسها من أن «من يأكل نوعًا واحدًا من الطعام لا يحتاج إلى الطبيب» أو أن «الحزن لا يسدد ديونًا». . إلخ، فروح الود التى ألمسها فى الشخصية الأسكتلندية تغطى عندى مثل هذه اللمحات، إذا قارنتها بالتحفظ الإنجليزى الشهير. . وخاصة أيضًا إذا كنت زائرًا عابرًا مثلى ولست مقيمًا. . ولا راغبًا فى الإقامة فى أى مكان آخر، سوى بلادك التى لا يستقر لك جانب إلا فيها. .

٢٤

دخلنا.. البحر المالح!

دخلت إلى الطائرة مبتهجًا بإحساس المغامرة والتجربة الجديدة، تذكرت وأنا أفتح حقيبة أوراقى، وأخرج منها الصحف والكتاب الذى سيرافقنى خلال الرحلة أن هذه «الحالة» لم تعاودنى منذ فترة طويلة، فاستبشرت خيرًا بعودة القدرة على الابتهاج لشىء جديد وترقبه باستعداد نفسى للاستمتاع به! فقدت أشياء كثيرة فى الحياة بحكم العادة أو التكرار قدرتها على إبهارى وتنبيه مراكز الابتهاج فى نفسى، فتذكرت بأسى فترة الشباب ومرحلة الانبهار الصادق بكل جديد والاستمتاع بلذة الممارسة الأولى لخبرات جديدة كثيرة فى الحياة.. لم يعد يحرك النفس فى هذه المرحلة من العمر إلا ارتياد أماكن جديدة، لم أرها من قبل أو التعرف على أصدقاء جدد، يضيفون إلى حياتى اهتمامات جديدة وأحتمى بصداقتهم من ملل التكرار.. وغربة النفس.

ودّعنى فى مطار باريس الذى ركبت منه هذه الطائرة صديقى «سيد» الذى عرفته هناك منذ سنوات، فلمست فيه إخلاصًا نادرًا لكل من يعرفه وللحياة بوجه عام.

صداقاتى «الخارجية» تسعدنى بصدق مشاعرها وإخلاصها.. وتشقينى فى الوقت نفسه بتباعد اللقاءات وحتمية الفراق. ومن عادتى أن أضيف اهتمامات أصدقائى إلى همومى الشخصية، فيصبح كل ما يؤثر عليهم يعنينى ويهمنى ولو كان بعيدًا عن عالمى الشخصى، فإذا كان صديقى تاجرًا مثلا دعوت الله أن تزدهر حركة التجارة العالمية فوق الكرة الأرضية من أجله، وإذا كان مهندسًا رجوته أن

يزداد الطلب على المهندسين فى كل أنحاء الدنيا إكرامًا له! صديقى «سيد» يملك مع شريك شاب له شركة لأعمال النقاشة فى باريس، ومنذ عرفته وأنا أدعو الله أن يعيد الفرنسيون طلاء مساكنهم وعماراتهم كل ٦ أشهر على الأكثر!. صديقى «محمود» يملك شركة لاستيراد الفاكهة والخضر فى سوق «الرنجيس»، وهو معدة باريس الكبرى، ومنذ عرفته وأنا أدعو الله بأن تتحسن الأحوال الجوية فى العالم كله، وأن يتوقف العاملون بشركات الطيران عن الإضراب؛ حتى لا تتأثر حركة نقل الخضر والفاكهة إلى فرنسا! وهكذا حالى مع كل أصدقائى.

لازمنى «سيد» خلال الأسبوع الذى قضيته فى باريس.. يأتينى فى الصباح ومعه شريكه الشاب خالد فألومه كل يوم لتركه عمله، ويقسم لى أنه قد بدأ مبكرًا وذهب إلى موقع العمل واطمأن على سيره، ولم يعد لديه ما يفعله حتى المساء، الأصدقاء نجوم تضئ ليل الحائر والغريب فبأيهم اقتديت.. اهتديت، ونجوت من الوحدة.. وكسبت المزيد من المعرفة والخبرات، الأصدقاء الحقيقيون يضيفون إلى أصدقائهم اهتمامات جديدة ويكتسبون بعض اهتماماتهم فتتنوع خبرات الجميع.. ويمثل كل منهم للآخر حماية نفسية ضد الوحدة والاكتئاب وفقدان الرفيق.

اصطحبت صديقى «سيد» مرة إلى المسرح فلاحظت استمتاعه بالعرض، وبعد انتهائه صارحنى بأنه لم يدخل مسرحًا فى حياته من قبل؛ لأن رحلة الكفاح استغرقت معظم سنوات شبابه فشغلته عن طلب مثل هذه المتعة الذهنية، قدرت له كثيرًا تجاوبه مع اهتماماتى رغم أنها عالم جديد عليه.. وصحبنى طائعًا فى نزواتى الثقافية فى باريس، فزرنا معًا بيت الكاتب الفرنسى العظيم فيكتور هوجو ومتحف بيكاسو، وأضعنا يوما كاملا فى البحث عن بيت الروائى العظيم بلزاك، واستفدت من خبرته العملية بالحياة الكثير.. لكنى لم أفده بشىء يذكر اللهم إلا ضياع وقته فى مثل هذه الزيارات، وقد «عصانى» لأول مرة حين طلبت منه أن يأتى معى إلى أوبرا باريس العريقة لمشاهدة أحد عروضها، فاعتذر باسمًا وطالبًا استخدام «منهج التدرج» معه لأنه مازال فى بداية الطريق!.

استرخيت فى مقعدى وربطت الحزام، واحتشدت نفسيًا لمعايشة التجربة الجديدة فى حياتى.

والتجربة هى زيارة كندا التى لم أزرها من قبل، وإن كنت قد زرت أمريكا فى رحلة سابقة، الطائرات التى تعبر المحيط أكبر حجمًا من طائرات الرحلات القصيرة، ومقاعدها أكثر راحة لتسمح للراكب بالنوم خلال الرحلة، التى لا تقل أبدًا، عن ٧ ساعات، أما كندا فعالم جديد تم اكتشافه فى القرن السادس عشر، واحتلته فرنسا وبريطانيا لفترة، ثم انفردت به بريطانيا إلى أن اعترفت باستقلالها السياسى عنها عام ١٩٢٦، ودخلت كندا «الكومنولث» وأصبحت دولة مستقلة تتبع التاج البريطانى، وهى ثانى أكبر دول العالم من حيث المساحة؛ حيث تبلغ مساحتها ٩,٩ مليون كيلو متر مربع.

ولا تسألنى من فضلك وما هى «أولها»، فقد كان الاتحاد السوفيتى القديم هو أكبر دول العالم وكانت مساحته ٢٢,٢ مليون كيلو متر مربع، ولا أعرف ماذا بقى منه الآن، وليس أمامى رقم مساحة روسيا الاتحادية التى ورثته لأعرف منه إذا كانت مازالت فى المقدمة أم لا؟ لكن ما يستحق التأمل فعلا هو أن كندا أكبر فى المساحة من الولايات المتحدة، ولكن عدد سكانها لا يتجاوز عشر سكان أمريكا ولا يزيدون عن ٢٥,٤ مليون نسمة بإحصاء عام ٨٦، ويفسر لك ذلك لماذا مازالت كندا تستقبل المهاجرين، رغم أنها قد بدأت تعرف البطالة.. ووصلت نسبتها فيها إلى ١١,٥٪ وقد أثار ذلك جدلا طويلا فى البرلمان الكندى.. وطالب البعض بوقف الهجرة، ثم انتهى الأمر إلى استمرار السماح بالهجرة، ولكن مع تحديد نوعيات المهاجرين الذين تستقبلهم، فأصبحت ترفض هجرة الأقارب، ولا تقبل إلا حملة الشهادات الجامعية العالية ورجال الأعمال والمستثمرين، لأن مجالات الاستثمار مازالت خصبة، ولابد أن تؤدى زيادتها إلى استيعاب البطالة القائمة والمهاجرين الجدد.. فى المستقبل.

شربت فنجانى الثالث من القهوة منذ بدأت الطائرة رحلتها، ومع ذلك فمازلت

أشعر بشيء من «الخدر» يتسلل إلىَّ، ورغبة غالبة فى النعاس مع أنى ممن يعز عليهم النوم فى كل وسائل الموصلات الطائرة والزاحفة. . شاشة الطائرة تعرض علينا خط سيرها فوق الخريطة لحظة بلحظة وسرعتها وارتفاعها والمسافة التي قطعتها. . ونتابعها باهتمام وهى تتقدم ببطء على الخريطة فى اتجاه المحيط الأطلنطى، بيانات الطائرة على الشاشة تؤكد أنها تطير على ارتفاع شاهق يصل إلى ضعف ارتفاعها فى الرحلات القصيرة، أفيكون هذا هو سبب ما أحس به من نعاس؟ الطيران العالى يؤثر على حيوية الجسم ولا يتحمله، دون تغير فى معدلات النشاط، إلا من اعتاده أو كان من أولى العزم والقوة والشباب. . ولست من هؤلاء ولا هؤلاء، لكن ماذا نقول فى حلم الإنسان الدائم لأن يرى دائمًا أرضا جديدة لم يرها من قبل؟ ابتعد مؤشر الطائرة فوق الشاشة عن اليابسة وبدأ يودع القارة الأوروبية ويزحف إلى المحيط الشاسع، فتذكرت تلك النكتة القديمة عن الصياد، الذى كان يتجول بقاربه الصغير فى نيل القاهرة فى الليل ويتبادل مع زميله التجديف والعناية بشبكة الصيد، حتى نال منهما الإجهاد والتعب وقل تركيزهما، ثم أحس أحدهما بالعطش فمد يده إلى «كوز» قديم كان زميله قد وضع به بعض الملح ليداوى به أذنه، ومال بجسمه إلى الماء وملأ «الكوز» ثم رفعه إلى فمه وشرب، ففوجئ بمذاقه المزعج، فبصق الماء واعتدل فى مجلسه بحماس طارئ، وراح يجدف بقوة وهو يقول لزميله: فلان. . يدك معى. . دخلنا البحر المالح!.

نعم. . دخلنا البحر المالح الذى لا شطآن له. . وهو ثانى أكبر محيطات العالم الأربعة من حيث المساحة بعد المحيط الهادى ولم يعد تحتنا ـ ولمدة ٦ ساعات قادمة ـ «سوى الماء ولا حول ولا قوة إلا بالله» كما وصف مبعوث أزهرى مشاعره فى نهاية القرن الماضى، وهو يرى اليابسة تغيب عن أنظاره. . ولم يعد حوله ولا أمامه سوى مياه البحر التى تشقها سفينته فى طريقها إلى فرنسا.

تناولت طعام العشاء، وأحسست بالامتنان لمحاولات الإنسان الدائبة منذ القرن

الحادى عشر للطيران وأيضًا لذلك الطيار الأمريكى الشاب تشارلز لندبرج، الذى كان أول من نجح فى عبور الأطلنطى بطائرته فى رحلة مباشرة من نيويورك إلى باريس عام ١٩٢٧، فاستقبلوه استقبال الفاتحين، وخلعوا عليه لقب «قاهر الأطلنطى» وساهم مع غيره من بنى الإنسان فى تقدم الحياة والربط بين أنحاء العالم.

استعدت فى ذهنى دعائى المفضل فى السفر «سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين»، ودعاء الرسول الحبيب عند الخروج من البيت: «اللهم بك انتشرت وعليك توكلت.. وبك اعتصمت.. وإليك توجهت»؛ إذ أى عاصم لنا حقًّا فى الفضاء السحيق سواه؟ دعوت لكل طائرات العالم المحلقة فى الجو هذه اللحظة بالهبوط الآمن السعيد! ثم أفقت من تأملاتى فجأة فوجدت شاشة الطائرة تعرض علينا فيلمًا فاتتنى رؤيته فى باريس، فإذا به «يأتينى» فى مقعدى المعلق فى الجو.

إنه فيلم «الهارب» الذى أعادت هوليود تقديمه عن حلقات الهارب التليفزيونية التى حظيت بشعبية كبيرة فى الستينيات، وتحكى قصة الطبيب ريتشارد كامبل الذى اتهم ظلما بقتل زوجته، وفر من السجن وطارده مفتش الشرطة بإصرار فكان ينجو من كل كمين ينصب له.. ويواصل الهرب حتى أنقذ مفتش الشرطة نفسه من الموت، وضبط هو ـ وليس الشرطى ـ القاتل الحقيقى.

أحداث الفيلم المثير الذى يلعب بطولته هاريسون فورد تتوالى أمامى، وتعاطفى مع الطبيب المظلوم يتصاعد فى فترات «الإفاقة» من نوبات النعاس الطارئة إلى أن ظهرت الحقيقة فى النهاية وتم إنصاف المظلوم، ثم فوجئت بقائد الطائرة يعلن قرب الهبوط فى مطار مدينة مونتريال، ويقول: إن التوقيت المحلى بها هو الثالثة بعد الظهر، فنظرت إلى ساعتى فوجدتها التاسعة مساء، وعرفت أن ٦ ساعات من العمر قد سقطت من ذاكرة الزمن؛ بسبب فارق التوقيت على أرض الدنيا الجديدة.. وغادرت الطائرة محاولاً الاحتفاظ بتنبهى وحيويتى

الضائعة، وتقدمت إلى ضابطة الجوازات بجواز سفرى، فلاحظت وأنا أجيبها عن أسئلتها، شخصين يقفان فى الشرفة العليا ويلوحان بحماس، واصلت الحديث مع الضابطة.. ثم رفعت نظرى مرة أخرى فى اتجاه الشرفة، فوجدت الشخصين «الغريبين» يواصلان التلويح والإشارة بانفعال، التفت خلفى فرأيت الواقفين فى الطابور ورائى هادئين لا يتجاوبون مع هذه الإشارات، فوضعت نظارتى ونظرت إلى الشرفة.. يا إلهى إنهما زميل العمر مصطفى وزوجته الصديقة العزيزة الدكتورة ليلى! انتابتنى فرحة طاغية ولوحت بانفعال أشد حتى تنبهت إلى ضابطة الجوازات، وهى تدق بأصبعها على الحاجز الزجاجى لأستعيد منها جوازى، فأخذته واتجهت إلى خارج المطار وأنا أواصل التلويح والإشارة بابتهاج، وصوت فى داخلى يهمس لى: ترى ماذا كنت تستطيع أن تفعل بحياتك، لو لم ينعم الله عليك بكل هؤلاء الأحباء.. حتى فى آخر الدنيا؟.

* * *

٢٥

ولسوف تتبعك!

ولسوف تتبعك هذه المدينة إلى آخر العمر!

فالخارج منها داخل فيها!.

والراحل عنها تنتهى إليها دائمًا خطاه!.

لا أعرف لماذا أتذكر كثيرا هذه الأبيات للشاعر اليونانى «كفافيس»، الذى عشق الإسكندرية، كلما سافرت إلى الخارج! فالحق أنى كلما بعدت عن مصر ازددت اقترابًا منها، وكلما أوغلت خطواتى فى الابتعاد عنها قادتنى خطاى إليها مرة أخرى، فكأنما بعدت لأقترب.. وأبحرت لتدور سفينتى دورة واسعة فى البوغاز ثم تعود تلقائيًا إلى مرفئها.

ولقد رافقنى هذا الإحساس الغامض معظم أوقات أسفارى وفى أى مكان أذهب إليه.. فإن الوجوه التى ألتقى بها مصرية.. والبيوت التى أدخلها مصرية.. والطعام الذى نتناوله مصرى.. والهموم والأمنيات دائمًا مصرية.. وحديثنا مع الأصدقاء الذين نلتقى بهم فى الخارج يطوف بالعالم وأحواله، ثم ينتهى دائمًا إلى مصر، وفى مونتريال دعانى صديقى مصطفى وزوجته د. ليلى إلى العشاء فى مسكنهما.. ففوجئت عند دخولى إليه بشقة «مصرية» فى أقصى أطراف الدنيا.. فاللوحات والتحف وقطع الكليم المزركش كلها مصرية.. وعلى الأرض صفوف طويلة متراصة من شرائط الأغانى العربية، ودعتنى الدكتورة ليلى

لأن أطلب منها سماع أى أغنية عربية قديمة أو حديثة تخطر ببالى، ففكرت للحظات لأتذكر أغنية قديمة يصعب وجودها لديها، ثم طلبت منها سماع «أغنية» «كل ده كان ليه» لمعشوقى القديم محمد عبد الوهاب، فانحنت على أكوام الشرائط وراحت تبحث فيها فترة طويلة، ثم صدح صوت عبد الوهاب الجميل بكلمات الأغنية الجميلة!.

وفى بيتها، وفى حفل استقبال بأحد الفنادق، وفى شوارع مونتريال، التقيت بمصريين عديدين لمسوا قلبى وتفتحت لهم مشاعرى.. وودعتهم عند السفر محملا بذكريات طيبة لهم.. وأنا أتساءل فى باطنى: وكيف الوصال وبين الأحبة جبال وبحار ومحيطات!.

ليست البلاد.. بالمكان.. وإنما بالبشر الذين تلتقى بهم فيه وتحبهم ويحبونك.

والجالية المصرية فى كندا مميزة بكل المعانى، فمعظم أفرادها من حملة الشهادات الجامعية والماجستير والدكتوراه، وكثيرون منهم يشغلون مقاعد الأستاذية فى الجامعات والمعاهد والمراكز العلمية المختلفة، ويشغلون مناصب إدارية عليا فى الحكومة الكندية وهيئاتها، وتقديراتهم تتراوح الآن بين ٦٠ و ٧٠ ألف مصرى، ولا تعرف الجالية المصرية هناك من يمارسون الأعمال الصغيرة، أو يبدأون رحلتهم من الصفر كما هو الحال فى جاليات أخرى، وحتى وقت قريب لم يكن للمصريين فى مدن كندا محلات تجارية أو مطاعم كأفراد الجالية اللبنانية الذين يفضلون التجارة والأعمال الحرة، ثم ظهرت مؤخرًا فى شوارع مدينة مونتريال بعض المطاعم والمقاهى المصرية، التى يديرها أصحابها ويقدمون فيها الشاى بالنعناع والنرجيلة!.

«وكندا» التى صاح البحارة البرتغاليون حين نزلوا على شواطئها فى القرون الوسطى بالبرتغالية: «كاه».. «نداه» أى لا شيء هنا! فأصبحت اسمها، كما تقول بعض المصادر، أصبح يعيش فيها الآن ٢٥,٤ مليون من البشر، والكنديون

ينتمون فى معظمهم إلى الجنس الأنجلوسكسونى، ماعدا سكان إقليم كيبك فهم من ذوى الأصول الفرنسية.

والكنديون عمومًا يحرصون على أن يؤكدوا لك أنهم يعيشون بالطريقة بالأوروبية.. أى إن ثقافتهم مازالت أوروبية.. وتختلف عن المفاهيم الأمريكية القائمة أساسًا على المنفعة والسرعة والضخامة فى كل شىء.. والمغالاة فى الفردية وترك كل شىء فى الحياة لقانون العرض والطلب.. وقوانين السوق.

لكن طوفان الأسلوب الأمريكى فى الحياة يجرف كل شىء فى طريقه، وهيهات أن تصمد له إلى الأبد جذور الثقافة اللاتينية هناك، وحين كنت فى مونتريال كانت من أبرز القضايا الاجتماعية المثارة فى المجتمع الكندى ظاهرة رغبة المراهقين فى الانتحار، رغم مستوى المعيشة المرتفع وقلة المشاكل المادية الحادة، وقال لى مارسيل دى جاردان، مدير تحرير صحيفة «لابريس» الكندية التى نظمت زيارتى لمونتريال، إن السبب الأول للظاهرة هو انهيار الأسرة.. حيث ترتفع نسبة الطلاق فى بعض مناطق كيبك مثلا إلى حوالى ٥٠٪ ... وينفصل المراهقون عن أسرهم فى سن مبكرة فيعملون ويدرسون.. وينهارون عندما يواجهون ضغوط الحياة وحدهم، ولا يجدون ما يحتمون به من أمان أسرى.. أو عاصم من الدين.

فكثيرون من الشباب هناك بعيدون عن الدين.. ولا يذهبون إلى الكنائس التى لا يكاد يؤمها إلا الكبار.. لهذا فهم ينهارون سريعًا أمام الضغوط النفسية والاجتماعية، وناقشت دى جاردان فى الظاهرة، وأيدته فى أسبابها خاصة عامل الدين، وتذكرت ما قاله المفكر الفرنسى الساخر فولتير، مهاجمًا دعاة الإلحاد فى عصره:

ـ كيف تشككون فى وجود الله، ولولاه لخانتنى زوجتى.. وسرقنى خادمى!.

كأنما يريد أن يقول لهم إنه حتى بمنطق المنفعة المادية، فإن الوازع الدينى والرادع الدينى أيضًا من أهم ضوابط الحياة ولولاه لتحولت الدنيا إلى غابة.

وتذكرت الحوار نفسه بعد ذلك بأيام حين التقيت بقاضية كندية، معروفة بدفاعها عن حقوق الأطفال ضد إهمال الآباء والأمهات لهم، ولها كتابان عن هذه القضية وتناقشنا عن ظاهرة انتحار المراهقين، فتحدثت القاضية طويلاً عن تقصير بعض الآباء والأمهات فى تحمل مسؤلياتهم وواجباتهم تجاه أطفالهم، ووجوب تنبيههم إلى تحمل هذه الواجبات عن طريق وسائل الإعلام المختلفة، واسترحت لمنطقها فى البداية.. لكنى لاحظت أنها تتجاهل سببًا أساسيًّا من أسباب الظاهرة، وهو انهيار الأسرة بالطلاق، فلفت نظرها إلى دور ارتفاع نسبة الطلاق المخيفة فى هذه الظاهرة ففوجئت بها تشير لى بظاهر يدها كأنما تزيح هذا السبب جانبا.. وراحت تؤكد لى أن الطلاق ليس سببًا من أسباب الظاهرة، ولكن العامل الأول هو عدم فهم الآباء والأمهات لمسئولياتهم!.

ولم أقتنع بهذا المنطق.. وجادلتها طويلا فى مسئولية الطلاق أيضًا عن الظاهرة، فلم تتنازل عن رأيها ثم خطر لى خاطر مفاجئ، هو أن أسألها عن حالتها الاجتماعية ففوجئت بها تجيبنى ببساطة بأنها مطلقة منذ ١٤ عامًا!.

وفهمت أخيرًا سبب إعفاء عامل الطلاق من المسئولية، «واقتنعت» به وأسرعت بإنهاء الحديث معها!.

وتبعتنى «المدينة» كالعادة إلى آخر الدنيا.. فقد طلبت من دى جاردان أن ينظم لى زيارات للجهات المعنية بشئون المعاقين والمسنين، وهى من اهتماماتى فى بريد الأهرام التى أتعامل معها كثيرًا؛ لأرى كيف يتعاملون فى هذا المجتمع الغربى مع أصحاب الحالات الخاصة.. والتقيت بعدد كبير من المسئولين عن هذه الهيئات.. ووجدت كالعادة بعضهم مصريًّا أو من أصل مصرى.. وسرحت بعيدًا وحزنت، وأنا أسمع من أحدهم قائمة الخدمات التى يقدمونها للمعاقين..

وأبسطها أنهم يعفونهم من ركوب المواصلات العامة للذهاب إلى أعمالهم ـ لأن كل إنسان يعانى من إعاقة حركية يستطيع أن يقدم طلبًا للهيئة المختصة يثبت فيه عدم قدرته على استخدام المواصلات العامة، فيرسلون إليه الأوتوبيس العام المجهز لركوب المعاقين فى منزله فى مواعيد محددة كل صباح لينقله إلى عمله. . ويعود به مع زملائه إلى البيت بعد انتهاء العمل، مقابل التذكرة نفسها التى يدفعها راكب المواصلات العادية!.

ناهيك عن برامج المساعدات المالية لهم لتجهيز سياراتهم العادية على نفقة المجتمع لتكون صالحة لقيادتهم. . وتشجيع رجال الأعمال على تشغيلهم بدفع ٨٠٪ من أجورهم فى البداية لصاحب العمل؛ لتعويضه عن نقص قدراتهم تنخفض تدريجيًا مع اكتسابهم خبرة العمل. . والسماح لهم باصطحاب مرافق إلى السينما والمسرح والأوبرا والحفلات العامة، مع إعفاء المرافق وحده من ثمن التذكرة، وكذلك الحال مع المسنين وكبار السن، الذين تتزايد أعمارهم عامًا بعد عام بسبب الرعاية الصحية المجانية، والذين يقدمون لهم ما يحتاجون إليه من خدمات فى بيوتهم؛ حتى لا يضطروا إلى نقلهم إلى دور المسنين.

ولسوف تتبعك هذه المدينة. . إلى آخر العمر، ومهما حاولت أن تتجنب ذلك، ولسوف تقفز إلى ذهنك رغمًا عنك صور المقارنة المثيرة للشجن. . وتتألم. . وتحلم لمجتمعك بإيجابيات كل مجتمع تزوره، وسوف ترجو له صادقًا أن ينجو من سلبياته وظواهره المخيفة.

ولسوف تمضى الأيام سراعًا فى مدينة مونتريال عاصمة كندا الثقافية، التى لا تتوقف مهرجاناتها ومعارضها ومؤتمراتها العملية والثقافية طوال العام، والتى احتفلوا منذ أعوام ببلوغها سن الثلاثمائة والخمسين، ولسوف يحين موعد الرحيل. . فتلتقى على الغداء ـ بالمطعم المصرى الوحيد فى مونتريال، ويملكه رجل أعمال مصرى ناجح ومهذب ـ ببعض الوجوه المصرية فتستمتع بدفء المشاعر. . وترى وجوه رفاق الغربة الجدد، فوزى لهيطة وممدوح هلال وتستعيد

فى خاطرك وجوه: محمد أحمد إسماعيل القنصل المصرى العام المثقف وابن المشير الراحل أحمد إسماعيل، الذى استمتعت بالحديث معه عن ذكريات حرب أكتوبر ساعتين فى بيته، ثم طالبته بأن يؤلف عنها كتابًا يكون مضمونه هو «حرب أكتوبر من بيت مشير أكتوبر» ووجوه الوزير المفوض السعيد قاسم رئيس المكتب التجارى وزوجته الرقيقة، والدكتور «محمد» وزوجته الفاضلة، و د. محمد ناجى سالم السكرتير الأول التجارى ورومانسيته الحالمة، وكلود عزام.. ومكرم فهمى، وأسامة بدر، والسيدة «نجاة» مقدمة البرنامج المصرى فى التليفزيون الكندى، التى حاورتنى فيه ساعة طويلة وزوجها الفاضل، والدكتور جبراييل و.. و.. و..

ولسوف تتذكر كل هؤلاء.. فتنسيك حرارة المشاعر.. برودة الجو.. ثم تحملك السيارة إلى المطار، وتصافح الأصدقاء الذين سعدت بصحبتهم طوال الأيام الماضية مودعا، وتتندى العيون.. وتجيش الصدور.. وتتذكر قول الشاعر العربى القديم: صاحب كما شئت فأنت مفارق!.

فتقول لنفسك.. فراق هنا.. ولقاء هناك.

هذه هى رحلة الإنسان الأبدية.. مع الحياة!.

* * *

٢٦

زوج متسامح جداً!

صحوت من نومى مبكراً فارتديت ملابسى وغادرت غرفتى فى فندق «كوين إليزابيث» بمونتريال فى كندا. . لا أحب تناول الإفطار فى غرفتى، وأفضل أن أتناوله فى مطعم الفندق وسط الناس، تأمل الناس وتتبع العلاقات بينهم وتخمين درجتها من الألفة أو الجفاء متعة تعوضنى عن متعة الاستسلام للكسل والاسترخاء، وتناول الإفطار فى الفراش كما تفعل نجمات السينما فى الأفلام! . . رحلة المصعد من الدور الخامس عشر إلى الدور الأرضى طويلة. . والباب يفتح كل لحظة، وينضم إلينا ركاب جدد. . كثير من «رفاق السفر» فى رحلة الهبوط يعلقون على صدورهم شارة مؤتمر لعلماء البيولوجيا، يعقد فى الفندق نفسه، ونسمع ضجيجهم فى الدور الأرضى كثيراً، ولا عجب فى ذلك فالمؤتمر يضم ٥٠٠ عضو يقيمون جميعًا فى الفندق. . ويعقدون جلساتهم فى قاعة المؤتمرات بالدور الأول، ومونتريال عاصمة هامة من عواصم المؤتمرات فى العالم، ولا يمضى أسبوع حتى تشهد مؤتمراً جديداً.

امتلأ المصعد عن آخره بالنزلاء فخرجنا فى شبه «مظاهرة» صغيرة، متجهين إلى المطعم، فوجئت عند اقترابى منه بطابور طويل من النزلاء يقفون أمامه فوقفت فى آخره. . ولاحظت من موقعى أن كل الموائد مشغولة والجرسونات يهرولون فيه يمينًا ويساراً حاملين الأطباق كأنهم فى حرب وليسوا فى مطعم! لا أحب الطابع الأمريكى للفنادق الضخمة التى لا يعرف فيها أحد أحدًا، ويزيد عدد غرفها عن الألف غرفة! .

وأفضل الفنادق الصغيرة كلاسيكية الطابع، التى لا تزيد غرفها عن مائتى غرفة، ويألف موظفوها وجهك بعد أيام قليلة، أما فى هذه الفنادق الضخمة فلو أقمت فيها ستة شهور فلن يعرفك أحد من موظفيها.. ولابد أن تقف فى الطابور أمام موظف الاستقبال، ثم تذكر له رقم غرفتك قبل أن تسأله أى سؤال، وعلاقته بك تنتهى حين تنتهى إجراءات الدخول.. ويسلمك البطاقة الممغنطة التى تفتح بها باب حجرتك، فإذا وضعتها مرة فى الباب ولم تفتح، عدت إلى موظف الاستقبال ليضعها فى جهاز خاص «لتنشيط» مادتها المغناطسية؛ لأنها تفقد مفعولها بعد أسبوع من الإقامة، ولهذا لا يطالبك الفندق باستردادها حين تغادره.

تقدم الطابور أمامى فأصبحت فى مقدمته، وجاءت مضيفة المطعم بماكياچها الصارخ فى الصباح الباكر، وسألتنى بابتسامة وعجلة: وحدك؟.

ـ نعم، تدخن؟ قلت للأسف! فاتسعت ابتسامتها ثم قالت وهى تتحرك: «إذن انتظر قليلاً فالمكان الخالى الآن لغير المدخنين، وأشارت لمن بعدى واصطحبته إلى الداخل، وتكررت عودتها مرتين لاصطحاب من بعدى من غير السعداء غير المدخنين، وأنا مازلت أنتظر، ولا غرابة فى ذلك لأن ثلثى مساحة المطعم لغير المدخنين وثلثه فقط للتعساء الذين يفضلون الانتحار البطىء، تذكرت فى وقوفى حين صعدت منذ سنوات إلى الطائرة الجزائرية فى مطار الجزائر لأعود إلى القاهرة، وكان يقف إلى جوارى الفنان يوسف شاهين، وجاء المضيف الجزائرى فسألنى: هل تدخن؟ فأجبت نعم، وسأل يوسف شاهين: هل تدخن؟ فأجابه «بحرارة درامية» لا يتحملها الموقف: بشدة!، فضحكت ولم يبتسم المضيف الجزائرى، ثم قادنا إلى مقعدين متجاورين، وقال لنا: تفضلا بحرق صدريكما هنا كما تريدان.. ثم ضحك فتنفسنا الصعداء، وأدركنا أخيراً أنه يتمتع بروح الدعابة.

جاء دورى أخيراً فقادتنى المضيفة إلى مائدة جانبية، تطل على الشارع، والتقطت فى طريقى إليها صحيفة كندية، وبدأت أتصفحها انتظاراً للطعام.

أعوذ بالله! أول قصة قرأتها فيها كانت عن رجل مريض بمرض ميئوس من شفائه، اسمه كريهام عمره ٥١ سنة، وقد أعلن عن حقه فى أن يموت منتحرًا ليتخلص من حياته، ورتب لأن يدعو رجال الصحافة والإعلام ومصورى التليفزيون ليشهدوا «حفل» انتحاره، وبهدف إقناع البرلمان الكندى بالموافقة على اعتبار ما يسمونه «قتل الرحمة» أمرًا مشروعًا لا يعاقب عليه القانون.. وبحيث يكون من حق المريض اليائس أو غير القادر على تحمل آلامه إلى ما لا نهاية أن يطلب من طبيبه أن يحقنه بمادة قاتلة! وقد تراجع كريهام عن الانتحار العلنى فى اللحظة الأخيرة.. وأعلن أن الموت «شأن خاص» لا يصح تحويله إلى شأن عام! وفى كندا، جمعية تعمل لنفس هذا الغرض، اسمها جمعية «الحق فى الموت» «تكافح» لإقناع البرلمان بالموافقة على قانون قتل الرحمة والانتحار يأسًا من الحياة أو الشفاء أو تحسن الأحوال!.

رِخَص الحياة فتنة.. واليأس من رحمة الله كفر.. والانتحار أو طلب قتل «الرحمة» عدوان على حق لا يملكه إلا واهب الحياة وحده سبحانه وتعالى.. لكن كل ذلك مفهوم، مع البعد عن الدين، واتجاه المجتمعات الغربية بصفة عامة إلى الفردية، التى تجعل من كل شىء فى الحياة حتى الانتحار شأنا خاصًّا، لا يحق لأحد أن يتدخل فيه سوى صاحبه!.

حولت نظرى عن هذه القضية إلى الشارع، فرأيت من خلف الزجاج الجليد الأبيض يفرش الأرصفة ويمشى عليه المارة فى حذر خوفًا من الزحلقة. والسقوط فوق الجليد محنة تئن لها العظام، وقد جربتها مرة فى فنلندا بمنطقة «اللاب لاند» قرب القطب الشمالى، فرغم الحذاء الإضافى الذى يمنع الزحلقة فوق الجليد، لم أكد أمشى بضع خطوات، حتى وجدت نفسى مستلقيًا على ظهرى بالطول وعظامى تئن من أثر الارتطام بالجليد الصلب!

عدت للقراءة فشدتنى قصة أخرى لم تقع فى كندا، ولكن فى إنجلترا ونقلتها الصحيفة الكندية عن الصحف البريطانية، ففى إحدى مدن إنجلترا يعيش زوج وزوجته وأطفالهما الأربعة، الذين يبلغ أكبرهم الثانية عشرة من عمره، والزوجان يعيشان حياة عادية بلا خلافات ولا مشاكل، ولكن الزوجة فيما يبدو لم تكن قانعة بحياتها مع زوجها فتعرفت بشاب أعزب من البار القريب من بيتها.. وأحبها وتمادى فى التعلق بها، فطلب منها أن تهجر زوجها وتتزوجه أو تقيم معه فى سكن واحد، وأراد الشاب أن يحسم ترددها، ويضعها أمام الأمر الواقع فقرر أن يتخلص من الزوج.. ولم يخف نيته عنها.. فلم تشجعه، ولم تعترض اعتراضًا جادًا، فاتفق الشاب ـ فى حضور الزوجة ـ مع شخص مجهول التقيا به فى البار على أن يقتل الزوج مقابل ٥ آلاف جنيه إسترلينى كمقدم أتعاب.. والزوجة صامتة لا تتكلم.. وإذا تكلمت فإنها تلوم صديقها على هذا «الجنون»، الذى سيضيع فيه ٥ آلاف جنيه من كده وعرقه!.

وقبض الشخص المجهول المبلغ واختفى ولم ينفذ الاتفاق، وبلغت القصة بتفاصيلها أسماع الشرطة ربما من أحد رواد البار الذى سمع هذا الاتفاق، عرضًا، فألقت القبض على الزوجة والعشيق بتهمة الاتفاق الجنائى على قتل الزوج، وحققت معهما وقدمتها للمحاكمة.. وأفرجت المحكمه عن الزوجة تحت المحاكمة لرعاية أطفالها..

وبدأت الجلسات الأولى من المحاكمة فظهر من سيرها أن المحكمة ستحكم لا محالة على الشاب والزوجة بالسجن، وقبل عقد الجلسة الحاسمة فوجئ القاضى الذى ينظر القضية بخطاب من الزوج، يناشده فيه ويناشد المحلفين ألا يحكموا على زوجته بالسجن، ويقول إنه قد فكر طويلاً فى الأمر، فوجد أن سجن زوجته لن يضر أحدًا سوى أطفاله الأربعة، وإنه لا يستطيع وحده تحمل مسئولية رعايتهم وتوفير الأمان النفسى والاجتماعى لهم بغير معاونة أمهم له فى ذلك، لهذا فقد صفح عن زوجته وغفر لها «خطأها»، ويرى أن من مصلحة

الأسرة أن تستمر حياتهما معا لترعى شئون الأطفال، وتدير حياة الأسرة كما كانت تفعل من قبل بجدية وأمانة! وهرول مندوبو الصحف إلى بيته وصوروه، وهو يحضن زوجته ويؤكد لهم أنه يحبها.. وهى تحبه، وقد اعتذرت له عن «خطئها» فى حقه، فقبل اعتذارها واعتبر ما حدث سحابة صيف عابرة!.

ترى ماذا يحدث لو حدثت مثل هذه القصة فى مجتمعاتنا! لقد نظر الزوج للأمر كله من الناحية العملية البحتة، فرأى أن من مصلحته كأب لا يستطيع وحده رعاية أطفاله، ومن مصلحة هؤلاء الأطفال الذين يحتاجون لأمهم أن يصفح عنها ويناشد المحكمة ألا تحكم عليها بالسجن.

ولم ألمس فى التعليقات الصحفية على الحادث أى انتقاد لموقفه، ولكنى لمست الاستغراب فقط بدليل إبراز القصة فى الصحف، ولو لم تكن شيئًا خارقًا للمألوف حتى مع مفاهيم الشخصية الغربية، لما نالت كل هذا الاهتمام والإبراز، لم أعرف بماذا قضت المحكمة على هذه الزوجة، فقد غادرت كندا ثم فرنسا والمحاكمة مازالت مستمرة وأنا لا أتابع الصحف الأوروبية باهتمام يومى إلا خلال رحلاتى الخارجية، والمؤكد أن المحكمة ستحكم عليها بالإدانة.. ولكن بعقوبة أخف من السجن، وربما بالسجن مع إيقاف التنفيذ، لأنهم يضعون مصلحة الأسرة فوق القانون.. ولا أحد هناك يستطيع أن يحكم على موقف الزوج بالرفض أو القبول.. فكل شىء فى الغرب.. «شأن شخصى» ليس من حق أحد أن «يتفلسف» ويبدى رأيه فيه أو ينتقده، لكن الحادث يثير التأمل حقًا فى اختلاف المفاهيم والأفكار من مجتمع إلى آخر حتى بين أوروبا وأمريكا، ناهيك عن اختلافها الشاسع فى الغرب عنها فى الشرق.

ومقاطعة «كيبك» التى تقع فيها مونتريال، سكانها حوالى ٦,٧ مليون نسمة معظمهم من أصول فرنسية، لهذا فإن لغتهم الأولى الفرنسية.. وثقافتهم لاتينية ويحرصون على أن يؤكدوا لك أنهم يعيشون بالطريقة الأمريكية.

الفرنسيون مثلا يقدسون الإجازة الأسبوعية ولا يفرطون فيها، ولو دفعت لهم مقابلها الكثير.. ومعظم مقاهى باريس خارج دائرة وسط المدينة تغلق أبوابها يوم الأحد؛ لأن أصحابها يريدون أن يستمتعوا هم أنفسهم بالإجازة.. والمحال التجارية مغلقة فى كل مكان فى فرنسا يوم العطلة، أما فى كندا فوفقًا للأسلوب الأمريكى فى الحياة.. فإن المحال مفتوحة كل يوم حتى منتصف الليل تقريبًا.. والاختلاف الوحيد هو أنها تفتح أبوابها يوم الأحد فى الساعة الثانية عشرة ظهراً!.

والحى الذى يقع فيه الفندق كأنه قطعة من نيويورك بعماراته الشاهقة وكتله الفولاذية الضخمة الخالية من أى ذوق معمارى.. والتى لا تثير فى نفسك إحساس الجمال.. وإنما إحساس الرهبة!

تلذذت برشفات الشاى الأولى هذا الصباح.. وعيناى تتابعان سطور الصحيفة، وتتوقفان أمام خبر آخر له دلالة غريبة: فى إقليم كيبك لقيت ١٢٠ سيدة وفتاة مصرعهن على يدى أزواجهن أو أصدقائهن خلال العام الماضى، والرقم كبير بالنسبة لعدد السكان.. لكن تعليق الصحيفة يقدم له تفسيراً لا يقل غرابة.. وهو أن موجة العنف ضد المرأة فى كندا رد فعل عكسى لسيطرتها على حياة الرجل الكندى والسيطرة تولد الكبت.. والكبت يؤدى إلى الانفجار.. وكل شىء إذا زاد على حده انقلب إلى ضده، وهكذا ارتفعت جرائم قتل النساء!.

أما هذا الخبر فأكثر إزعاجًا وإن لم يكن أكثر غرابة.. فالإحصائيات تقول: إن نسبة الطلاق فى كيبك قد وصلت إلى أعلى مستوياتها فى كندا.. وفى كيبك وكندا والغرب بصفة عامة لا يتزوجون إلا بدافع الحب وحده، وبعد تجربة طويلة تصل أحيانًا إلى الإقامة فى سكن واحد عدة سنوات قبل الزواج.. فما قيمة الحب إذن إن لم يكن قادراً على حماية الزواج من الفشل! وأليس هذا دليلاً جديداً على أن الحب وحده ليس ضمانًا كافيًا لنجاح الزواج واستمراره، ما لم

يكن مؤيداً بعوامل أخرى عديدة كالتكافؤ والتقارب الثقافى والاجتماعى.. والصبر والحكمة وطول البال وحسن المعاشرة.. وتغليب المصلحة المشتركة للأسرة والأبناء على سعادة طرفى الزواج؟.

كان هذا هو آخر ما قرأته فى الصحيفة.. فطويتها، وأعدت فنجان القهوة إلى مكانه.. وأطفأت سيجارتى ثم غادرت المطعم والفندق الذى يبدو كسوق عكاظ بزحامه الصاخب حتى فى الصباح الباكر، وخرجت أتجول فى شوارع مدينة مونتريال الباردة، وأنا أفكر فى أحوال هذا العالم الجديد الحائر.. والمحير معًا!.

* * *



٢٧

ممنوع الإزعاج

كنت فى اليمن فى ذلك الوقت فى ربيع عام ١٩٨٧ فى زيارة قصيرة، ومضت بى الأيام فى لقاءات صحفية وزيارات للأماكن الأثرية ودعوات للغداء وليس للعشاء أبدًا!.

وكان مرافقى اليمنى شابًا ذكيًّا، كمعظم أهل بلده، وخريجًا جامعيًّا دارسًا للإعلام فى إحدى الجامعات العربية، لكنى لاحظت أنه فى فترة الظهيرة كل يوم يلوك فى فمه نباتًا يترك آثاره الخضراء على أسنانه وشفتيه.. ويعطى سائق السيارة التى نتنقل بها بعضًا منه فيقبله شاكرًا، وفهمت بغير سؤال أنه «القات» ذلك النبات الشهير الذى يزرع بكثرة فى أثيوبيا واليمن، والذى سبق أن رأيته لأول مرة قبل ذلك بعامين خلال زيارتى لجيبوتى.

وأذكر أننى سألت وقتها شابًّا جيبوتيًّا يتكلم العربية بصعوبة؛ نظرًا لانتشار الفرنسية والصومالية على ألسنة معظم الأهالى، عما يغريه فى هذا النبات الذى يشبه الملوخية الخضراء والذى يكلف من يتناوله كل يوم الكثير لأنه غالى الثمن، فأجابنى بعربيته شبه العاجزة إجابة لم أنسها أبدًا هى: إنه يأتينى بالفكرة!.

وضحكت كثيرًا لهذه الإجابة المختصرة المفيدة، وفهمت منها أن القات يؤدى إلى اعتدال المزاج، ويطلق الأفكار من عقالها فتحلِّق بحرية فى سماء الخيال، وتشوقت لأن أشهد مجلسًا من مجالس القات لأرى نوع هذه «الفكرة»، التى يستنزلها القات من سماوات الخيال إلى رؤوس الجالسين فيه، وأعربت عن رغبتى

هذه لمرافقى اليمنى فى شكل أمنية، يدفعنى إليها حب الاستطلاع والرغبة فى معرفة المجهول، ولم يعلق المرافق فتصورت أنه مطلب محرج فلم أعد للحديث فيه، ولكنه فاجأنى فى اليوم التالى عقب انتهاء مقابلاتى وعودتى للفندق بأن اتصل بى فى غرفتى.. وأنا أتهيأ لإغفاءة قصيرة بعد الغداء، وطلب منى ارتداء ملابسى؛ لأنى مدعو لحضور مجلس القات فى بيت السيد فلان. سألته: الآن؟ فأجابنى بحسم: نعم الآن!.

ياربى.. لقد كنت أتصور أن مجالس «القات» تعقد فى الليل، كما ينبغى لمن يريد أن يختتم يومه بسهرة طيبة وسط الأصدقاء والخلان، ولكن المرافق أكد لى غير ذلك فقاومت إغراء الكسل وارتديت ملابسى ونزلت إليه.. وتوجهنا بالسيارة إلى بيت الداعى الذى فهمت أنه يشغل منصبًا هامًّا فى القوات المسلحة اليمنية، على الرغم من أنى لم أره أبدًا سوى فى ملابسه المدنية، واستنتجت من ذلك أنه مسئول كبير بالمخابرات.

توقفت السيارة أمام بيت الداعى فإذا به منزل كبير فخيم يشى بخطورة شأن صاحبه، وسرت وراء مرافقى فى ممراته حتى بلغنا باب الصالون الكبير فلاحظت بجواره شيئًا غريبًا! فقد رأيت شماعة رأسية «ستاند» مشغولة بعدد كبير من البنطلونات، وإلى جوارها عدد آخر من الأحذية وكومة عالية من الفوط المزركشة الألوان، ورأيت المرافق يخلع حذاءه ففعلت مثله.. ثم رأيته يخلع بنطلونه.. فتوقفت عن تقليده متعجبا، ثم رأيته يعلّق البنطلون على الشماعة المكدسة بالبنطلونات.. ثم يتناول إحدى الفوط المزركشة ويلفها حول وسطه ويلتفت إلى متسائلاً.. لماذا لم أفعل مثله! فمددت يدى محرجًا إلى كومة الفوط وتناولت واحدة لففتها حول وسطى.. وتهيأت لدخول الصالون متغاضيًا عن نصيحة المرافق بأن أخلع البنطلون لأستطيع الجلوس على راحتى فى المجلس.

ودخلنا الصالون فوجدته غرفة فسيحة مفروشة بسجادتين كبيرتين، وتتدلى من سقفها نجفة ثمنية وتنتشر فى جوانبها المساند والوسائد المريحة.. وليس فى المكان

كله مقعد أو أريكة، ووقف الحاضرون للترحيب بالقادمين، فلاحظت سيماء الوجاهة والأهمية على وجوهم، وصافحت بينهم وزير الإعلام اليمنى.. ووكيل وزارة الإعلام ورئيس تحرير الصحيفة اليومية ورب الدار المهم، وأشخاصًا آخرين لم تلتقط أذنى أسماءهم أو مناصبهم ثم جلس الجميع.. وأدرت نظرى فى المكان فرأيت أمام كل جالس كومة من ذلك النبات الأخضر «وترموث» للشاى أو القهوة أو الماء المثلج، ورأيت نارجيلة كبيرة فى منتصف القاعة تمد أذرعها كالأخطبوط فى أكثر من اتجاه، وجاء شخص بحزمة كبيرة من ذلك النبات الأخضر ووضعها أمامى مع ترموث للشاى.. وآخر للماء المثلج، وشربت الشاى.. ولم أمد يدى إلى الحزمة ورجع الحاضرون إلى ما كانوا فيه من حديث قطعناه عليهم بمجيئنا، فوجدتنى مستغرقًا فى متابعة مناقشات سياسية وأدبية وفكرية جادة وممتعة.. وتبددت أولى أفكارى السابقة عن مجالس القات! فقد كنت أظن أن مجلسه مجلس «مزاج» لا تتردد فيه إلا أحاديث السمر الخفيفة، التى لاتجهد الذهن، فإذا بكل ما سمعته فيه من أحاديث العقل المنتبه.. لا أحاديث العقل الكائب.

بل لاحظت أيضًا أن رب الدار يضع أمامه مائدة منخفضة ومنهمك فى كتابة أوراق وتقارير لعلها من شئون عمله الهامة، وأن رئيس تحرير الصحيفة اليومية يفعل نفس الشيء ويستغرق فى الكتابة مستندًا إلى مائدة أخرى مماثلة.. وأن أحد الأشخاص يدخل كل فترة حاملاً التليفون إلى وزير الإعلام، فيتحدث فيه بصوت خفيض فى أمور وزارته، أو إلى شخص آخر يجلس فى مواجهتى بالضبط، ويرتدى جلبابًا أبيض ونظارة مذهبة ويبدو سمح الوجه مهذبًا، فيستغرق فى الحديث الجاد فى التليفون للحظات، ثم يعود للاشتراك فى المناقشات الدائرة.

وتساءلت أين إذن هذه «الفكرة» التى يجئ بها القات لمن يتناوله، والجميع كما أرى فى المجلس ترتسم على وجوهم علامات الجدية والأهمية؟.

وأين ما قرأته عن القات فى الموسوعة العربية من أنه نبات اسمه العلمى «سيلاسرس أديولوليس» موطنه الحبشة، ويزرع بكثرة فى اليمن ويحدث تناوله «رؤى وأخيلة غريبة» وأن قليله منبه وكثيره مخدر».. نعم أين هذا مما فى هذا المجلس من أذهان حاضرة وعقول يقظة؟.

ولاحظ جارى فى المجلس وكيل وزارة الإعلام أننى لم أقرب كومة النبات الأخضر، فحثنى على مضغ بعض وريقاته مؤكدًا لى: إنه لا ضرر منه على الإطلاق، وأتبع نصيحته بأن نبهنى إلى أنه لا يؤكل منه إلا تلك الوريقات الصغيرة شبه الصفراء التى تنبت فى قمة فرع النبات.. أما بقية الفرع كله بأوراقه الخضراء الكثيفة فلا قيمة لها وتلقى فى القمامة، وقطف لى بعض هذه الوريقات الصغيرة ووضعها أمامى فتحيرت ماذا أفعل، وأنا لا أريد المخاطرة بتذوق نبات كثيراً ما قرأت وسمعت عن أضراره الصحية، ولا أريد فى نفس الوقت أن أخرج على آداب المجاملة كضيف فى مجلس يتناول فيه كل الحاضرين هذه الأوراق، ومن آداب المجالس مشاركة الجالسين فيما هم فيه، لكيلا تبدو شاذًا غريبًا بينهم.. فمددت يدى إلى هذه الوريقات وتأملتها وقربتها من فمى، وهممت بمضغها كما يفعل الآخرون لكننى ترددت، فى اللحظة الأخيرة.. واحتفظت بها بين أصابعى كأنما أنتظر فرصة مواتية لأتخلص منها.. ولاحظ الشخص المهذب الذى يرتدى الجلباب الأبيض والنظارة المذهبة ترددى، وأدرك بفطنته حرجى ومخاوفى، فقال لى مبتسمًا:

ـ لا تخف من القات.. إنه ليس نباتًا مخدراً كما يعتقد كثيرون، وإنما هو نبات منبه للذهن وتأثيره كتأثير القهوة بالضبط لكنه أقوى.. وقد قتل موضوع القات بحثا فى المؤتمرات العلمية، وانتهى الرأى فيه إلى اعتباره من المنبهات القوية فإذا كانت له أضرار فهى كأضرار الإسراف فى تناول المنبهات، ومضغه وامتصاص رحيقه دون بلعه بكمية صغيرة أو معتدلة لا يؤدى إلى أى ضرر، ولهذا فإننا

نسمح به فى اليمن لجنود الجيش والشرطة، أثناء قيامهم بأعمال الخدمة لأنه ينبههم ولا يؤثر على عملهم.. فلا تخش شيئًا وتناول بعضًا منه على مسئوليتى!.

اطمأننت قليلاً إلى حديث محدثى.. أو قل إننى اطمأننت أكثر لروحه الودود ووجهه السمح الذى يوحى بالثقة، ونحن كما تعلم قد نستريح للأشخاص أحيانًا قبل أن نستريح لآرائهم.. وهممت من جديد بأن أمد يدى إلى الوريقات الصغيرة.. لكن خاطرًا خطر لى فجأة فأعاد إلىّ ترددى وتساءلت فى نفسى: ومن أدرانى أن هذه المعلومات الطبية التى أفتانى بها هذا الشخص المهذب دقيقة أو صحيحة؟ أليس من المحتمل أن تكون من قبيل طمأنة النفس قبل الغير إلى عدم خطورة هذا النبات الذى يتناوله محدثى؟ ثم من هو هذا الشخص حتى يجزم بصحة هذه المعلومات هل هو طبيب؟ أو صيدلى؟ هل هو على دراية بعلم العقاقير؟ تملكنى هذا الخاطر فأردت أن أستوثق من معلومات محدثى قبل الإقدام على التجربة، فسألته فى حرج.. وأنا أتمنى أن تكون إجابته بالنفى لأجد مبررًا للإحجام.

ـ هل سيادتك طبيب؟

ففوجئت به يجيبنى فى تواضع: أنا وزير الصحة!.

يا إلهى.. إنه ليس طبيبًا فقط، وإنما هو المسئول الأول عن صحة الشعب فى بلاده.. فكيف يحق لى بعد ذلك أن أشك فى دقة معلوماته الطبية؟.

لا مبرر للتردد والإحجام إذن.. ولاوجه للاعتذار فوضعت الوريقات فى فمى ورحت ألوكها ببطء، وأنا أحاذر من بلعها فوجدت طعمها مائعًا كطعم أوراق الملوخية قبل طهوها، وغالبت شعورى بطعمها غير المستساغ ورجعت لمتابعة المناقشات والمشاركة فيها، فشعرت بعد قليل بعطش شديد، وفهمت سر «ترموث»

الماء المثلج الذى وضع أمام كل جالس، فالقات فيما يبدو يشعرك بالعطش سريعًا فتشرب كثيراً، ويحمل الماء فى كل مرة عصارة أوراقه المختزنة فى جانب فمك إلى جوفك فتحدث تأثيرها المنبه.. وتأتى «الفكرة».

وشربت حتى أرتويت ناسيًا أو غافلاً عن حقيقة مهمة، هى أن «الغشيم» مثلي ينبغى لـه أن يبـصق بقايـا الأوراق الخضراء فى فمه، قبل أن يشرب حتى لا يبتلعها، وأما «المخضرم» فإنه يركن بخبرته بقايا الأوراق فى جانب فمه ويشرب كيفما يشاء بغير أن يبتلعها.

وكانت النتيجة أن ابتلعت هذه الأوراق خلال شربى للماء دون أدرى، ملت على جارى أسأله عن خطورة أكل القات بدلاً من مضغه بالنسبة لمبتدئ مثلى، فضحك طويلاً وأكد لى أن لا خطورة هناك ولا ضرر، سوى أن يزيد من تأثيره المنبه فيزيد احتمالات الأرق.. لكن الكمية التى تناولتها صغيرة للغاية ومأمونة ولا خطر البتة منها.

يا للمصيبة! يزيد من احتمالات الأرق؟ إنى لا أنام كل ليلة إلا بعد عذاب ومعاناة واستجداء ذليل لشبح النـوم، وكثيـراً ما أضطر حين أكون مرتبطًا بموعد لا مفر منه فى الصباح المبكر إلى الذهاب إليه، بغير أن تغفل عينى لحظة واحدة خلال الليل، كما أننى لا أسافر خارجى مدينتى إلا ومعى علبة الأقراص المنومة، التى يتحفنى بها أصدقائى المقيمون فى أوروبا وأمريكا كأثمن هدية، يستطيعون تقديمها لي.. إننى فى حاجة إلى نبات منوم وليس إلى نبات منبه.. فما الحيلة إذن، وقد ابتلعت وريقاته وقضى الأمر؟.

سلمت أمرى لله.. واكتفيت من التجربة بما مارسته منها تحرجًا ومجاملة، وأدركت فى هذه اللحظة لماذا تنعقد مجالس القات وقت الظهيرة وليس فى المساء كما يفعل بقية البشر.. إنهم «يسهرون» فى الظهر وليس فى الليل كما نفعل نحن، حتى يخف تأثير النبات المنبه مع حلول الليل ويستطيعون النوم فى سلام

كالآخرين، ولو عقدوها فى الليل فلن ينام أحد قبل الصباح وحتى تشرق الشمس.

كما أدركت أيضًا أن مجالس القات صالونات للفكر عند اليمنيين، يناقشون فيها شئؤنهم وشئون الحياة والعمل والعالم من حولهم.. ويختلف مستوى المناقشة فيها باختلاف المستوى الثقافى لأعضاء كل مجلس، ولأن القات يأتى «بالفكرة» فإن أحاديث السياسة تتردد بكثرة فى هذه المجالس، وتنطلق الألسنة تعبر عن الأفكار بحرية وبلا حرج، كما أنها أيضًا مجالس لإخوان الصفا والأصدقاء والأهل والأقارب، تزيد من روابطهم وتعمق صداقاتهم.

وقد استمتعت كثيراً بتلك الجلسة وبما دار فيها من أحاديث مفيدة، ولاحظت بدهشة أن لسانى قد تخلص من خجله الطبيعى بعد «حادث البلع» بقليل، فانطلق من عقاله وتكلمت.. وشاركت فى الأحاديث الجارية بأكثر مما تسمح به طبيعتى فى مجلس، ارتاده لأول مرة وغادرت المكان مع الأصيل.. وأنا أتساءل ماذا أفعل ببقية يومى، وقد عكست الآية «وسهرت» فى النهار الصريح واستنفدت فيه كل طاقتى الذهنية والنفسية؟ ولم أجد مفرًا من العودة للفندق.. ومحاولة قطع الوقت بالقراءة والكتابة ومشاهدة التليفزيون، ثم دخلت فراشى فى منتصف الليل محاولاً النوم، فلم يقترب منى شبحه إلا ونور الصباح يملأ الغرفة.. وموعدى مع المرافق فى الثامنة صباحًا بعد ساعتين على الأكثر، وقررت النوم تاركًا الأمور تجرى فى أعنتها.. ورفعت سماعة التليفون وعلقت على باب الغرفة لافتة «ممنوع الازعاج»، واستسلمت للنوم داعيًا ربى أن يغفل عنى المرافق اليمنى أو ينسى أمرى حتى الظهر.

وخيل إلىَّ أننى لم أكد أنم قليلاً حين صحوت على طرقات عنيفة على باب الغرفة.. فنهضت مترنحًا وساخطًا على من لم يحترم لافتة عدم الإزعاج المعلقة

على الباب، ومعتزمًا أن ألقى عليه درسًا قاسيًا فى احترام رغبات الغير ثم أعود للنوم من جديد، فإذا بى أرى وجه المرافق مكفهرًا.. وأسمع صوته بين النوم واليقظة، وهو يقول لى:

- الساعة الآن الثامنة والنصف.. وموعدك مع وزير الخارجية فى التاسعة!.

فلعنت فى سرى ضرورات العمل الصحفى، التى لا تراعى أبدًا احتياجات الإنسان وظروفه ولا تجاربه الطارئة كتجربتى مع القات، واتجهت مترنحًا إلى الحمام! وفى نيتى أن أطلب من المرافق دعوتى لمجلس جديد، بشرط ألا يضع أحد أمامى كومة من النبات الأخضر.. وبشرط ألا يكون من رواده أطباء ولا وزراء للصحة حتى لا أتحرج من التشكك فى معلوماتهم الطبية، وأضطر حرجًا وحياءً إلى مضغ هذه الوريقات الخضراء، وأقضى ليلة أخرى بائسة ومؤرقة كهذه الليلة.

* * *

٢٨

وداعًا للوقار

هل تنبئ البدايات غير المريحة بالنهايات المزعجة فى بعض الأحيان؟.

تردد فى ذهنى هذا السؤال، وأنا أستعيد الآن ذكريات هذه الرحلة التى قمت بها منذ بضع سنوات إلى المغرب، وكانت رحلتى الأولى والأخيرة حتى هذه اللحظة.

لقد بدأت الرحلة من القاهرة فى الصباح الباكر، وكان الترتيب المعد هو أن نلتقى أنا وزميل لى بالأهرام فى قاعة الانتظار بمطار القاهرة فى السابعة صباحًا، فنسلم جوازى السفر والحقائب إلى زميلنا مندوب الأهرام فى المطار ليتولى عنا مشكورًا إنهاء الإجراءات.. ونجلس نحن فى استرخاء لنتناول القهوة ونقرأ الصحف إلى أن يدعونا زميلنا للتوجه إلى الطائرة، قبل دقائق من رحيلها فننهض كما يفعل كبار القوم فى «تؤدة»، ونتجه إلى الطائرة فى «وقار»، مطمئنين إلى أن حقائبنا قد سبقتنا إليها.. وأنها لن ترحل بدوننا.

ونفذت أنا ما يخصنى من هذا الترتيب فوصلت إلى المطار فى السابعة صباحًا، وسلمت حقيبتى وجواز سفرى إلى زميلى مندوب المطار، وجلست أحتسى القهوة وأغالب النوم بعد أن ظللت ساهرًا طوال الليل.. ومضت الدقائق ولم يحضر زميلى المدعو معى إلى نفس الزيارة، وجاءت المضيفة الأرضية تتعجل توجهنا للطائرة فرجوتها الانتظار دقائق أخرى، عسى أن يلحق زميلى بنا فى اللحظة الأخيرة.. وصدق حدسى فلقد لحق بنا بالفعل، ولكن بعد اللحظة الأخيرة بثوان، وهرولنا وراء المضيفة الأرضية مضحين «بتؤدة كبار القوم» واتزان

خطواتهم فى الطريق إلى الطائرة، وبلغنا مدخلها وهى تغلق بابها من الداخل حتى كاد الباب ينغلق على يد المضيفة. . وفشلت كل المساعى مع قائد الطائرة الفرنسى فى أن يعيد فتح الباب بعد إغلاقه، ورجعنا من حيث أتينا نجر «أذيال الخيبة» كما يقول التعبير الشائع، وجلسنا فى القاعة نفكر ماذا نستطيع أن نفعل وقد فاتتنا طائرة باريس، وستفوتنا أيضًا الطائرة التى كنا سنركبها من باريس إلى الدار البيضاء بعد الوصول للعاصمة الفرنسية بساعتين.

واستقر رأينا على أن نبقى فى قاعة الانتظار إلى أن يحين موعد الطائرة النمساوية بعد ساعتين فنستقلها إلى فيينا. . ومن هناك نستقل طائرة أخرى إلى باريس فنصل إليها فى المساء ونمضى ليلتنا فيها ثم نغادرها فى الصباح إلى المغرب. . وأبدى الجميع تأييدهم للفكرة وحماسهم لتنفيذها، لكنى تساءلت: وماذا عن حقيبتى التى رحلت بها الطائرة الفرنسية إلى باريس ومنها إلى الدار البيضاء مباشرة حسب الترتيب السابق؟ وكيف أمضى ليلتى فى باريس، وأنا بلا ملابس ولا أدوات حلاقة ونحن فى الشتاء القارس؟ فطلبنا من زميلنا مندوب المطار أن يتصل بمدير مكتب الأهرام فى باريس؛ ليرجوه أن يحجز لنا غرفتين فى أحد فنادق المدينة، وأن يشترى لى بيجامة وبعض أدوات الحلاقة.

وركبنا الطائرة النمساوية إلى فيينا وهرولنا ـ وداعًا للوقار ـ فى ردهات مطارها الطويلة مرة ثانية، لنلحق بالطائرة الأخرى المتجهة إلى باريس بعد لحظات حتى ركبناها وموظفو الطيران يستعدون لإغلاق باب العبور إلى الطائرة! وجلسنا فى الطائرة النمساوية نلتقط أنفاسنا إلى أن هبطت بنا فى باريس، ووجدنا زميلنا مدير مكتب الأهرام فى انتظارنا وحملنا بسيارته إلى الفندق. . ونفدت طاقتى على مقاومة إعياء قلة النوم، فسقطت على الفراش بملابسى واستسلمت لنوم ثقيل لم أصح منه إلا على تليفون زميلى، يدعونى للهبوط إلى بهو الفندق استعدادًا للعشاء فى أحد مطاعم المدينة، وانتهى العشاء وأنا بين اليقظة والنوم ورجعنا للفندق. . ودخلت غرفتى وفتحت كيس البلاستيك الذى سلمه لى مدير مكتب

الأهرام فى باريس، وأخرجت البيجامة الجديدة لأرتديها فإذا بالبيجامة صغيرة وذراعاى وساقاى تبرز منها عارية ترتجف من البرد كأنها حلّة شاطئ أنيقة وليست بيجامة للدفء والنوم السعيد، ودخلت الفراش مستسلمًا للأمر الواقع، وأمضيت الليلة أرتجف من البرد رغم الغطاء والتدفئة المركزية.

ونهضت من النوم مصدوعًا لأتوجه مع زميلى إلى المطار فى طريقنا إلى الدار البيضاء، وأنا أترقب اللحظة التى أبدأ فيها زيارتى لهذا البلد العربى العريق ذى الطابع الفريد.. وهبطت بنا الطائرة فى المطار، فتوجهت إلى مكتب شركة الطيران لأتسلم حقيبتى التى سبقتنى فى الوصول للمغرب بيوم كامل، وبدلا من أن نغادر المطار، ونتعرف على معالم المدينة المغربية الجميلة فى جولة سريعة، توجه بنا مرافقنا من وزارة الإعلام إلى قاعة أخرى من قاعات المطار لنجلس بها أربع ساعات مملة فى انتظار الطائرة الأخرى، التى ستحملنا إلى فاس حيث ينتظرنا مسئول مغربى كبير.

وركبنا الطائرة إلى فاس فبلغناها فى المساء.. ووجدنا مندوبا آخر من وزارة الإعلام ينتظرنا ليبلغنا بأن المسئول الكبير الذى جئنا للقائه قد اضطر لمغادرة المدينة قبل وصولنا بساعتين لمشاغل سياسة طارئة، ويطلب منا أن «نستريح» فى الفندق، وسوف يبعث إلينا من يستدعينا للقائه حيث يكون واسترحنا بالفعل ليلتنا الأولى، واستزدنا من «الراحة» فى اليوم الثانى.. ثم ثقلت الراحة علينا فى اليوم الثالث.. وتحولت إلى سأم شديد، ونحن لا نكاد نغادر الفندق انتظارًا للاستدعاء المفاجى، الذى قد يأتى فى أية لحظة..

ومدينة فاس المغربية القديمة «حوالى مليون نسمة» على مرمى البصر من فندقنا، ولكننا لا نستطيع أن نجازف بالخروج فى جولة سياحية بين شوارعها القديمة.. أو نزور على الأقل جامعة القرويين الشهيرة، التى أسست بها عام ٨٥٦ ميلادية، فنافست بذلك الأزهر الشريف فى القدم والأسبقية على معظم جامعات العالم.

واتصل بنا من يبلغنا بأنه قد أرسل إلينا سيارة منذ دقائق، ويطلب منا الحضور «الآن . . الآن» وكررها عدة مرات لأن المسئول الكبير على وشك التحرك من مقره بالمدينة إلى مدينة أخرى على بعد ساعة بالسيارة، ويرغب فى مقابلتنا على وجه السرعة، «وهرولنا» من جديد نرتدى ملابسنا والمرافق لا يكف عن دق باب غرفتى وغرفة زميلى لاستعجالنا، فنخرج إليه والصابون على الذقن ونستمهله لحظات أخرى لنكمل ارتداء ملابسنا . . فيرجع بعد ثوان، ويكرر نفس العبارة التى سمعناها فى التليفون من مدير مكتب المسئول الكبير، وهى أرجوكم الآن . . الآن! .

وأنهينا ارتداء ملابسنا كيفما اتفق «وهرولنا» ـ ألف رحمة على الوقار والتؤدة مرة ثالثة ـ وراء المرافق فى ردهات الفندق الكبير إلى السيارة الفخمة على بابه، وانطلق السائق ينهب الأرض وأمامه دراجة نارية تفسح له الطريق، وتفتح له الإشارات المغلقة إلى أن وصلنا إلى ساحة المقر، فوجدنا «قُولاً» من السيارت السوداء على وشك التحرك، والمسئول الكبير يقف فى الساحة يتحدث إلى أحد المرافقين، فرحب بنا وصافحنا باحترام، ثم أبدى لنا أسفه لاضطراره الآن للانتقال إلى مدينة أخرى حيث تنتظره بعض الارتباطات والمقابلات الهامة، وقد رأى إنقاذًا للموقف أن نصاحبه فى هذه الرحلة البرية ليتحدث معنا خلال الطريق، ثم نستكمل الحديث الصحفى بعد الوصول فى مكتبه بالمدينة الأخرى، واتجه إلى سيارته الفارهة.

وتحرك «قول» السيارات فى الطريق إلى وجهته المقررة . . وبدأ الحديث الذى استغرق ساعة، تمتعت خلالها إلى جانب ذلك بمشاهدة الريف المغربى الجميل من نافذة السيارة بعد الحبس الاضطرارى فى الفندق لمدة ثلاثة أيام، واستكملنا الحديث فى مكتب المسئول الكبير بالمدينة الأخرى، وحان موعد رجوعنا إلى فاس فعدنا وحدنا إلى فندقنا وأمضينا ليلتنا فيه ثم توجهنا فى الصباح إلى مطار المدينة، لنستقل الطائرة إلى الدار البيضاء استعداداً للعودة إلى باريس، وفى الطريق إلى مطار مدينة فاس عطست بشدة بضع مرات ثم بدأ أنفى يسح بلا توقف، وبدأت

أشعر بارتفاع درجة حرارتى. يا ربى متى تسللت بوارد هذه الأنفلونزا اللعينة إلى جسمى؟ هل حدث ذلك فى باريس حين أمضيت الليل أرتجف من البرد فى بيجامة صيفية قصيرة كملابس لاعبى السيرك؟ أم حين تعجلنى مندوب الإعلام المذعور، الذى راح يدق باب غرفتى بعنف ليتعجلنى الخروج، فخرجت إليه من الحمام الساخن لأستمهله بضع لحظات؟.

لا أعرف على وجه التحديد.. لكن الأنفلونزا تسللت، والأمر لله، ولا مفر من احتمال آلامها السخيفة.

ووصلت إلى الدار البيضاء وأنفى مازالت تسح «وتمطر» كالسماء الغاضبة.. وكان الاتفاق أن نقضى يومين فى فندق «حياة ريجنسى» إلى أن يجئ موعد طائرة العودة لباريس، فأمضيت اليومين فى الفراش لا أقوى على مغادرته، وقد تمكنت منى أنفلونزا شرسة تهرس العظام.. وتفسد المزاج وتفقدك الرغبة فى الأشياء. ياللخسارة ضاعت فرصة رؤية المغرب الجميل أو «المملكة المغربية الشريفية» كما تقول الأوراق الرسمية.. «حوالى ٢٥ مليون نسمة فى إحصاء ١٩٩١» ما بين سجن الانتظار بفندق فاس، إلى سجن الجسد المريض بالأنفلونزا.

حتى الدار البيضاء.. المدينة الجميلة المطلة على مياه المحيط الأطلسى، والتى تعتبر المركز الرئيسى للصناعة والتجارة فى المغرب، واجتمع فيها الرئيس الأمريكى الشهير روزفلت خلال الحرب العالمية الثانية مع رئيس الوزراء البريطانى العتيد ونستون تشرشل.. حتى هذه المدينة الجميلة لم أر منها سوى صيدلية قريبة من الفندق، تحاملت على نفسى وخرجت إليها يوم الوصول، وطلبت من الصيدلانية المغربية المهذبة كل ما عندها من أدوية البرد، فقدمت لى ما أردت ثم سألتنى باسمة ومقلدة للهجة المصرية: عايز إيه كمان؟ فلم أقو حتى على الابتسام ورد مجاملتها الرقيقة، ورجعت إلى الفندق لأمضى بقية الفترة فى الفراش.

وغادرت المغرب بعد يومين إلى باريس لقضاء يومين قبل العودة للقاهرة،

وأقمت وحدى فى فندق صغير كنت قد أقمت به قبل ذلك أربع أو خمس مرات، وكان صاحبه الفرنسى الرقيق يستقبلنى دائمًا بابتسامته المهذبة، ويرحب بى ويدرب لغته الإنجليزية الضعيفة بالحديث معى به كلما رآنى، وقليلون هم من يعرفون الإنجليزية من الفرنسيين، وأمضيت اليومين فى غرفتى بالفندق أكتب الأحاديث الصحفية التى أجريناها فى المغرب، وفى اليوم الأخير فرغت من الكتابة.. وفتحت التليفزيون لأتسلى بمشاهدته، وكان موضوعًا على مائدة صغيرة فقربتها قليلاً من فراشى؛ فإذا بالجهاز يسقط على الأرض.. ويفقد النطق والصورة! يا إلهى! إن هناك مثلاً إنجليزيًّا يقول «إن الكوارث تأتى ثلاثًا ثلاثًا»، ولابد أنه ترجمة للمثل العربى القديم الذى يقول «إن المصائب لا تأتى فرادى»، فهل هذه هى ثالثة الأثافى فى هذه الرحلة المشحونة بالمفارقات منذ بدايتها؟.

لقد وسوس لى الشيطان للحظات أن أتكتم ما حدث للتليفزيون وأغادر الفندق ظهر اليوم التالى عائدًا إلى القاهرة.. ولن يكتشف أحد ما حدث له إلا بعد رحيلى، لكن ضميرى لم يقبل بهذا الحل.. ولم أستسلم لوساوس الشيطان طويلاً.. ومددت يدى إلى التليفون، ودعوت صاحب الفندق للصعود إلى غرفتى وصارحته بما حدث، فاتسعت ابتسامته الرقيقة وشكرنى على «أمانتى»، وطمأننى بأن الأمر بسيط ولن تزيد تكاليف الإصلاح عن ٢٠٠ أو ٣٠٠ فرنك على الأكثر.. وأنه سيدعو الفنى المختص فى الصباح لإصلاحه، وودعنى مكرراً شكره وتحيته، واسترحت لما فعلت ونمت ليلتى راضيا.

وفى الصباح غادرت الفندق لشراء بعض المشتريات قبل السفر، وودعنى صاحب الفندق بنفس بالابتسامة الرقيقة نفسها، وهو يؤكد لى أن الإصلاح سينتهى قبل عودتى، وتجولت فى الأسوق لمدة ساعتين ورجعت إلى الفندق مع صديق مصرى مقيم بباريس لآخذ حقيبتى وأدفع فاتورة الإقامة.. وإصلاح التليفزيون وأتوجه إلى المطار، فإذا بصاحب الفندق المهذب الرقيق يتحول فى لحظات إلى شخص آخر غريب، لعله كان شخصيته الحقيقية التى يغطيها بالابتسام

والرقة، وإذا به يقابلنى بوجه عابس.. ويتحدث إلىّ بعصبية مكتومة، ويبلغنى بأنه اتصل بالفنى بالتليفون، فأبلغه أنه ما دام التليفزيون قد سقط على الأرض فقد تلقى صدمة لن ينفع معها إصلاح، وبالتالى فلابد أن أدفع ثمنه كاملاً وهو ثلاثة آلاف وخمسمائة فرنك إلى جانب فاتورة الإقامة، وأستطيع إذا أردت أن آخذ معى الجهاز المعطل!

لم أتضايق للمبلغ الكبير الذى يطالبنى به جزاءً «لأمانتى»، التى شكرنى عليها من قبل، بقدر ما تضايقت للجفاء المفاجئ الذى عاملنى به.. وأسقط به قناع التهذيب المفتعل والابتسامة الرقيقة عن وجهه الحقيقى.. وساءنى أن يطلب منى حمل الجهاز المعطل معى بعد دفع ثمنه.. كأنما يقول لى أنت وشأنك! فحدثته بالإنجليزية، وذكرته بأننى كنت أستطيع أن أتكتم ما حدث للتليفزيون.. وأنه لم يف بوعده بإحضار الفنى لإصلاحه فى الموعد المناسب، وهممت بدفع المطلوب مسلما أمرى لله فى هذه الرحلة المزعجة منذ بدايتها، لكن صديقى المصرى تدخل فى الحديث بعصبية مماثلة لعصبية صاحب الفندق، وقال له: إن الفنادق تؤمن على محتوياتها ضد الكسر والإتلاف، وإنه إذا كان لم يفعل ذلك فهذا خطؤه وليس خطئى، كما إن إصلاح أى جهاز لا يمكن أن يتم بالتليفون ودون معاينة، وبالتالى فلن يدعنى أدفع شيئًا مما يريد!

وتجادل الرجلان بعصبية شديدة علمت فيما بعد من صديقى أنها الطريقة المناسبة للتعامل مع بعض الفرنسيين عند الضرورة، وانتهى جدالهما بأن قبل صاحب الفندق أن يؤجل القرار بشأن ثمن التليفزيون إلى أن يتم عرضه على الفنى المختص أولاً مقابل أن يسجل اسم وعنوان صديقى المقيم بباريس ورقم بطاقة الائتمان الخاصة به، ليطالبه بقيمة الإصلاح أو ثمن الجهاز حين يتقرر ذلك، وغادرت الفندق آسفًا وعازمًا على عدم العودة إليه مرة أخرى، وطلبت من صديقى أن يدفع عنى ما ينتهى إليه التفاوض مع صاحب الفندق، دون مماطلة أو جدال معه؛ لكى تنتهى هذه الرحلة بخيرها وشرها.

وركبت الطائرة عائدًا إلى القاهرة.. وحلقت الطائرة فى السماء واستسلم زميلى، الذى بدأنا هذه الرحلة معًا للنوم بعد تناول العشاء، فإذا بى أشعر

بتلقصات فى معدتى لعلها من أثر الأنفلونزا اللعينة أو بعض ما أكلت فى العشاء أو من أثر كل هذه المصادفات غير المريحة. . وإذا بى أشعر برغبة شديدة فى إفراغ معدتى. . فأنهض مرتبكًا، وبدلاً من أن استخدم الكيس المخصص لذلك والموضوع فى ظهر المقعد أمامى، أهرول منزعجًا إلى مقدمة الطائرة ـ يا ميت ندامة على الوقار والاتزان مرة رابعة ـ وأفرغ معدتى فى الحمام وأنا أشعر بالآم رهيبة وأرجع إلى مقعدى خائر القوى ممتعضًا مصفر الوجه، وأنا أتساءل لماذا تلازمنى المتاعب فى هذه الرحلة منذ البداية؟ أتراني قد نسيت شيئًا من «طقوس السفر» التى ألتزم بها فى كل مرة كالصلاة قبل مغادرة البيت وكدعاء السفر فى الطريق للمطار وعند الإقلاع والهبوط. . إلخ. . ترى هل نسيت شيئًا من ذلك فخاصمنى التوفيق فى هذه الرحلة؟.

لم أستطع أن أجد إجابة محددة لذلك. . لكنى حاولت أن أنسى هذه الرحلة التى قمت بها للمغرب، ولم أر فيها المغرب، ولم أتعرف على شعبه الطيب الودود إلا فى أضيق الحدود.

أما «ذيولها» فلقد استمرت بضعة أسابيع أخرى، من خلال الجدل العنيف بل والشجار أيضًا بين صاحب الفندق الفرنسى الوقح الذى أصر على دفع ٣٥٠٠ فرنك، وصديقى المصرى الذى ركب رأسه وأصر على ألا يدفع له شيئًا وهدده بأن يشكوه إلى هيئة السياحة الفرنسية، حتى رجوته تليفونيـًا أن يضع كلمة النهاية لهذه الرحلة ومتاعبها، فتوصل مع صاحب الفندق إلى حل وسط ودفع له ألفى فرنك فقط، وهو عاتب على أنى حرمته من فرصة مواصلة نزاعه مع الفرنسى الوقح على راحته إلى النهاية!.

ثم نسيت هذه الرحلة فيما نسيت من بعض أحداث الحياة، حتى بدأت إعداد هذا الكتاب للنشر، فإذا بى أتذكر هذه الرحلة التى سقطت فى بئر النسيان فجأة. . وإذا بحنينى إلى زيارة المغرب التى لم «أزرها» رغم سفرى إليها ذات مرة، يتجدد مرة أخرى.

٢٩

مقعد فى السماء

أخيراً نجحت فى العثور على متحف الفنان العظيم بابلو بيكاسو فى شوارع حى سان بول الضيقة والمحيرة كدروب بيت حجا فى باريس، فى زيارتين سابقتين عجزت عن الاهتداء إليه رغم العنوان الواضح فى يدى، ورجعت يائسًا من المحاولة، وحين عثرت عليه هذه المرة اكتشفت أننى كنت فى المرتين السابقتين أقرب ما أكون إليه.. لكن الشوارع الضيقة خدعتنى.. فدرت حوله مرارا دون أن أعرف مكانه، ولم أجد من يدلنى عليه..

أما هذه المرة فقد شاءت الظروف أن «أرى بيكاسو مرتين.. مرة فى لوحاته الجميلة والمحيرة فى متحفه، ومرة أخرى قادتني الصدفة إليها فشاهدت عرضًا جديدًا للباليه فى أوبرا باريس العريقة اسمه «بيكاسو.. والرقص» استوحيت أفكار رقصاته من لوحات الفنان الإسبانى الأصل، الذى عشق باريس وتفجرت فيها موهبته الفريدة.

أما المتحف فقد استغرقتنى لوحاته الجميلة.. والغريبة، وشاهدت لوحات المرحلة الأولى من حياته، التى كان يرسم فيها كالآخرين وجوهًا قريبة من الواقع.. ثم شاهدت لوحاته السيريالية فأدارت رأسى بأفكارها الجرئية وألوانها الساحرة.. وتوقفت أمام لوحتين له، رسم فيهما منظرا جانبيا «بروفيل» لوجه امرأة، فرسم لها عينين واسعتين فى بروفيل وجهها الجانبى.. كأنما يريد أن يقول إن للمرأة أربع عيون فى وجهها: عينين ترى بهما الحياة فى كل شئونها وعينين آخرين تلاحق بهما رجلها.. وتحصى عليه خطواته وحركاته، ويبدو أنه قد

رسمها من وحى متاعبه مع معظم النساء اللاتى عرفهن فى حياته، فلقد عرف فى رحلة عمره الطويلة سبع نساء ما بين زوجات وعشيقات، وأحالت إحدى زوجاته حياته إلى حجيم، فقال متأوها «الفن ينبع من الحزن والألم»! وأنه يرسم ويبدع لأنه يتألم ويعانى. وتوفيت ثانية عشيقاته فحاول أن ينسى أحزانه لوفاتها.. وتزوج من راقصة باليه اسمها أولجا لوكلوف فعانت من بوهيميته كثيراً وفشلت فى ترويضه وشقى معها واضطربت أعصابه، وعكست لوحاته خلال هذه الفترة من حياته العذاب والألم والتشاؤم، وتوقف عن الرسم لفترة حتى استطاع أن يسترد نفسه مرة أخرى.

لكن بيكاسو عوض كل آلامه مع النساء.. فختم حياته فى رفقة فتاة صغيرة أحبته واستوعبت بوهيميته ونزواته.. وعاملته كأم حنون ترعى طفلها الكبير مع أنها كانت تصغره بأربعين سنة.. فاستسلم لحنانها وارتبط بها حتى آخر لحظة من حياته، وفى دفء صحبتها رسم أبدع لوحاته الأخيرة، وروى أصدقاؤه أنه كان فى الفترة الأخيرة من عمره، تنتابه نوبات غامضة من اليأس.. والشك فى قدرته على الاستمرار فى الرسم والإبداع فكان يجلس فى الصباح أمام اللوحة.. ويمسك بالفرشاة فتمضى فترة طويلة دون أن يخط فيها خطًا واحدًا.. ثم ينفجر فى البكاء على كتف فتاته، ويقول لها: إنه قد انتهى ولن يرسم مرة أخرى فتهدئ من روعه وتهدهده كطفل صغير.. وتقول له إنه أعظم فنان فى عصره وأنه سوف يبدع مالا يستطيعه غيره من الفنانين حتى آخر لحظة من العمر. ثم تسحبه من يده برفق وتجلسه أمام اللوحة وتضع الفرشاة فى يده، وتنظر إليه باسمة ومشجعة كما تشجع مدرسة عطوف تلميذاً صغيراً على أن يبدأ الإجابة عن أسئلة الامتحان التى يتصور فى انهياره أنه لن يستطيع حلها.. فيبدأ يحرك فرشاته وهى تداعب شعره وتحثه على الاستمرار.. وتنساب الفرشاة على اللوحة.. وتعزف أجمل الألوان والأفكار!.

وبعض لوحاته التى بيعت فى أواخر حياته وبعد وفاته بأرقام فلكية من إنتاج

هذه المرحلة من عمره، التى كان يبدأ يوم العمل فيها بالانهيار والبكاء وإعلان عجزه عن أن يرسم خطًا واحدًا! وهذه هى أهمية العطف والحنان والتشجيع الذى يحتاج إليه كل إنسان من شريك حياته؛ لكى يستمر صموده فى معركة الحياة.. ويحقق إبداعه فى مجاله..

والطريف أن بيكاسو الذى عاش أكثر من ثمانين سنة حافلة بالفن والعشق والألم.. والحب والشهرة، لم يتوقع له أهله أن يعيش يومًا واحدًا بعد ولادته، فقد ولد بين الحياة والموت وساقت المصادفة طبيبًا من أقاربه إلى بيت أسرته، فاستنجدت به القابلة التى قامت بتوليد أمه لإسعافه فأسعفه.. ونجا من الموت وعاش حياته الطويلة الحافلة. وحين قلب الموازين فى عالم الفن برسومه السيريالية وضاق خصومه من الرسامين التقليديين بخطوطه الجرئية وأفكاره الخارقة للمألوف، قال أحدهم مشيرًا إلى ولادته بين الحياة والموت:

ـ ليت القابلة تركته يموت يوم ولدته أمه!.

وحين شاهدت لوحات متحفه، قلت لنفسى وأنا أقف أمام إحدى لوحاته الكبيرة المبهرة: بل حسنًا فعلت تلك القابلة الحكيمة حين استنجدت بالطبيب الزائر لينقذ للفن هذا المولود العبقرى!.

والحق أننى كلما تجولت فى شوارع باريس وشاهدت ما يفعله بعض الشباب والفتيات بوجوههم وملابسهم وأنفسهم، أدركت أن جنون بعض لوحات بيكاسو لم يأت من فراغ وإنما يعكس جنون عصره، إذ ماذا تساوى غرابة بعض خطوطه أو وجوهه.. إلى جانب ما يفعله بعض الشباب الأوروبى والأمريكى الآن بوجوههم.. وأنفسهم؟.

لقد شاهدت فى شارع الشانزليزيه فى ليلة العطلة الأسبوعية من مجلسى الدائم، طوال كل زياراتى لباريس فى مقهى «جورج سانك»، وخلال نصف ساعة فقط، عددًا كبيرًا من الفتيات، يرسمن دوائر متقاطعة بالأوانى الغريبة على

خدودهن وعلى جباههن.. كأن رساما سيرياليًّــا قد رسم لوحته العجيبة على وجوههن.

وشاهدت فتيات وشبابا يطلون وجوههم بالدقيق الأبيض كما يفعل المهرجون فى السيرك. وشاهدت شابا يمضى فى كبرياء، وهو يمسك بيده مقبض سلسلة من سلاسل الكلاب، تابعتها بنظرى فوجدت فى نهايتها طوقا يلتف حول عنق فتاة شابة تسير وراءه طائعة كما يسير الكلب وراء صاحبه. ناهيك عن الشفاة المصبوغة باللون الأسود الفاحم، للفتيات والشباب، وعن الحلق الذى يضعونه فى شفاهن وشفاههم كما يفعل الغجر. فهل كثير على بيكاسو بعد كل هذا الجنون أن يرسم امرأة بأربع عيون، أو يرسم رجلا له وجهان، أو امرأة لا تعرف رأسها من قدمها؟.

إن الشباب الذين يتفننون فى هذه الغرائب يعبرون عن نزعة سائدة لدى قطاع عريض من الشباب الأمريكى والأوروبى شعارها: حريتى جسدى! أى سأفعل به ما أشاء وليس لأحد حق الاعتراض.. وبيكاسو كان يقول: حريتى ريشتى وسأفعل بها ما أشاء وليس من حق أحد أن يعترض.. والجنون سائد من قديم الزمان والفكرة العبثية تعبير عن خواء نفسى ودينى وقيمى.. والفنان كالكاتب كلاهما مرآة عصره.. لهذا فقد كان لابد لبيكاسو وسلفادور دالى أن يصورا هذا العصر فى لوحاتهما المجنونة، وأن يصدما بها أفكارنا الثابتة لنتأمل ما يجرى حولنا.. ونحاول أن نتفهم أسباب هذا الجنون، لهذا شاهدت بيكاسو هذه المرة فى متحفه.. وفى وجوه الفتيات والشباب فى شارع الشانزليزيه.. واكتفيت بذلك، لكنى فوجئت بأنى أستطيع أن أشاهده أيضًا فى أوبرا باريس، فكانت مفاجأة سعيدة بالنسبة لى.

فمن عادة أصدقائى المقيمين فى باريس أن يحذرونى من إضاعة وقتى بمحاولة السؤال فى الأوبرا عن تذكرة لأحد عروضها، خلال فترة زيارتى للمدينة لأن تذاكرها محجوزة دائمًا قبلها بشهرين أو أكثر، ومن عادتى ألا أستجيب لهذا

التحذير، وكلما وجدت نفسى أمام الأوبرا اتجهت إلى شباك التذاكر، وسألت موظفته عن تذكرة لعرض الليلة أو غدا، فتبدى لى أسفها غالبًا وتفاجئنى أحيانًا بوجود تذكرة أعادها صاحبها فأتهلل فرحا وأعود منتظرًا إلى أصدقائى، وهذه المرة كررت المحاولة ففاجأتنى موظفة الشباك قائلة: أنت سعيد الحظ يا سيدى هناك مقعد ممتاز بـ ١٢٠ فرنكا فقط! وشكرتها بحرارة وراجعت أسعار الدخول معلقة على الشباك، فعرفت أنه لن يكون فى الصالة، ولكن فى أحد الأدوار العليا من الأوبرا.. وأملت أن يكون فى دور منخفض نسبيًّا قليلاً؛ حتى لا يرهقنى صعود سلالمها العالية وأستطيع الاستمتاع بالعرض. وفى المساء توجهت إلى الأوبرا منتعشا، ومددت يدى بتذكرتى مزهوًا إلى موظف الباب، فقال لى: الدور الرابع يا سيدى!.

يا إلهى الدور الرابع! وعلى سلالم الأوبرا العالية أين إذن الحظ السعيد الذى بشرتنى به موظفة الشباك؟ لم تكن أمامى فرصة للتراجع فرفعت رأسى إلى أعلى وقدرت عدد السلالم التى سأصعدها وكدت أعزف عن المحاولة.. لكن رغبتى فى مشاهدة البالية غلبتنى.. فصعدت درجات السلم على مهل.. ووصلت إلى مقعدى فوجدته مقعدا ضيقًا محشورًا وسط الصفوف، وكل أسباب «امتيازه» أنه يرى المسرح من المواجهة وليس من الجنب، ونظرت إلى أسفل فعرفت أنى سأشاهد عرض الباليه من «السماء».. وليس من الأرض.. ومع ذلك فقد رأيت نفسى أسعد حالا من سكان الدور الخامس بالأوبرا، الذين لابد سيحتاجون إلى نظارات مكبرة ليشاهدوا ما يجرى على المسرح.

وجلست ألتقط أنفاسى وأهدىء أوجاع تيبس المفاصل، فأطفئت أنوار الصالة.. وبدأ أوركسترا أوبرا باريس الشهير يعزف مقدمة اللوحة الأولى.. ونظرت إلى حفرة الأوركسترا فى مقدمة الصالة فشاهدت ثمانين عازفًا بملابسهم السوداء الأنيقة وربطات العنق الجميلة يبدون كالسفراء فى حفلات السفارات الرسمية! وفتح الستار وبدأ العرض، فوجدت نفسى أنسى بعد قليل أوجاعى

وهمومى.. وفارقنى الصداع الذى ألم بى قبلها بساعات مع انهماك «السفراء» الثمانين فى عزفهم المبدع على آلاتهم، وحلقت فى السماء العالية مع اللوحات الراقصة، والأنغام والجو الحالم، الذى أشاعته فى نفسى حركات الراقصين والراقصات الناعمة..

وأفقت من خيالاتى على انتهاء اللوحة الأولى.. ويداى تشاركان فى عاصفة التصفيق التى انفجرت تزلزل المبنى العتيق. ثم توالت اللوحات وترددت الأنغام الساحرة فى أرجاء الدار، ففقدت الإحساس بالمكان والزمان وانتهى العرض كلمح البصر، واكتشفت وأنا أنزل درجات السلم فى رحلة الهبوط الطويلة من سماء الفن إلى أرض الواقع أنه قد مضت ثلاث ساعات كاملة، لعلها كانت من «أسرع» وأجمل ساعات العمر.. وتذكرت أيضا ما رواه لى صديق قديم فى باريس، نقلاً عن الروائى السودانى المبدع الطيب صالح من أنه قد شاهد ذات مرة سيدة فرنسية لا يقل عمرها عن الخامسة والثمانين تحجز لنفسها فى أحد أيام شهر أكتوبر مقعداً فى إحدى حفلات الأوبرا، التى ستقام فى شهر فبراير من السنة التالية.. فتعجب الطيب صالح، ليس لرغبتها فى الاستمتاع بالحياة حتى الرمق الأخير، وإنما من ثقتها فى «الغد»، ومن أنها ستكون «هناك» فى الموعد المأمول لتستمتع بعرض الأوبرا وبالفن الجميل.

وقلت لنفسى إن الأمل فى الحياة دائمًا جميل ومطلوب، بل ومفيد أيضًا، وأول فوائده هو أنه يقدم لهذه السيدة العجوز.. مقعدا فى الأوبرا على الأرض وليس فى السماء، كما حدث معى!.

* * *

٣٠

يوميات الفخر.. والبرد.. والتقاليد..

السويد؟!

وفى ديسمبر حيث تنخفض الحرارة أحيانًا إلى ١٦ تحت الصفر؟.

ماذا يدعوننى للسفر إليها فى مثل هذا الوقت من السنة، وقبل يومين فقط من شهر الصيام، الذى لا أحب السفر خلاله إلى أوروبا؟!.

ترددت فى قبول المهمة بعض الوقت، لكنى أدركت أننى لن أقوى على رفض النداء مهما تكن المبررات.. فلقد جاء من إنسان عزيز على القلب.. هو الدكتور أحمد زويل.. وكانت البداية رسالة بالفاكس من صديقى الأستاذ عاطف الغمرى، مدير مكتب «الأهرام» فى واشنطن إلى إدارة التحرير بـ «الأهرام» يقول فيها: «إن عالم مصر الكبير يستعد للسفر إلى أستكهلم لتسلم جائزة نوبل عن عام ١٩٩٩ فى الكيمياء، ويرجو أن يكون من يغطى هذا الحدث لـ «الأهرام» من عاصمة السويد صديقا يثق فيه، وفى دقته فى النقل عنه.. وبالتالى فهو يرجو أن يكون أحد اثنين: إما الأستاذ عاطف الغمرى، أو كاتب هذه السطور.. ولما كانت ظروف الزميل لن تسمح له بمبارحة واشنطن خلال هذه الفترة، فإنه ـ أى عاطف الغمرى ـ يأمل أن تسمح ظروفى أنا بمرافقة زويل فى أستكهلم، خلال احتفالات مؤسسة «نوبل» بتسليم جوائزها للفائزين..».

وهكذا حسم الأمر!.. ووجدتنى أتساءل: أمازال فى القدرة بقية للقيام بمهمة صحفية من هذا النوع؟! لقد توقفت عن التواجد فى مواقع الأحداث الساخنة

ومتابعتها صحفيًّا منذ زمن طويل. . وسلمت ـ مع غيرى من أبناء جيلى ـ بأن الشباب من جيل الصحفيين الجدد هم الآن أكثر همة وجلدًا على القيام بمثل هذه المهام من جيلنا الذى أنهكته السنون. . لكن. . من يقدر على الاعتذار لأحمد زويل عن عدم شهود مثل هذه المناسبة الجليلة معه فى عاصمة السويد، والكتابة عنها لـ «الأهرام»؟! وكم فرصة قد يتيحها العمر لمشاهدة مصرى نابغ عن قرب، وهو يتقدم من ملك السويد كارل جوستاف السادس عشر ليتسلم منه ـ تحت أنظار العالم كله ـ جائزة نوبل فى الكيمياء؟!.

أليست هذه لحظة ثمينة من تلك اللحظات. . أو الساعات التى يقول عنها أمير الشعراء أحمد شوقى: قد يهون العمر إلا ساعة؟!.

ومتى يتاح لى أن أشهد عن قرب مرة أخرى هذا الفتى النابغ، الذى حصل على الثانوية العامة ـ من نفس المدرسة التى حصلت عليها منها قبله بعدة سنوات. . «دسوق الثانوية» ـ وهو يتكلم أمام ملك السويد. . وتتركز حوله الأضواء. . ويضع اسم بلاده على خريطة التقدم العلمى على المستوى العالمى؟!.

بدأت الاستعداد للسفر، وراسلت بالفاكس مؤسسة نوبل العالمية، لأحجز لنفسى مكانا فى الاحتفالات وفى حفل تسليم الجوائز وحفل العشاء التقليدى الذى يعقبه، ويحضره دائمًا ١٥٠٠ مدعو من كبار الشخصيات السويدية والعالمية. . وأجابتنى المؤسسة بأنها ستبذل غاية جهدها لحجز مكان لى فى حفل الجوائز، الذى لايخصص من عدد مقاعده سوى ٣٠ مقعدًا فقط للصحافة المحلية والعالمية، وحفل العشاء الذى لا يخصص من مقاعده للصحافة كلها سوى ٨ مقاعد لا غير!. .

و«بشرتنى» المؤسسة بأنه فى حالة نجاحها فى حجز مقعد لى فى حفل العشاء، فإننى سوف أكون مطالبًا بدفع مبلغ ١٧٠٠ كرون سويدى (٢١٥ دولارا) مقابل

تذكرة الدخول، وأننى لابد لى لدخوله من أن أرتدى بدلة «الفراك» السوداء ذات الذيلين الطويلين ـ التى كان يرتديها محمود المليجى وهو يراقص ليلى مراد فى فيلم «غزل البنات»! ـ إلى جانب «ربطة» العنق الصغيرة البيضاء «البابيون»، والقميص الأبيض المنشى، والصديرية البيضاء المنشاة.. وكل هذه الملابس أستطيع ـ كما قالت لى المؤسسة فى خطابها ـ استئجارها من محل محدد لـ ٢٤ ساعة مقابل ١٤٠٠ كرون سويدى (١٧٠ دولار)..

وأجبت المؤسسة باستعدادى لتحمل التكلفة المادية لمراسم دخول حفل العشاء.. لكننى توقفت بعض الشىء أمام هذه الملابس الرسمية التى تصر المؤسسة على أن يرتديها من تسمح لهم التقاليد السويدية بحضور حفل العشاء.. وتساءلت: ولماذا كل هذا العذاب لمجرد الحفاظ على تقاليد شكلية استقرت هناك منذ مائة عام؟!.

ولم تكن هذه هى المشكلة الوحيدة.. فلقد تبين أن الفندق الذى طلبت الحجز فيه خلال أسبوع احتفالات نوبل، والذى سيقيم فيه زويل والفائزون ببقية الجوائز ـ محجوز عن آخره لمن تسميهم المؤسسة «عائلات نوبل».. أى عائلات الفائزين بالجوائز الذين يصحبونهم للسويد فى هذه المناسبة الجليلة.. ولغيرهم من السويديين الذين يحرصون على الوجود فى هذا الفندق خلال أسبوع الاحتفال، لمشاهدة نجوم العلم والفكر الفائزين بالجوائز عن قرب.. وتطلب الأمر فى النهاية أن يضغط زويل من كاليفورنيا بشدة على المؤسسة؛ لكى تدبر لى غرفة فى هذا الفندق العريق.

وفى الطائرة التى حملتنى من القاهرة إلى زيوريخ بسويسرا، وخلال فترة الانتظار فى مطارها لمدة ثلاث ساعات لركوب الطائرة إلى أستكهلم، كنت قد انتهيت من قراءة كتاب حديث عن السويد وجوائز نوبل قدم لى قاعدة معلومات أساسية عنها..

وحين خرجت من مطار لارنادا «القريب» من أستكهلم! ـ لم أفاجأ بلسعة البرد التى لطمتنى، ولا بالظلام الدامس المبكر الذى حل على المدينة قبيل الخامسة مساء.. فالسويد كلها ـ كما عرفت من الكتاب ـ فى «بياتها الشتوى»، الذى يستمر ستة أشهر كاملة كل عام ويقصر فيه وقت النهار، فلا يزيد عن ٥ أو ٦ ساعات تقريبًا، من حوالى العاشرة صباحا حتى الرابعة مساء.. وهو نهار شكلى يكون ضوؤه مشابهًا لغبشة الفجر عندنا، أو شفق ما قبل الغروب.. مقابل ستة أشهر أخرى فى الصيف، تشرق خلالها الشمس فى الثالثة صباحًا، ولا تغرب قبل الحادية عشرة مساء، ولا تعرف السويد خلالها الظلام تقريبًا فى الليل أو النهار!.

وفى الطريق إلى الفندق، تأملت مبانى العاصمة التى تتراكم فوق أسقفها الثلوج، وينتشر الجليد على جوانب طرقاتها.. وتفكرت: كيف استطاع شعب هذه الدولة ـ التى تقع فى أقصى شمال أوروبا وتخترق الدائرة القطبية مقاطعاتها الشمالية، ولا يزيد عدد أبنائها عن ٨,٦ مليون نسمة، ومنهم ما يقرب من مليون أجنبى ـ أن يحقق لبلاده هذه السمعة العالمية فى الاحتفاء بالاكتشافات العلمية، وثمار الفكر الإنسانى العالمى، وتشجيع النبوغ والتفوق فى مجالات العلوم والطب والأدب والاقتصاد، حتى أصبحت جوائزه فى فروعها «شرفا» عالميا، يتوج من يناله بأكاليل الغار..؟!.

لقد تحققت هذه السمعة العالمية بفضل شخص واحد، هو ألفريد نوبل (١٨٣٣ ـ ١٨٩٦) مؤسس هذه الجوائز، التى بدأت عام ١٩٠١.. وبفضل مجتمع يحرص على تقاليده، ويدرك ما لهذه الجوائز من قيمة عالمية، فيحتفى بها وبالفائزين بها، ويحول أسبوع الاحتفالات السنوى بتوزيعها إلى احتفالية كبرى، يرقبها العالم كله باهتمام وشغف.. فقد وقع نوبل ـ وهو نفسه مخترع عظيم ـ قبل عام واحد من وفاته وصيته، التى خصص بمقتضاها معظم ثروته لمؤسسة تستثمرها، وتمنح من ريعها جوائز مالية سخية كل عام لمن خدموا البشرية

باكتشافاتهم العلمية، أو إنجازاتهم الفكرية، فى فروع الكيمياء والفيزياء والطب والأدب والسلام بين الشعوب. وطبق بذلك ما أعلنه ذات يوم من أنه «يفضل الاهتمام ببطون الأحياء على تكريمهم بعد رحيلهم عن الحياة بإقامة التماثيل لهم!!»..

وتحملت الأكاديمية السويدية للعلوم مسئولية تقييم أعمال المرشحين للجوائز فى العلوم والطب والأدب واتخاذ القرار باختيارهم.. فى حين كلفت الوصية برلمان النرويج بتشكيل لجنة لاختيار الفائزين بالجائزة فى السلام.. والتزمت المؤسسة بتقاليد صارمة فى ذلك، ومنها فرض السرية المطلقة على مناقشات اللجان لأعمال الفائزين قبل إعلان أسمائهم، لمدة ٥٠ سنة بعد فوزهم بالجوائز! ومنها أن يقوم ملك السويد بنفسه بتسليم الجوائز للفائزين كل عام، وأن يحضر معهم مأدبة عشاء رسمية يدعى إليها كبار الشخصيات السويدية والعالمية..

وفى السنوات الأخيرة أضيفت إلى هذه الجوائز جائزة فى الاقتصاد، يقدم قيمتها المالية بنك السويد، وتقوم الأكاديمية السويدية باختيار الفائز بها من بين المرشحين.. وتدرجت قيمة هذه الجائزة من ١١٥ ألف كرون سويدى، حتى بلغت هذا العام ـ وفقًا لأرباح المؤسسة من استثماراتها ـ ٧ ملايين و ٩٠٠ ألف كرون سويدى، أى مايعادل حوالى ٩٥٦ ألف دولار لكل فائز.

.. وأخيراً وصلت إلى فندق «جراند أوتيل» العتيد.. وخلعت معطفى الثقيل فى غرفتى، بعد رحلة سفر بدأت فى القاهرة قبل الثالثة صباحًا.. وانتهت فى الفندق فى السابعة مساء.. اغتسلت واحتسيت فنجانا من الشاى، فوجئت حين جاءنى به الجارسون أنه فى حجم «سلطانية» الشوربة الكبيرة!.. وفهمت أن هذا هو حجم فنجان الشاى السائد فى السويد، حيث ينصح الأطباء باحتساء كميات كبيرة من المشروبات الساخنة كل يوم فى الشتاء، لكيلا تتجمد الدماء فى العروق من شدة البرد.

ومن عادتى حين أزور دولة لأول مرة أن أبدأ باستكشاف المنطقة المحيطة بالفندق الذى أقيم به سيرًا على الأقدام. . لكن من يجرؤ على المشى فى هذا الصقيع؟! لقد أصبح شاغلى الوحيد هو البحث عن وجبة عشاء ملائمة! وفوجئت حين نزلت إلى المطعم الفرنسى المطل على إحدى البحيرات أن كل مقاعده مشغولة، ولا أمل فى مقعد خال قبل ساعتين. . وكذلك الحال فى المطعم الآخر. . ولم يبق أمامى إلا بار الفندق الذى يقدم وجبات سريعة. . وفيه قال لى ـ ببديهة ذكية ـ جارسون إيطالى الملامح حين استشرته فى قائمة الطعام، بعد أن تفحصنى قليلا: لا يصلح لك هنا سوى ساندوتش الجبن الخالى من لحم الخنزير! فشكرته على النصيحة واتبعتها. .

وعدت إلى غرفتى، فجاءنى صوت زويل يطمئن على وصولى، واتفقنا على اللقاء صباح اليوم التالى، حيث سيذهب إلى الأكاديمية السويدية لإلقاء محاضرته التقليدية عن إنجازه العلمى، وفى الصباح التقينا فى بهو الفندق، وقدمنى إلى زوجته السورية الطبيبة الشابة ديمة شاكر الفحام التى تعمل باحثة بكاليفورنيا، وتحدثت معها مرارًا تليفونيـًا من القاهرة ولم أرها من قبل، وصافحت صهره الأديب والمفكر السورى شاكر الفحام «وزير التعليم الأسبق فى بلده، والرئيس الحالى للمجمع اللغوى فى دمشق»، وقرينته المديرة السابقة بالتعليم، وشقيق زوجته مالك، الطبيب الذى يدرس للماجستير فى أمريكا، وطفليه نبيل (٧ سنوات) وهانى (٦ سنوات). . واتجهنا إلى الأكاديمية السويدية. . وفى الطريق إليها حدثنى الدكتور الفحام عن ذكريات شبابه، حين كان يدرس بقسم اللغة العربية بكلية الآداب فى جامعة القاهرة، وحين رجع إليها بعد التخرج للحصول على الماجستير ثم الدكتوراه بإشراف الدكتور شوقى ضيف «الرئيس الحالى للمجمع اللغوى فى القاهرة».

ودخلنا قاعة المحاضرات الكبرى بالأكاديمية، التى تتسع لألف طالب. . فتساءلت: هل سيجذب موضوع المحاضرة المتخصص، وهو رصد حركة

الجزئيات فى زمن الفمتو ثانية ـ عدداً كافياً من الحضور لشغل مقاعد هذه القاعة الكبرى؟.

وجاءتنى الإجابة بعد قليل.. فما أن اقترب موعد المحاضرة، حتى ازدحمت القاعة بطلاب الأكاديمية والباحثين والمهتمين.. حتى شغلت كل مقاعدها.. ووقف البعض فى ممراتها، وجلس البعض الاخر على أرضية مدرجاتها.. ووقف ممثل الأكاديمية «البروفيسور نوردين» يقدم زويل للحاضرين ويقول عنه: إنه حقق بإنجازه العلمى ثورة فى الكيمياء، ستكون لها نتائجها الباهرة على العلوم والطب لمصلحة البشرية فى المستقبل القريب.

ووقف زويل على المنصة يتكلم بثقة ـ وتواضع فى الوقت نفسه ـ ويقدم عرضاً شائقاً لأبحاثه وكشفه العلمى، مستخدما الشرائح فى توضيحه.. وقال من بين ما قال: إن المصريين القدماء هم أول من بدأ سباق العلم لقياس الزمن، الذى وصل بنا الآن إلى زمن الفمتو ثانية «واحد على مليون من البليون من الثانية».. وذلك حين توصلوا إلى أول تقويم زمنى يقسم السنة إلى ٣٦٥ يوماً، سنة ٤٢٠٠ قبل الميلاد.. وقال أيضا: إن جوائز نوبل لو كانت قد عرفت فى الأزمنة الماضية ـ حين بزغت شمس الحضارة المصرية القديمة ـ لفاز المصريون القدماء بمعظمها.. واختتم عرضه بوضع شريحة لصورة تجمع بينه وبين فريق الباحثين بمعهد كالتك «كاليفورنيا للتكنولوجيا» الذى يديره هناك.. وأشار إلى كل منهم، ذاكرا اسم البلد التى جاء منها.. فهذا من الصين، وهذا من إيطاليا، وهذا من ماليزيا، إلى أن أشار إلى صورته فى النهاية، فقال: وهذا من مصر ويقيم فى أمريكا!.

فضجت القاعة بالتصفيق والتحية!.

وعدت إلى فندقى وصدرى يجيش بالانفعال والفخر، وكتبت رسالتى لـ «الأهرام» عن محاضرة زويل وأرسلتها إليه.. وحرت.. ماذا أفعل بوقتى بعد

ذلك وأنا سجين الفندق، ولا طاقة لى على ممارسة هوايتى فى التجول فى المدينة التى أزورها لأول مرة، فى هذا الصقيع.

تجولت فى الفندق، وتعزيت عن رغبتى فى استطلاع المدينة بمشاهدة الفائزين بالجوائز هذا العام فى كافتيريا الفندق وأبهائه.. هؤلاء الذين تطلق عليهم مؤسسة نوبل فى مطبوعاتها The Loureates ومعناها الحرفى «المكللون بالغار»! شاهدت البروفيسور «جيرارد هوفت» الفائز بالجائزة مناصفة مع زميله البروفيسور «فيلتمان» فى الفيزياء.. وهما هولنديان، وأحدهما ـ وهو هوفت ـ منطو وخجول.. والآخر ـ «فيلتمان» ـ ساخر وضاحك دائمًا ـ وشاهدت البروفيسور «جونتر بلوبل» الفائز بالجائزة فى الطب، ولمست فيه التواضع والحياء.. وشاهدت الأديب الألمانى «جونتر جراس» مؤلف الرواية الشهيرة «طبول من صفيح» والفائز بالجائزة فى الأدب، وهو شخصية جذابة وملفتة للانتباه.. وكان ـ مع زويل ـ أكثر الفائزين جذبًا لاهتمام مندوبى الصحف والمحطات التليفزيونية..

ثم اتصلت بـ «الأهرام» فأبلغنى زميل لى بأن الرئيس مبارك قد أصدر قرارًا بمنح زويل قلادة النيل.. أرفع أوسمة الدولة، التى لا تمنح إلا لرؤساء الدول وأعضاء مجلس قيادة الثورة، ولم يحصل عليها من خارج هذه الدائرة من قبل سوى عميد الرواية العربية.. نجيب محفوظ عقب فوزه بجائزة نوبل.

وانفعلت بالخبر كثيرًا وسعدت به واتصلت بغرفة زويل، فسألتنى زوجته ديمة بعد تبادل التحية: تريد أحمد؟ فأجبتها: لا.. وإنما أريد أن أبلغك أنت خبرا سعيدا لتكونى أول من ينقله إليه.. وأبلغتها بالخبر، وابتهجت له كثيرًا، وقالت فى جزل بلهجتها السورية المحببة: «هذه بشارة حلوة كتير»!.

ولم تمض دقائق حتى جاءنى صوت زويل متهللاً ومستوثقًا من الخبر.. واتفقنا على اللقاء فى مطعم الفندق بعد قليل؛ ليكتب برقية شكر للرئيس على هذا

القرار، ولنتعاون معا فى ترجمة كلمته التى سيلقيها أمام ملك السويد فى حفل العشاء بعد غد إلى العربية.

وجلسنا إلى المائدة.. وراح زويل يقرأ علىّ كلمته بالإنجليزية جملة بعد جملة فأصوغها بالعربية وأقرأها عليه، فيقرها ويرضى عنها، أو يطلب تعديلها.. إلى أن انتهينا من ترجمة كلمته..

وخلال هذا الجلسة لمعت فى خاطره فكرة أن يستشهد فى ختام كلمته بعبارة «طه حسين» الشهيرة: «ويل لطالب العلم إن رضى عن نفسه!» وأن يقرأها على الحاضرين فى حفل العشاء باللغة العربية قبل أن يترجمها للإنجليزية.. وتذكرت أننى لم أتخذ استعداداتى بعد لحضور حفل تسليم الجوائز وحفل العشاء التقليدى!.. فاعتزمت إنهاءها فى اليوم التالى.

واسترجعت محاولتى الخائبة للوصول على الإقدام إلى مقر وزارة الخارجية السويدية لتسلم تذكرتى الحفلين ودفع الرسوم.. وكيف خدعت بنصيحة موظفة مؤسسة نوبل المقيمة بالفندق، التى أشارت علىّ بأن أذهب إليها سيراً على الأقدام، لأن المسافة قريبة ولا تحتاج إلى سيارة أجرة.. فأحكمت إغلاق المعطف و«الكوفية»، وسرت فى الاتجاه الذى حددته لى فلم تمض دقائق حتى بدأت أفقد الإحساس بوجهى كله من شدة الصقيع! وعبرت فى طريقى جسرا صغيرا ـ وأستكهلم كلها بالمناسبة تتكون من ٤ جزر كبيرة و١٠ جزر صغيرة، تربط بينهما الجسور والأنفاق ويقيم بها ١,٥ مليون نسمة ـ.. فهالنى أن رأيت فوق الجسر بعد هواة الصيد يلقون بـ «سناراتهم» فى الماء، وهم يرتدون ملابس كملابس رواد الفضاء، لتقيهم الصقيع.. فتعجبت لما تفعله الهواية أحيانا بأصحابها! وسلمت بالعجز عن الوصول إلى غايتى، ووقفت أستجدى سيارت الأجرة العابرة الوقوف لى، قبل أن أصل إلى مرحلة «التخشب».. وتنفست الصعداء حين وقفت إحداها، فبادرت السائق بالاعتذار عن قصر المسافة التى أركبها، وطلبت منه إعادتى للفندق الواقع على مرمى البصر!.

وفى اليوم التالى توجهت بسيارة الأجرة إلى وزارة الخارجية، وتسلمت التذكرتين ودفعت «المعلوم».. وتوجهت منها إلى محل الملابس الذى سأؤجر منه ملابس حفل العشاء.. وأفضيت برغبتى لشاب سويدى يعمل به.. فسألنى على الفور: ستحضر عشاء نوبل؟.. ثم قادنى إلى «البدروم» حيث وجدت صفوفًا من بدل الفراك السوداء، اختار إحداها وطلب منى تجربتها، فجاءت للدهشة مناسبة.. ثم قدم لى القميص المنشى، والصديرية البيضاء، و«ربطة» العنق، وحمالة البنطلون، وعلبة من الأزرار المعدنية.. لم أفهم ضرورتها إلا حين قال لى: إنها لصدر القميص حسب التقليدى.. وتقاضى الأجر المتفق عليه.. وتنبهت وأنا أستعد لمغادرة المحل حاملا «عدة الشغل» إلى أنه لم يطلب منى أى ضمان لهذه الملابس، وثمنها لا يقل عن ١٥٠٠ دولار، فسألته كيف أعيد إليكم هذه الملابس؟.. فأجابنى ببساطة: فقط اتركها صباح اليوم التالى فى قسم الاستقبال بالفندق، وسوف أمر لجمعها مع بقية البدل التى استأجرها أفراد عائلات نوبل من الأجانب.

يا إلهى.. ما أجمل أن تسود الثقة فى التعامل بين البشر!.. وما أيسر ما تصبح عليه الحياة حين تقوم على افتراض الأمانة فى الآخرين إلى أن يثبت العكس! وهذا واحد من أسرار سهولة الحياة فى المجتمعات الغربية، الذى نحتاج بشدة لأن نستكشفه ونعمل به.

السويديون.. الذين يعدون الآن من أكثر شعوب العالم تحضرا ورقيا وميلا للسلام والمهادنة.. هم أنفسهم الذين ينحدرون مع بقية شعوب إسكندنافيا من قبائل «الفايكنج».. غزاة الشمال البرابرة، الذين عرفوا بالبطش والوحشية، وروعوا شعوب أوروبا، خلال الفترة من عام ٧٥٠ إلى ١٠٠٠ ميلادية بغزواتهم.. وكانوا كما يقول عنهم المؤرخ ماك كالوم سكوت ـ جبابرة ذوى رؤوس مستطيلة ـ وشعور شقراء، وعيون زرق، وينقضون فجأة كما ينقض النسر

على فريسته، ويسلبون ويأسرون الأسرى، ويعودون بهم إلى أرضهم القاحلة الجليدية.

فكيف هذبت الحضارة والثقافة والدين سلالة هؤلاء الغزاة.. حتى لم يبق من خصائصهم بالنسبة للسويديين سوى الشعر الأصفر والعيون الزرق؟!

وكيف أصبحوا يعيشون الآن فى مجتمع يتمسك بالتقاليد.. وينعم بالديموقراطية والأمان والسلام والرفاهية؟!.

إن السويد هى إحدى الدول القلائل فى العالم التى مازالت تتمسك بالاشتراكية، بالرغم من نظامها الرأسمالى الذى يكفل لرأس المال حرية الحركة.. وتتمثل اشتراكيتها فى تعهد الدولة للشعب بأن يعمل كل أفراده، أو يتقاضوا إعانات عن البطالة، وأن يستمتعوا جميعا بنظام التأمين الصحى، وأن يجد كل شاب مسكنا، وكل طفل غرفة مستقلة فى مسكن أسرته، وإلا عد ذلك إساءة لمعاملة الطفل توجب تدخل المجتمع!.

كما تتمثل هذه الاشتراكية كذلك فى وجود قطاع عام كبير إلى جانب القطاع الخاص المزدهر.. فإن كان ثمة شىء يزعج هذا المجتمع الآن، فهى الفكرة الشائعة عنه فى العالم من أنه مجتمع للانحلال الخلقى والانتحار، ويؤكدون أن الحرية الشخصية فى مجتمعهم لا تتجاوز حدودها المماثلة فى بقية أوروبا، ويتهمون بضعة أفلام خليعة أنتجتها السينما السويدية فى الستينيات بأنها المسئولة عن إعطاء هذا الانطباع الخاطئ عن مجتمعهم، كما يؤكدون أيضًا أن معدلات الانتحار فى بلادهم مماثلة لمعدلاته فى بقية دول أوروبا، وإن كان البعض لا يفسرها بالرفاهية كما يزعم آخرون، وإنما باكتئاب الشتاء الطويل والظلام. فلا عجب فى هذه الحالة فى أن يحتفل السويديون بانتهاء الشتاء ليلة أول مايو ومجئ الربيع بإحراق الحرائق فى الشوارع والميادين والغناء الجماعى حول دوائرها!.

أما السبب الآخر للانزعاج.. فهو ارتفاع نسبة البطالة إلى ١٠٪ من الأيدى

العاملة، لكنها على الناحية الأخرى «بطالة سويدية» تختلف عنها فى الدول النامية.. حيث يحصل العاطل على إعانة شهرية تكفل له الحياة الكريمة.. وحيث يرفض كثيرون من السويديين العمل بالأعمال الصغيرة التى يقبل بها الأجانب، ويفضلون عليها الاستمرار في تقاضى الإعانة لأطول وقت ممكن.. حتى لقد فكرت الحكومة السويدية جديًا - ولأول مرة - فى قطع الإعانة عمن يرفض ٣ عروض عمل متتالية دون سبب مقنع!.

جاء اليوم المرتقب.. يوم ١٠ ديسمبر.. حيث سيجرى تسليم الجوائز، ويعقبه حفل العشاء.. ونبهتنا مؤسسة نوبل إلى أن أتوبيس عائلات نوبل سيتحرك من أمام الفندق إلى قاعة أستكهلم الكبرى للموسيقى فى الثالثة والنصف بعد الظهر.. وقبيل الثالثة بدأت فى غرفتى ارتداء ملابسى.. واكتشفت بعد قليل أنه كان ينبغى لى أن أبدأ هذه المهمة قبل ذلك بكثير؛ لكى ألحق بموعد الأتوبيس.. فلقد ارتديت القميص الأبيض المنشى، وبدأت «كفاحى» لربط أزرار الصدر المعدنية، التى نبهنى شاب محل الملابس إلى ضرورة ربطها فى فتحات الصدر، وإلا خرجت إلى الحفل وقميصى مفتوح، فكانت مهمة شاقة.. أن أضع «البريمة» الخلفية فى عروة القميص من الداخل، ثم أحاول التقاطها من الأمام بالزرار المعدنى اللامع، و«لفه» بحيث يمسك بالبريمة ويثبت فى موقعه.. واستغرقت مهمة تثبيت أزرار الصدر الثلاثة ما لايقل عن ١٠ دقائق، ثم بدأ «كفاحى» مع «البابيون» الأبيض، واكتشفت - لفجيعتى - أنه مربوط بشريط ينبغي أن ألفه حول عنقى، ثم أثبت مشبكه من الناحية الأخرى بمشبك خلف البابيونة.. ثم أعيد بقية الشريط إلى داخل الجزء الظاهر منه، وأشبكه فى إحدى فتحاته الداخلية وهو ملفوف حول عنقى.

ونجحت بعد جهد جهيد فى شبك بقية الشريط بإحدى هذه الفتحات، ونظرت فى المرآة فرأيت البابيون متهدلاً للأمام، وبينه وبين ياقة القميص مسافة تكفى لمنعى دخول العشاء بتهمة الإساءة إلى التقاليد السويدية!.. فأعدت المحاولة ثلاث

أو أربع مرات، حتى نجحت فى إدخال المشبك فى الفتحة شبه المناسبة، واعتدل البابيون قليلا!.. ثم بدأت محاولاتى مع «الحمالة» المعقربة حتى كدت أيأس منها، وأقرر الاستغناء عنها.. لكن كيف السبيل إلى ذلك، وبنطلون البدلة الفراك ـ على خلاف بنطلون البدلة العادية ـ لابد أن يكون عاليا إلى مستوى الصدر، وإلا توجعت التقاليد الملكية السويدية فى حفلة العشاء!..

استغرقت الحمالة وحدها عشر دقائق أخرى.. وظلت على الرغم من ذلك «مكلكعة» فى ظهرى طوال الوقت وتحرمنى من الجلوس مستريحا، ثم ارتديت «الجاكيت» ذات الذيلين الطويلـين، ووضعت أزرار أكمام القميص.. وحاولت أن أطمئن على هيئتى العامة قبل مغادرة الغرفـة، فنظرت إلى المراة.. فرأيتنى فيها كمهرج السيرك الذى يقلد حركات شـارلى شابلن، أو كأنور وجـدى فى فيلم «دهب» وهو يغنى مع فيروز «كروان الفن وبلبله»!. لكن ما باليد حيلة، ولا مناص من احترام التقاليد للفوز بحضور هذه المناسبة التاريخية.

هبطت إلى الدور الأرضى مع الفندق، فاكتشفت أن أتوبيس نوبل قد تحرك فى موعده غير عابىء بالمتعثرين فى ارتداء ملابسهم مثلى، وركبت سيارة أجرة، وشاهدت ـ وهى تتحرك ـ أحد تقاليد مؤسسة نوبل التى تحرص عليها بشدة، وهو موكب المكرمين عند تحركه من الفندق إلى القاعة.. وهو طابور طويل من سيارات الليموزين السوداء، يجلس فى كل منها أحد الفائزين وبجانبه زوجته، وتتقدمه سيارة شرطة وتتبعه سيارة شرطة أخرى، وتفسح السيارات الطريق له بإجلال واحترام.

وفى قاعة أستكهلم للموسيقى اتخذت مقعدى، وتمتعت باستكشاف القاعة الجميلة التى يغلب عليها اللون الأحمر، وشاهدت على المسرح مجموعة من المقاعد على اليسار مخصصة لأعضاء الحكومة وكبار الشخصيات، وتتقدمها سبعة مقاعد مخصصة للفائزين بالجوائز، ومجموعة أخرى على اليمين مخصصة لأعضاء الأكاديمية، وفى مقدمتها ثلاثة مقاعد كبيرة مذهبة مخصصة للملك

والملكة والأميرة ليليا قرينة خال الملك. . وفوق المسرح شرفة يجلس فيها أوركسترا لا يقل أعضاؤه عن ٨٠ عازفًا مع قائدها آسيوى الملامح. .

وبعد قليل سمعنا ثلاث دقات على أرضية المسرح، فنهض الجميع واقفين ودخل الملك والملكة والأميرة، وعزفت الأوركسترا السلام الوطنى، ثم استقر الجميع فى مقاعدهم. . وبدأ الاحتفال بدخول طابور الفائزين، وإلى جوار كل منهم عضو الأكاديمية السويدية الذى سيقدمه بكلمة قصيرة للملك. . الذى نهض تحية للفائزين ونهض معه كل الحاضرين. . واتجه الفائزون إلى مقاعدهم، واتجه الأساتذة للجلوس بين زملائهم. . وبدأ تسليم الجوائز وحانت اللحظة التاريخية، وقدم عضو الأكاديمية البروفيسور نوردين أحمد زويل بكلمة جميلة، دعاه فى نهايتها للتقدم إلى منتصف المسرح لتسلم جائزته من الملك كارل جوستاف السادس عشر. . وتقدم الملك منه وحياه وسلمه الميدالية الذهبية للجائزة، ومجلد براءة الفوز بها. . وانحنى زويل أمام الملك وفقًا للتقاليد السويدية، ثم لأعضاء الأكاديمية وكبار الشخصيات، ثم استدار لمواجهة الجمهور وانحنى لهم فى احترام. . فضجت القاعة بالتصفيق الحار. . واستعدت الأوركسترا لعزف فاصلها الموسيقى بين كل فائز وآخر. . فإذا بى أسمع لأول مرة أنغام هذا المارش الجميل، الذى ألفه الموسيقار النمساوى يوهان شتراوس وسماه «المارش المصرى»، وقد اختارته مؤسسة نوبل لعزفه، بعد تسلم زويل لجائزته فى لفتة رقيقة، وإشارة ذات مغزى إلى هويته المصرية.

لم أستمتع فى حياتى بأنغام قطعة سيمفونية ـ على حبى للموسيقى الكلاسيك ـ كما استمتعت بأنغام هذا المارش. . ليس لجماله فقط، وإنما أيضًا لرمزه الرائع واعتزمت أن أبحث عن هذا المارش بين آلاف القطع الموسيقية، التى ألفها شتراوس لأستمتع به من حين لآخر بعد العودة. .

وتوالى تسليم الفائزين الجوائز، وغادرنا القاعة، لننتقل إلى مبنى بلدية أستكهلم العريق، حيث سيقام حفل العشاء. . ودخلت المبنى فبهرنى منظر الموائد

الطويلة طولا غير عادي، ويجلس إليها ١٥٠٠ مدعو يتناولون جميعا طعامهم فى نفس اللحظة.. وحرت: كيف أجد موقعى وسط كل هذه الموائد والمقاعد؟!..
واكتشفت فى هذه اللحظة فائدة الكتاب الأبيض الصغير الذى قدمته لى إحدى موظفات نوبل عند الدخول.. إنه كتاب يتضمن أسماء المدعوين، وأرقام الموائد وأرقام المقاعد وخريطة كبرى للقاعة توضح المواقع، وعليك أن تبحث عن اسمك فى الكتاب حسب الترتيب الإبجدى، وتهتدي بالخريطة للوصول إلى مائدتك ومقعدك المحددين.. استخدمت الخريطة واهتديت إلى مائدتى ومقعدى ووجدت اسمى أمامه.. واحتشد فى القاعة ما يزيد عن ١٤٠٠ مدعو.. ثم تنبهنا على وقوف عازفين للبوق على الدرج الهابط من الدور العلوى فى هيئة عسكرية، ثم عزفهما لأنغام مارش يعلن نزول الملك والمكرمين من الدور العلوى.. ونزول الطابور الملكى يتقدمه حامل الصولجان.. وبجوار الملك سيدة أخرى عدا الملكة، وبجوار الملكة فى الترتيب الثانى مدعو آخر، وبعدهما مباشرة زويل برفقة الأميرة ليليا، وتوالى نزول الطابور، واحتل أفراده مقاعدهم على المائدة الرئيسية.

وبعد قليل بدأ طابور من نوع آخر.. أعلن عازف البوق كذلك عن تحركه، وتقدمه أيضًا حامل الصولجان.. فأما هذا الطابور فقد كان طابور «الجارسونات» الذين لا يقل عددهم عن ٢٥٠ شابًا وفتاة، معظمهم من طلبة الجامعات، تم تدريبهم على الخدمة فى هذا الحفل المهم. وقد نزلوا فى هيئة موحدة يحمل كل منهم صينية بيده اليمنى، ويضع يده اليسرى وراء ظهره.. وانتشروا بين الموائد فى توقيت واحد ووقفوا إلى جواراها رافعين أطباق الطعام إلى مستوى الرأس، وأنظارهم متجهة إلى حامل الصولجان إلى أن جاءت منه الإشارة وأنزل الصولجان، فقدم الجارسونات الطبق الأول للمدعوين جميعًا فى نفس اللحظة ابتداء من الملك إلى أبعد مدعو عنه.

وبين أطباق الطعام قدمت فرقة غنائية عرضا جميلا، وتحدث ٤ فقط من

الفائزين. . كان من بينهم زويل، فألقى كلمة بليغة، نبه فى مقدمتها ـ ولأول مرة فى تاريخ احتفالات نوبل ـ إلى أن الميدالية الذهبية التى تمنح للمكرمين وتحمل على أحد وجهيها صورة ألفريد نوبل، إنما تحمل على الوجه الآخر صورة للإلهة المصرية إيزيس وهى خارجة من السحب، ويقوم شخص يرمز لعبقرية العلم برفع الغلالة عن وجهها كإشارة إلى قدرة العلم على كشف الحجب. . واتخذ من هذه الحقيقة ـ التى لم يلتفت إليها أحد من الفائزين قبله ـ مدخلاً للحديث عن فضل المصريين فى بدء سباق العلم لقياس الزمن.

يا إلهى كيف اكتشف زويل صورة الإلهة إيزيس على ميدالية نوبل؟! ومن نبهه إلى ذلك؟. . لا أحد!. . لقد اهتم فقط بأن يقرأ كتب مؤسسة نوبل ومطبوعاتها التى ترسلها للفائزين قبل حضورهم لتسلم الجوائز، قراءة مدققة وليست عابرة، فاكتشف هذه المعلومة ونوَّه إليها. . وجعل منها مدخلا للحديث عن الحضارة المصرية القديمة.

فإذا سألتنى عن إحساسى وأنا أستمع إلى هذه الكلمة. . لأجبتك على الفور بأننى قد «غفرت» فى تلك اللحظة فقط لتقاليد مؤسسة نوبل تعذيبها لى بارتداء بدلة الفراك السوداء ومستلزماتها المعقدة. . كما «غفرت» أيضا للسويد كلها صقيعها فى ديسمبر، وظلام نهارها ولياليها. . وتمنيت أن تطول هذه اللحظة السعيدة إلى مالا نهاية. .

* * *

٣١

اليوم الضائع!

ضاع من عمرى يوم لم أعشه.. وأطالب باسترداده! فلقد ركبت الطائرة من القاهرة فى التاسعة صباح يوم الاثنين ٢٧ يوليو، متوجهًا إلى اليابان عن طريق لندن، فنزلت منها، أو على الأصح من الطائرة الأخرى التى ركبتها من لندن، فى التاسعة من صباح يوم الثلاثاء، مع أن زمن الرحلة كله بما فيه وقت الانتظار لتغيير الطائرة فى لندن هو ١٧ ساعة فقط.. فأين ذهبت هذه الساعات السبع؟ ومن الذى يعوضها لى، والعمر لا يحتمل «نشل» ساعة واحدة منه وليس بضع ساعات؟!.

لقد قيل لى إننى سأسترد هذه الساعات الضائعة من العمر فى رحلة العودة من طوكيو إلى لندن، فأركب الطائرة فى الساعة الثانية من بعد ظهر يوم السفر وأصل إلى لندن بإذن الله فى السادسه والنصف مساء بتوقيتها مع أن زمن الرحلة «١١ ساعة» وهكذا أسترد هذه الساعات السبع مرة أخرى.. لكنى لا أطمئن كثيرا إلى هذا «الوعد»، ولا أثق فى فروق التوقيت التى سرقت هذه الساعات من عمرى وأحمل لها فى ذاكرتى دائما أسوأ الذكريات!.

ففى هذه الرحلة إلى طوكيو مثلا.. يصل الإنسان إلى مطارها الدولى «ناريتا» فى التاسعة صباحًا بتوقيت اليابان.. فيجد من ينتظره فى المطار متورد الوجه بدماء العافية والنوم حتى الصباح، وقد نهض من نومه مبكرا وحلق ذقنه وارتدى ملابسه واستعد لاستقبال يوم جديد فى حياته.. أما هو فإن ساعة جسمه البيولوجية تقول: إن الساعة «الآن» الثانية صباحًا، وأنه قد آن له أن ينام بعد

إجهاد السفر الطويل، وهيئته وملابسه المكرمشة من طول الجلوس إلى مقعد الطائرة، وذقنه التى نبتت خلال الرحلة الطويلة.. كلها مظاهر تؤكد حاجته للنوم والراحة، وليس لبدء يوم جديد من حياته أو ممارسة أى نشاط، يتطلب حضور الذهن حتى لو كان مجرد الرد على تحية مستقبله ومجاملته!.

ولكن بذا قضت علينا فروق التوقيت فى هذا العالم المتغير العجيب! ولا مفر من التظاهر بالصحو والانتباه.. والذهن راكد.. والجسم فى أشد الحاجة إلى النوم..

والرحلة إلى اليابان أمل يراودنى منذ زمن طويل، وقد شعرت بالحاجة الملحة إليها، حين أصدرت كتابى هذا فى طبعتيه الأولى والثانية، إذ تنبهت خلال إعدادى لهذا الكتاب إلى أننى على كثرة ما زرته من بلدان العالم.. فإنى لم أزر اليابان بعد، ولم أتعرف على معجزتها الاقتصادية وشكل الحياة فيها، واعتزمت عقب صدور الطبعة الأولى من الكتاب ألا أصدر الطبعة الثانية منه، إلا بعد أن أقوم بهذه الرحلة الضرورية إلى الشرق الأقصى؛ لكى أضيف ما أكتبه عنه إلى فصول هذا الكتاب، وترقبت الفرصة للقيام بها، فإذا بى أفاجأ بنفاد الطبعة الأولى منه وبقيام الناشر الشاب محمد مدبولى الصغير بإصدار الطبعة الثانية منه، قبل أن أجد الفرصة الملائمة للقيام بالرحلة اليابانية والكتابة عنها، وهكذا تعلق الأمل بالطبعة الثالثة، وبينما أنا أفكر فى ذلك فوجئت فى أواخر شهر يناير الماضى بالمستشار الإعلامى لسفارة اليابان بالقاهرة السيد يوشى يزورنى فى مكتبى بمجلة الشباب ومعه مساعده الشاب السيد هيروكيرى.. ويدعونى لزيارة بلاده ضمن برنامج وزارة الخارجية اليابانية، لدعوة صحفيين من أنحاء العالم لزيارة اليابان، وابتهجت بهذه الفرصة السانحة، وتهيأت نفسيًّا للقيام بالرحلة على الفور فنحن فى أواخر الشهر.. وقد دخلت مواد مجلة الشباب إلى المطبعة، وبدأت العمليات الفنية لطبعها.. وهدأ إيقاع العمل بعض الشىء فى المجلة..

وهذا هو الوقت الملائم الذى اختاره دائمًا للسفر إلى الخارج أو إلى الداخل فى كل مرة . .

وشكرت المستشار الإعلامى على دعوته وسألته «مستبشرا» عن موعد السفر القريب . . وظنى أنه لن يتأخر عن الأسبوع التالى، ففوجئت به يجيبنى فى بساطة: فى أكتوبر القادم! .

يا إلهى . . جاء لزيارتى فى أواخر يناير لكى يدعونى إلى زيارة بلاده فى أكتوبر التالى، أى بعد حوالى عشرة شهور من توجيه الدعوة! .

وقبل أن أستسلم للدهشة تماما لهذا الأمر تنبهت إلى مغزى التصرف نفسه . . وأدركت به سراً من أسرار التقدم اليابانى . . وهو التخطيط المبكر لكل شىء فى الحياة . . حتى ولو كان زيارة صحفية للبلاد . .

وعرفت من المستشار الإعلامى أنه قد جاء إلىّ فى البداية ليبلغنى بالدعوة و«يتأكد» من قبولى لها، قبل أن يكتب لوزارة الخارجية فى بلاده . . ومن ثم يبدأ فى التعرف على ما أريد زيارته فى بلاده، ومن الذين أريد مقابلتهم هناك . . وأى المجالات يهمنى الاطلاع عليها ثم يبدأ إعداد برنامج الزيارة . . ويقوم بإرساله للخارجية اليابانية، ويتلقى موافقتها عليه . . ويرجع إلىّ مرة أخرى لإبلاغى بالبرنامج .

وازددت إعجابا بالدقة اليابانية فى التنظيم والاهتمام بكل التفاصيل . . لكنى انزعجت قليلا لفكرة الارتباط بزيارة تتم بعد عشرة شهور من الآن، ونحن الذين اعتدنا ركوب القطار بعد أن يبدأ فى التحرك من المحطة، ولم نألف كثيرا مثل هذه النظرات «المستقبلية» البعيدة، ونتحرج فى استخدام صيغة «المضارع» . . و«المستقبل» فى الحديث فنتحفظ عليها ـ خوفا وأملا فى الله سبحانه وتعالى ـ بقولنا: بإذن الله . . بين كل فقرة وفقرة! .

وتساءلت مشفقا: ألا يمكن تقديم موعد الزيارة بعض الشىء؟ وتلقيت الإجابة

بعد تفكير طويل بأنه من الممكن ذلك بالفعل بعد الرجوع إلى وزاة الخارجية، لكن أقرب موعد لذلك لن يكون قبل يوليو المقبل وشكرت المستشار الإعلامى، وغادرنى الرجل على وعد بإبلاغى بالموعد الدقيق للزيارة، وبعد بضعة أسابيع أخرى أبلغنى بتحديد الموعد وهو ٢٧ يوليو، وقدم لى عدداً من الكتب باللغتين العربية والإنجليزية عن اليابان وماضيها وحاضرها ومستقبلها.

وفي بداية شهر يوليو رجع للاتصال بى، وقدم لى مزيداً من الكتب والنشرات عن بلاده ومعها برنامج الزيارة.. فما أن قرأته وجدته يحدد لى بدقة «يابانية» شديدة مواعيد اللقاءات والزيارات، وأماكنها بالدقيقة والثانية ويحدد لى أيضا الفنادق التى سأقيم فيها.. ولا ينسى أن يذكر أرقام تليفوناتها وأجهزة الفاكس بها.. حتى تمتمت لا إراديـًا بالعبارة الأثيرة التى تترجم أمنياتنا ومخاوفنا بإيجاز بليغ، وهى: بإذن الله!.

أما أكثر ما أثار تأملاتى فى كل ذلك، فهو هذه الخريطة التى أرسلها إلىّ المستشار الإعلامى مع البرنامج لمطار ناريتا الدولى، الذى ستهبط فيه طائرتى لكى استعين بها على أن أجد طريقى إلى «مكتب خدمة الزائرين» فى المطار؛ حيث أجد مندوبًا من وزارة الخارجية فى انتظارى!.

فالمطار من أكبر مطارات قارة آسيا وهو فى حجم مدينة صغيرة، والزائر الذى يصل إليه لأول مرة غير مسلح بمثل هذه الخريطة، قد يقضى وقتا طويلا تائها فى أروقته وممراته قبل أن يجد طريقه للالتقاء بمستقبليه فيه، والدقة اليابانية لا تترك شيئًا للصدفة، ومن هنا جاءت فكرة هذه الخريطة لتنقذنى من التيه فى بحر المطار الفسيح.

ماذا يبقى بعد ذلك لكى أقوله لك فى بداية مقالاتى عن رحلتى لليابان التى لم تكد تبدأ إلا منذ ساعات قليلة؟.

ربما يكون من المناسب أن أقول لك فقط: إننى كثيرا ما تأملت على البعد

تجربة اليابان فى تحقيق معجزتها الاقتصادية بعد الانهيار التام والهزيمة العسكرية الطاحنة فى الحرب العالمية الثانية، فلم أجد تفسيراً مقنعًا لهذه المعجزة سوى فيما يمكن أن نسميه بظاهرة «عبادة العمل»، التى تسود اليابانيين صغارهم وكبارهم على السواء، وإلى الحد الذى دفع حكومات اليابان أكثر من مرة لإعطاء الموظفين والعمال حوافز مغرية.. لماذا؟.

لكى يحصلوا على إجازاتهم الرسمية التى يتنازلون عنها لمواصلة العمل، فهى لا تحفزهم ليزيدوا الإنتاج أو يتحمسوا للعمل لأنهم لا ينقصهم الحماس له، وإنما ينقصهم فقط الاعتدال فيه لكى يستمتعوا بحياتهم إلى جانب استمتاعهم بالعمل! كما لم أجد لها تفسيرا أيضا سوى فى هذا الانضباط الشديد الذى يتميزون به، وفى الطاعة العمياء لرؤساء العمل، التى يعتبر اليابانى معها تمرده على تعليمات رئيس العمل أمرا يتناقض مع الشرف، ويجلب له العار الشخصى بين زملائه.

ولقد بدأ اليابانيون نهضتهم الحديثة «بترجمة» الحضارة الأوروبية وتقليدها، ومازلت أذكر إلى الآن ما كتبه الأديب الكبير توفيق الحكيم فى كتابه الجميل «زهرة العمر» عن جاره فى البيت الذى كان يقيم فيه بباريس فى أوائل الثلاثينيات.. ذلك الشاب اليابانى الغامض الذى حار فى أمره وتساءل عما يفعل بحياته وهو لا يغادر بيته إلا كل بضعة أيام، إلى أن عرف فى النهاية أنه مبعوث رسمى من حكومة اليابان مهمته أن يتابع كل ما تصدره دور النشر الفرنسية من كتب حديثة فى فرع معين من فروع الكيمياء، فيقوم بشرائه وترجمته على الفور لليابانية وإرساله إلى بلده.

كما بدأت الصناعة اليابانية أيضًا بفك الأجهزة الأوروبية والأمريكية الدقيقة وتقليدها وبصناعة سلع وأجهزة مشابهة لها أرخص ثمنا.. وأقل جودة فى البداية.. ثم انتقلوا من التقليد للابتكار والاختراع، ومن

قلة الجودة إلى الإتقان. . وانطلق المارد من عقاله، حتى شهدنا أمريكا ـ بجلالة قدرها ـ تشكو من غزو المنتجات اليابانية لبلادها، وتضغط على اليابان لتقلل من حجم صادراتها إليها؛ خاصة من السيارات اليابانية التى اجتاحت كل أرجاء العالم.

واكتفى بهذا القدر من الحديث عن اليابان. . لكى أتيح لنفسى فرصة الاقتراب لأول مرة من الحياة اليابانية. . ولكى أتيح لجسمى المنهك كذلك فرصة الراحة القصيرة قبل أن أبدأ أول لقاءاتى باليابان، آملا أن أنجح بكل الحيل الممكنة وفناجين القهوة المركزة فى «إقناعه» بأننا فى بداية يوم جديد، ولسنا فى نهاية يوم ماض.

والله المستعان على كل أمر عسير!.

* * *

٣٢

إقلق كثيرا فى البداية!

السفر إلى الشرق الأقصى حلم قديم لمن عشق السفر وأحب الترحال.

حلم تؤججه الحكايات القديمة عن غموض الشرق وسحره وأعاجيبه.. وتجدده الأساطير الحديثة عن المعجزة الاقتصادية التى حققتها بعض دوله.

وما بين الحكايات القديمة.. والأساطير الجديدة، يتلهف المرء على أن يقترب من هذا العالم الغريب المحفوف بالأسرار.. والموشى بالألوان الزاهية والظلال!.

غادرت الطائرة البريطانية فى مطار طوكيو بعد رحلة، استغرقت ١٢ ساعة متصلة، جربت خلالها كل وسائل شغل الفراغ وقتل الوقت بلا جدوى، فانكببت على المائدة الصغيرة الموضوعه أمامى، أكتب باب بريد الجمعة الذى سينشر خلال غيابى لأكثر من ٦ ساعات.. ووجدت الوقت مازال ممتداً، فأخرجت الفيديو الشخصى المثبت فى ذراع مقعد الطائرة من مكمنه، ووضعت السماعة على أذنى، وقلبت بين قنواته الست، حتى استقررت على قناة تعرض فيلما ارتحت إليه فتابعته حتى كلمة النهاية.. ومازالت الطائرة العملاقة تشق أجواء الفضاء بغير أن تصل إلى غايتها المرجوة.

قرأت حتى مللت القراءة.. وحاولت النوم بلا طائل، وتهربت من المضيفة اليابانية المهذبة ذات الابتسامة الدائمة المخصصة لركاب «الدور الثانى» من الطائرة ٧٤٧ العملاقة.. والتى لا تكف عن الحركة والسؤال عما إذا كنت ترغب فى

بعض العصير أو الشاى أو القهوة، وتذكرت أننى على كثرة ما سافرت إلى بلاد الله فى رحلات عديدة، بعضها طويل كالرحلة من باريس إلى مونتريال فى كندا أو من باريس إلى نيويورك فى أمريكا، فإنى لم أركب من قبل طائرة فى دورها العلوى إلا هذا الطائرة!.

يا إلهى.. لكم يتغير المزاج النفسى للإنسان من مرحلة إلى مرحلة خلال العمر.. لقد كانت رحلة الطائرة من قبل بهجة خالصة بالنسبة لى مهما طالت، فأصبحت الآن عذابا مملا بطيئًا، أتعجل انتهاءه بأية وسيلة لكى أصل إلى غايتى.. وصلت الطائرة أخيراً إلى مطار «ناريتا» الدولى فى طوكيو، فكانت أول حقيقة أكتشفها من ملامسة أرض الواقع فى اليابان هى أن تسمية هذا المطار بمطار طوكيو تسميه خاطئة؛ لأنه لا يقع فى محافظة طوكيو كلها.. وإنما يقع فى محافظة مجاورة لها اسمها «تشيبا» على بعد ٦٥ كيلو متراً كاملة من طوكيو.. لهذا فإن الرحلة منه إلى قلب العاصمة تستغرق أكثر من ساعة ونصف الساعة، قطعتها بعد إجهاد الرحلة فى الحديث مع المرافق اليابانى الذى خصصته لى وزارة الخارجية اليابانية.. وهو شاب يجيد العربية، كان يعمل بالسفارة اليابانية فى القاهرة وفى تونس ثم استقال، وأنشأ لنفسه عملا خاصا يتركز فى الترجمة ومرافقة الوفود العربية، وإعداد برامج زياراتهم، ومع زميلى الشاب محمد إبراهيم الدسوقى مراسل الأهرام فى طوكيو، طالت الرحلة بالسيارة الليموزين المكيفة حتى تذكرت ما كتبه توفيق الحكيم فى كتابه «يوميات نائب فى الأرياف» حين نزل من القطار فى إحدى بلاد الوجه البحرى، ووجد خفيرا فى انتظاره بـ «الركوبة» ليركبها إلى مقر عمله، وطالت به المسافة بين محطة القطار والبلدة التى يتجه إليها، فسأل الخفير مستنكرًا عن سرّ هذا «الخصام» بين المحطة والبلدة التى تتبعها!.

أخيراً بلغت السيارة فندق «نيد أوتانى» الفاخر فى قلب العاصمة، وتهيأ المرافق وزميلى للانصراف لكى أنام ساعتين، قبل أن أبدأ زيارتى «الرسمية» لليابان..

وقبل أن يغادرانى سألتهما عن «البقشيش» الملائم فى اليابان لكى أدفعه للشاب والفتاة اللذين قادانى إلى غرفتى وأشرفا على راحتى ووضع حقيبتى بها.. فأجابنى الاثنان بكلمة واحدة هى: لا شيء!، فعرفت من بين ما عرفت عن الحياة فى اليابان من خلال هذه الزيارة أن «البقشيش» شيء غير مألوف فيها.. ولا متوقع من جانب من يؤدى لك عملاً.. ساعتان من النوم القلق بسبب اضطراب مواعيد الراحة والنوم لفارق التوقيت، ثم بدأ برنامجى المكثف لاستطلاع الحياة فى هذه الدولة القديمة، المتجددة، الموشاة بسحر الشرق.. وغموضه.. وأعاجيبه.

ولعشرة أيام بعد ذلك، راح المرافق الشاب «شنتانى».. يأتينى فى الفندق فى الصباح الباكر ثم نخرج معا إلى اللقاءات والزيارات المختلفة، والتقيت خلال رحلتى لليابان بشخصيات من كل نوع رسمية وغير رسمية، وسافرت إلى مدن «يوكاهاما» و«أوساكا» و«هيروشيما» على بعد أكثر من ٧٠٠ كيلو من العاصمة.

وزرت مكاتب وزارة الخارجية اليابانية والتليفزيون اليابانى ومصنعا شهيرا من مصانع التليفزيون والفيديو والأجهزة الإلكترونية.. ومعابد بوذية عديدة.. وأخرى لديانة «الشنتو»، وتناولت الطعام مفترشًا الأرض فى مطعم يابانى تقليدى يقدم لرواده «النودلز» الشهيرة أو «الشعرية» اليابانية، وتخدمهم فيه سيدات يابانيات يرتدين الكيمونو التقليدى.. وفى مطاعم عصرية لا تختلف فى شيء عن المطاعم الأمريكية والأوروبية، والتقيت بخبراء فى العلاقات العربية اليابانية.. ومتخصص فى الدراسات العربية والإسلامية وروائية يابانية شهيرة.. ومجموعة صغيرة من الشباب اليابانيين تدور أعمارهم حول العشرين، وتناقشت معهم عن أفكارهم وآرائهم وأحلامهم للمستقبل.. وأفزعتنى بعض أفكارهم، وزرت بيتًا يابانيــًا لأسرة عادية رغبت فى أن أرى شكل الحياة فيه، وشربت مع

رية البيت الشاى اليابانى المثلج!.. وشراب الشعير التقليدى الخالى من الكحول على مائدة منخفضة على الأرض.

وخلعت حذائى عشرات المرات قبل دخول أماكن كثيرة فى اليابان من المصانع.. إلى البيوت إلى الهيئات المختلفة، ولفت نظرى فى مدخل كل مصنع دخلته وجود خزانة للأحذية فى مدخله على غرار دواليب الأحذية المعروفة فى المساجد لدينا، ولاحظت بدهشة أن مسئولة الاستقبال فى المصنع، الذى زرته تنحنى بلا حرج؛ لترفع حذائى وتضعه فى أحد عيون الخزانة، ثم تقدم لى «شبشبا» جلديا لأضعه فى قدمى خلال الزيارة، وحين أنتهى من زيارتى أخرج من حيث جئت، فأجد حذائى موضوعًا على الأرض.. ومقدمته تتجه إلى باب الخروج! إيذانًا بانتهاء الزيارة السعيدة. وانحنيت عشرات المرات حتى تجددت آلام الفقرات القطنية فى ظهرى، وهى من أمراض المهنة بالنسبة لأمثالى.. ردًا على تحيات المستقبلين والمودعين فى كل زياة بالانحناء المهذب المتكرر، وتعلمت ـ بعد أخطاء البداية التى لا مفر منها! ـ ألا أمد يدى لمصافحة مضيفى، وأن أرد تحيته بالانحناء مثله، بعد أن سألت المرافق عن ذلك، فأجابنى بأن اليابانيين لا يعرفون عادة المصافحة، ولكنهم يعذرون الأجانب بالرغم من ذلك.. وإذا مد أحدهم يده إليهم صافحوه.. لكنهم لا يفضلون ذلك، ولا يتصافحون فيما بينهم ويكتفون بالانحناء أكثر من مرة تعبيراً عن الاحترام والمودة، فاستوعبت الدرس وكففت عن المصافحة، وتعلمت الانحناء.. حتى بدأ ظهرى فى الشكوى! وبعد عشرة أيام من التجوال فى أرض اليابان والحوارات الطويلة مع شخصيات عديدة فيها، استطيع أن أقول: إن من يرد أن يكتب عن اليابان لا تكفيه عشرة أيام لكى يفهم الشخصية اليابانية، أو يتعرف بحق على الحياة فى اليابان.. وإن غاية ما يستطيعه فى هذا الشأن هو أن يسجل عنها بعض الانطباعات العابرة.

ومنها هذا الانطباع أو التساؤل الذى لابد أن يتردد فى ذهن القادم إلى اليابان حين يصل إلى قلب مدينة طوكيو.. ويرى من حوله مدينة عصرية شديدة

الزحام، ترتفع فيها البنايات الشاهقة الضخمة، وتجرى من تحتها قطارات المترو السريعة، وتمرق فوق سطحها قطارات السكة الحديد فائقة السرعة، التى تقطع ٣٠٠ كيلو متر فى الساعة، ويسمونها «الرصاصة» لأنها تشق الأرض بالفعل كالرصاصة! وهى ابتكار سبقت به اليابان العالم كله من الستينيات. . أول سؤال يرد إلى الذهن بالفعل هو كيف بنى اليابانيون هذه العاصمة الحديثة وغيرها من مدن بلادهم، وقد خلفتها قنابل الأمريكان فى الحرب العالمية الثانية حطامًا لا يرتفع فيه بناء واحد؟!.

لقد دخلت متحف «إيدو ـ طوكيو» الذى يحكى قصة تطور المدينة عبر التاريخ، فرأيت نموذجا مجسما للمدينة فى نهاية الحرب الثانية، وكل ما فيها خرائب وأبنية منهارة وحطام ما عدا قصر الأمبراطور فكيف استطاع اليابانيون بناء طوكيو. . وبناء بلادهم كلها مرة أخرى من تحت الصفر، حتى صاروا فى منتصف الثمانينيات ثانى قوة اقتصادية فى العالم كله؟!.

إن للكاتب الكبير الراحل أحمد بهاء الدين ـ يرحمه الله ـ تعبيراً طريفًا يفسر به هذه المعجزة، فيقول: إن الطريقة التى يعلمون بها الأفيال الرقص هى أن يجعلوها تقف فوق صفيح ساخن ملتهب، فتضطر الفيلة للقفز وتنتظم هذه القفزات فى سياق عام فتبدو كما لو كانت رقصا منظما!».

وأرض اليابان العائمة فى المحيط يحاصرها الماء من كل جانب وتنصب عليها الزوابع والأعاصير. . وتنفجر أرضها بلهب البراكين والزلازل حيث يقع فيها كل يوم تقريبا ٢٠ زلزالاً صغيرا، وكل عشرين سنة تقريبا يقع زلزال كبير مدمر. . هذه الأرض الساخنة الخالية من المواد الخام، والتى ازدادت سخونتها بقصف القنابل لها فى الحرب العالمية، وإلقاء أول قنبلة ذرية فى العالم كله عليها فى أغسطس ١٩٤٥، قد علمت أهلها الرقص فوق المستحيل، وأكسبتهم هذه الطاقة الحيوية العجيبة على العمل وسرعة المحاكاة والالتقاط والابتكار!.

وبعد عشر سنوات فقط، من الانهيار التام فى نهاية الحرب العالمية الثانية لم تعد اليابان كما كانت من قبل.. بلاد الجيشا وصناعة الحرير الطبيعى ولعب الأطفال وفن تنسيق الزهور وحدائق «الكريزانتم» الخلابة.. وإنما أصبحت بلدا صناعيًّا من الدرجة الأولى.

وبعد أربعين عاما من نهاية الحرب، كانت اليابان قد أصبحت قوة اقتصادية «مزعجة» للغرب كله بصفة عامة وأمريكا بصفة خاصة! وأصبح اليابانيون بالفعل أثرياء يتمتعون بمستوى معيشة مرتفع وخدمات عالية المستوى.. ويغزون مغانى الدول السياحية فى أوروبا وأمريكا، بأفواجهم السياحية التى تتميز بالجماعية، وتحتل دائما المقاعد الأمامية فى أرقى الملاهى والمسارح والأندية، ويقيم أعضاؤها فى أرقى فنادق العالم.. ويشتهر السائح اليابانى بأنه سائح من الدرجة الأولى.. يفضل أغلى المطاعم والملاهى وأماكن التسلية.

واليابانى بالفعل شخصية مركبة، يتعذر على الأجنبى سبر كل أغوارها بسهولة، والأسرة اليابانية تنشىء طفلها على الحذر من الغرباء، وعلى ألا يبوح بأسراره وحقيقة أفكاره واتجاهاته للآخرين.. وهو شخصية هادئة بصفة عامة على السطح.. وشخصية متوترة فى حقيقتها فى الأعماق.. وكما أنه شخصية «ماصة» لانفعالات الآخرين وغير انفعالية.. فإنه أيضا من أكثر شخصيات العالم استعدادًا لفكرة الانتحار إذا ساورته، ويتعامل مع الموت كحقيقة ملازمة لحقيقة الحياة نفسها، وكما يحب الحياة الراقية ويرتاد أحسن المطاعم.. ويشرب الكحول كل مساء فى البار الذى يتوجه إليه بعد العمل.. ويخرج للسياحة وينفق خلال رحلته بسخاء، فإنه فى الوقت نفسه لا يتصور الحياة دون ادخار ولا ينفق قرشًا فى غير موضعه، والمتسول فى بلدهم - إذا وجد - عليه أن يبحث لنفسه عن مصدر للغذاء وإلا هلك جوعا؛ لأن العقل اليابانى لا يستطيع أن يتفهم «لغز» أن يعيش أحد على إحسان الآخرين إليه.. ولا يساعده على ذلك أبدًا بالعطاء له..

ولهذا فإن من يسمونهم بالمتشردين الذين لا مأوى لهم ـ وهم قلة صغيرة ظهرت فى السنوات الأخيرة فقط، وغالبًا بسبب إدمان الكحول ـ يعتمدون فى حياتهم أيضًا على «العمل» وليس على التسول.. والعمل الذى يمارسونه هو جمع «المتروكات» التى يتركها ركاب المترو خلفهم، حين يهرولون إلى عملهم وهى دائمًا المجلات والجرائد. فيجمعونها.. ويبيعونها بربع الثمن لمن يشتريها.. كما أنهم يعتمدون كذلك على الأطعمة التى قارب موعد صلاحيتها على الانتهاء فتلقيها المحلات التجارية الكبرى فى القمامة.. وفيما عدا ذلك، فالمتشرد لا ينتظر منك إحسانًا.. ولا يمد يده إليك.. ولا يضع أمامه كوبا، أو طبقا فارغا يلقى فيه المارة بعملاتهم الصغيرة، كما يفعلون فى أوروبا وأمريكا، ولا عجب إذن فى أن يكون فى اليابان وحدها نصف مجموع المدخرات فى العالم كله.. ولا فى أن تكون اليابان دولة تصدر للعالم الخارجى بما قيمته ٤٢٠ مليار دولار كل سنة، بالرغم من اعتمادها شبه الكامل على استيراد المواد الخام من خارج أرضها..

وحين كنت فى اليابان.. سمعت كلامًا كثيرًا عن «الأزمة الاقتصادية»، التى تعيشها البلاد.. وسمعت من كل من قابلتهم من المسئولين إلى الصحفيين إلى الخبراء كلامًا متشائمًا عن أن العصر الذهبى لليابان قد شارف على المغيب.. وأن البلاد تواجه أزمة اقتصادية «حادة» بسبب الركود الاقتصادى، كما عاصرت الأزمة السياسية التى انتهت باستقالة حكومة «هاشيموتو»، وتشكيل حكومة جديدة، دخلها رئيس وزراء سابق ليكون وزيرًا للمالية فيها، وتعلقت به الآمال فى إنقاذ البلاد وإحياء الاقتصاد اليابانى من جديد لخبرته الثمينة، وعلاقاته الوطيدة بالإدارة الأمريكية، وتابعت المشاورات الوزارية التى سبقت تشكيل الحكومة، وكيف تردد رئيس الوزراء السابق فى قبول منصب وزير المالية والعمل تحت رئاسة من كان وزيرًا من قبل تحت رئاسته، ثم قبل بذلك حبًّا لبلده وطلبا لمصلحتها، إلى جانب ما كان يشعر به من بعض الحرج لأن عمره ٧٨ عاما!

وينبغى ألا يزاحم الشباب فى فرصهم، مع أن متوسط عمر الرجل فى اليابان ٧٤ عاما، ومتوسط عمر المرأة ٨٠ عاما.

وناقشت صحفيًّــا متخصصًا التقيت به خلال زيارتى لمبنى صحيفة «أساهى» واسعة الانتشار، فى هذا «القلق» الزائد الذى يشعر به اليابانيون تجاه المستقبل وهذه النظرة التشاؤمية التى تسود بينهم، بالرغم مما حققوه من معجزة اقتصادية مازالت قائمة وناجحة رغم بعض الظلال والغيوم، التى لا تخلو منها أية تجربة اقتصادية أخرى فى العالم، ففسر لى الرجل هذا القلق والتشاؤم بأن اليابانى يؤمن فى أعماقه بالمثل القديم الذى يقول: إقلق كثيرا فى البداية.. تطمئن أكثر فى النهاية!.

ولهذا فهم يكابدون القلق والتشاؤم الآن.. لكيلا تتفاقم الأمور وتتعرض التجربة للخطر.. ولكى يحفزوا أنفسهم على قهر الصعوبات الطارئة التى تواجه التجربة، وهذا تفسير صحيح لهذه الحالة المعنوية؛ فاليابانى متشائم بطبيعته وله من تاريخه ما قد يدعوه إلى مثل هذا التشاؤم والخوف من المستقبل، رغم النجاحات الكبيرة التى حققها فى العصر الحديث.. لكن من أسبابه الجديدة لهذا القلق أيضًا ما يعتبره جيل الكبار هناك ظواهر سلبية، قد تهدد البنيان الذى صنع هذه المعجزة الاقتصادية من قبل.

فاليابانيون يقولون إنهم قد صنعوا معجزتهم هذه اعتمادًا على ثلاثة عوامل، هى:

أولا: أن يعمل اليابانى فى شركة واحدة من أول يوم له فى الحياة العملية إلى أن يخرج للمعاش فى سن ٦٥ سنة، مما يعنى الولاء التام لجهة العمل والارتباط الروحى والمعنوى الكامل بها.

ثانيًا: اتباع نظام الأقدمية المطلقة فى الترقية وإسناد المسئوليات داخل العمل؛ مما يرسخ قيم الطاعة التامة للرؤساء واحترام القيادات.. والإيمان بحكمتها.

ثالثًا: حرص نقابة العمال فى الشركة أو المصنع على أن تكون مستقلة عن بقية نقابات واتحادات العمل فى الشركة والهيئات الأخرى، بحيث تكون كل قراراتها مستقلة عن غيرها، ولا تستهدف إلا صالح العمل فى المنشأة، بعيداً عن المزايدات والإضرابات العمالية.

وهذه العوامل الثلاثة ـ فى رأى محدثى ـ تتعرض الآن للاهتزاز بشدة، والمثال الذى يقدمه لى على ذلك هو أن ابنته قد جاءته بعد ٥ سنوات فقط من عملها بالتليفزيون لتقول له: إنها قد «سئمت» العمل به، وتريد أن تجرب عملاً جديداً وحياة مختلفة! وانتقلت بالفعل للعمل فى شركة صغيرة مما أثار انزعاج والدها التى قضى كل عمره يعمل بجهة واحدة! ولا يتصور لنفسه حياة أو عملا خارج أسوارها!.

والحق أن الفجوة قائمة بالفعل بين جيل الكبار وجيل الشباب فى اليابان على نحو لايمكن تجاهله.. فجيل الكبار يتمسك بالتقاليد اليابانية وأسلوب الحياة اليابانى المميز الذى شكَّل مقومات الشخصية اليابانية، وجيل الشباب كغيره من أجيال الشباب فى دول العالم الأخرى.. يتطلع إلى الجديد.. وقد تسربت إليه بعض السلوكيات الغربية والقيم الأمريكية.. فى المظهر وأسلوب الحياة المتحررة.. والتنقل بين جهات العمل.. إلخ.

ومع ذلك فإن من يقترب أكثر من اليابانيين يكتشف أن تحت هذا المظهر الغربى فى الملابس والسلوكيات سمات من الشخصية الشرقية الخاصة كامنة فى الأعماق.. وأن كل ما تتعرض له من مظاهر التغريب لا تستطيع اقتلاعها من جذورها، فلقد دخلت بيتًا لأسرة متوسطة يعمل عائلها مدرسًا.. وكانت الزوجة تعمل حتى وقت قريب، ولهما بنت تدرس الطب وولد يعمل مدربًا للسباحة، فوجدت البيت من الداخل يابانيًّا صرفًا، بالرغم من السلوكيات الأمريكية للولد والبنت، والجميع ينامون على الأرض أو على الحصير اليابانى اللين المعروف باسم «التتام»، وحجرة الطعام عبارة عن مائدة منخفضة كالطبلية الريفية يجلس

حـولها أفراد الأسـرة متربعين عـلى الأرض، وليس فى المسكن كله «مرتفعات» أو مقاعد سوى مقعد واحد للأب أمام مكتبه وجهاز الكمبيوتر الشخصى، وسوى مقعدين فى المطبخ للزوجة، والبيت بعد ذلك مزود بكل الأجهزة الحديثة.. ومزود كذلك بالطبع بمعبدين صغيرين معلقين فى الحائط كالتابلوه المجسم تؤدى الأسرة الصلاة أمامهما فى الصباح، الأول لديانة الشنتو التى يعتنقها اليابانيون، والثانى لديانة البوذية التى يؤمنون بها كذلك، ولا يتعارض إيمانهم بها مع عقيدتهم فى الإيمان بالشنتو.. لكن هذا حديث آخر.

* * *

٢٢

هيروشيما يا حبيبى!

تخيل نفسك ـ لا قدر الله ـ طرفا فى هذا المشهد الفريد !.

أنت شاب فى العشرين من عمرك ونهضت من نومك فى الصباح مفعمًا بالنشاط والتفاؤل والأمل فى الحياة والمستقبل.. فتناولت إفطارك وشربت شاى الصباح وارتديت ملابسك.. وحملت كشكول المحاضرات وخرجت إلى محطة الأتوبيس، فركبته إلى كليتك التى تقع على مسافة كيلو متر فى حدود المدينة، ثم غادرت الأتوبيس فجففت عرقك بمنديلك؛ لأن الجو حار ورطب فى مثل هذا الوقت من السنة.. ثم فجأة وقبل أن تقترب من باب الكلية، سمعت صوت انفجار كونى رهيب يصم الآذان.. ووجدت نفسك تطير فى الهواء من قوة الانفجار لمسافة ١٠ أمتار، قبل أن تسقط مرة أخرى.. فما أن لامست الأرض حتى خيل إليك أن لهيب السعير، الذى طالما قرأت عنه فى الكتب السماوية وأشفقت على نفسك منه، قد أحاط بك من كل جانب، أو كأن أحدا قد ألقى بك فى فوهة فرن مشتعل، بغير أن ترى نارا ولا لهيبا.. وإنما فقط حرارة جهنمية تحرق جلدك وتشوى جسمك.. وتكوى جوفك.. ولا تعرف من أين تهب رياح الجحيم هذه أو إلى أين تفر منها.. فتجرى فى كل مكان بلا هدف.. وتسمع وأنت تجرى من يصرخ ويولول قائلاً: إن المدينة التى غادرتها منذ قليل قد اختفت تماما من الوجود، كأنما قد بلعتها الأرض كما فى الأساطير، ولم يعد لك بيت ولا أهل ولا أسرة ولا حاضر ولا مستقبل.. ومازالت الحرارة الجهنمية التى بلغت ٤ آلاف درجة تحرقك وتكتم أنفاسك.. وتملأ جسمك بالحروق البشعة.

ماذا عساك أن تفعل فى مثل هذا المشهد العصيب؟.

لقد كان هذا المشـهد البشع هو ماوصفه لى عن تجربة شخصية معه، فى مكتبه بمدينة هيروشيما، رئيس اتحاد ضحايا القنبلة الذرية بعد ٥٣ عامًا من حدوثه.. وأنا أستمع إليه ذاهلا على الرغم من كل ما قرأت عن أهوال القنبلة الذرية التى سقطت على هيروشيما فى ٨ أغسطس ١٩٤٥، وتلتها القنبلة التى سقطت على نجازاكى بعدها ببضعة أيام، فوضعتا النهاية للحرب العالمية الثانية، واستسلمت اليابان للقوات الأمريكية الغازية بلا قيد ولا شرط فى ١٥ أغسطس.

أما الرجل الذى روى لى هذا المشهد، ولم يمل روايته طوال ٥٣ عامًا لكل زائر للاتحاد الذى يرأسه.. فلقد بلغ عمره ٧٣ عامًا، وفى يوم الهول العظيم هذا كان طالبًا فى العشرين من عمره.. ولم يكن فى المدينة نفسها عند الانفجار، وإنما على بعد كيلو متر منها، ومع ذلك فلقد لحقه لهب السعير حيث كان.. واحترقت كل أجزاء جسمه، وظل محتفظا بوعيه لمدة أسبوع بعد الهول الأكبر، ثم غاب عن الوعى وسقط فى غيبوبة استمرت ٤٠ يومًا أعلن الأطباء خلالها موته ثلاث مرات، وظل طريح الفراش عاجزًا عن الحركة لمدة سنة، قبل أن يسترد قدرته على المشى، ومازال حتى الآن يتردد على المستشفى مرة كل أسبوع بانتظام ليتم حقنه بحقنة تجدد خلايا الدم لديه؛ لأن جسمه بتأثير الإشعاع لا يكوِّنها بالسرعة المطلوبة.

ولقد عمل بعد شفائه النسبى مدرسًا ثم مديرًا لمدرسة، وتزوج وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره؛ لأن «هيئته» قبل ذلك لم تكن تسمح لأية فتاة بالاقتراب منه، وهو يعتبر نفسه أحسن حالاً من غيره من الضحايا الذين عجزوا عن الزواج وخاصة النساء منهم بسبب التشوهات البشعة التى تعرضوا لها وأخرجتهم عن الشكل الآدمى، ولقد أنجب فى زواجه بنتين وولدا، منهم ابنة

تعرضت للإجهاض ٥ مرات، ويشك الأطباء فى أن يكون ذلك من أثر إشعاع القنبلة اللعينة الذى تعرض له أبوها قبل ١٥ عاما من زواجه بأمها!.

وما رواه لى هذا الرجل فى ذلك الصباح الحار الرطب خلال زيارتى لهيروشيما يصور قدر هؤلاء الضحايا الأحياء الذين مازال ٣٠٠ ألف منهم على قيد الحياة فى اليابان حتى الآن، منهم ٦٠ ألفًا تعرضوا لإشعاع القنبلة بشكل مباشر كما حدث معه، والباقون كانوا أجنة فى بطون الأمهات.. أو ولدوا بعد أعوام لآباء وأمهات تعرضوا لإشعاع الموت هذا.

وأما اتحاد الضحايا الذى يرأسه، فمنظمة أهلية قوية مهمتها مطالبة المجتمع اليابانى بحقوق ضحايا القنبلة فى هيروشيما ونجازاكى، والدفاع عنهم لأنهم قد تعرضوا بعد الحرب ـ كما يقول الرجل ـ لنوع من العنصرية فى التعامل معهم فى مجالين هما العمل والزواج، ففى مجال العمل كان بعض أصحاب الأعمال ينفرون من توظيفهم خاصة فى مجال الخدمات والتعامل مع الجمهور بسبب التشوهات الفظيعة، التى يعانون منها والتى تنفر الزبائن منهم، وفى مجال الزواج كانت الفتيات يخشين من الارتباط بهم؛ بسبب الخوف الشديد من تأثير الإشعاع على النسل، إلى جانب النفور من الأشكال غير الآدمية لبعضهم.

ومن خلال جهود هذا الاتحاد حصل الضحايا على الكثير من الحقوق، ومنها حق العلاج المجانى طوال العمر.. وحق الحصول على معاش من الحكومة يتحدد حسب درجة الإصابة.

أما الهدف الاسمى لهذا الاتحاد وغيره من المنظمات المشابهة فى اليابان، فهو الدعوة إلى عالم بلا أخطار نووية.

وهى دعوة مستقرة بالفعل فى الوجدان اليابانى وصادقة.. ولقد زرت متحف هيروشيما ـ ومعظم زواره غالبًا من اليابانيين أنفسهم ـ فرأيت نموذجًا للمدينة صباح يوم سقوط القنبلة فوقها.. يعج بالمبانى العالية والبيوت الجميلة والحدائق

والمصانع والمدارس.. والشوارع.. ثم رأيت نموذجا لنفس المدينة بعد سقوط القنبلة عليها، وليس فيه مبنى قائم فى مكانه سوى ثلاثة مبانٍ فقط، تتناثر فوق «ماكيت المدينة» أحدها لهيئة تنمية الصادرات اليابانية، والآخران لمصنع ومدرسة كل منهما فى طرف من أطراف المدينة، وفيما عدا ذلك فلا شىء سوى الخراب والدمار لمدينة كبيرة، كانت تعج بالحياة والحركة والنشاط وعشرات الألوف من السكان قبل ساعات من الهول الأعظم!.

ولقد سألنى مرافقى اليابانى الشاب، ونحن نتجول فى هذا المتحف. عما إذا كنت أحب أن أشاهد الفيلم التسجيلى عن ضحايا القنبلة فى قاعة العرض المخصصة لذلك بالمتحف، فلم أفهم مغزى السؤال للأسف فى البداية.. وأجبته بقلة فطنتى المعهودة بأننى أود ذلك بكل تأكيد، وتوجهنا معًا إلى القاعة.. ولم يكن بها سوى رجل أوروبى وزوجته.

وجلسنا فى انتظار العرض فما أن بدأ حتى وجدت نفسى كل دقيقة وأخرى أدير وجهى بعيدا عن الشاشة إلى أن يختفى منها مشهد لا إنسانى لا أستطيع احتماله.. وتوالت مشاهد الفيلم، فوجدتنى أنظر إلى الشاشة لحظات، وأدير وجهى عنها دقائق ألمًا وسخطًا وجزعًا، إلى أن عجزت عن الاحتمال نهائيًّا فهرولت مغادراً القاعة، ومن خلفى المرافق يهنئنى بالرغم من ذلك على قدرة احتمالى! لأن معظم من رافقهم فى هذه القاعة خلال السنوات الأخيرة لم يحتملوا البقاء بها أكثر من دقائق معدودة! فلعلى لهذا السبب لم أعجب من نفسى، عندما زرت حديقة السلام التى أقاموها رمزاً للدعوة إلى عالم خال من أسلحة الدمار الشامل، فوجدتني أفعل كما يفعل زوار هذه الحديقة.. وأقرع مثلهم بانفعال الجرس الضخم المقام فى الحديقة.. والذى يقرعه كل الزوار بمطرقة هائلة الحجم كصرخة تحذير للبشرية من الخطر النووى، وأنا أشعر بالقشعريرة تسرى فى جسمى من دوى الجرس، وأتمنى من أعماقى ألا تتبدد هذه الصرخات فى الهواء.

كما لم أعجب لنفسى أيضا حين وجدتنى غارقًا فى التفكير والتأمل. . وأنا أقف أمام النموذج الموجود بالمتحف للقنبلة، التى ألقيت على هيروشيما بنفس حجمها وشكلها المخروطى اللعين، أتساءل عما فعلته بالبشر قنبلة مثلها لا يزيد حجمها عن حجم مكتب كبير! فما بالك إذا علمت أن القنبلة التى سببت كل هذا الدمار، وغيرت مجرى التاريخ يسميها الآن خبراء الخراب والدمار «القنبلة الطفلة»، بالقياس إلى ما تطورت إليه القوة التدميرية للقنابل النووية الحديثة شكلاً وأثرًا وموضوعًا.

وما بالك إذا علمت أيضًا أن هذه القنبلة لم تنفجر فى هيروشيما نفسها مباشرة، وإنما فوقها وعلى ارتفاع ٥٨٠ قدمًا منها فى الجو، بعد أن ألقاها الطيار الأمريكى فوق المدينة وتركها تهبط بالبراشوت ببطء؛ لكى يعطى لنفسه الفرصة الكافية للفرار من مسرح الدمار، فانفجرت عند الارتفاع المحدد لها وحصدت أرواح عشرات الألوف فى الوهلة الأولى. . وقتلت بالإشعاع عشرات الألوف الأخرى من البشر، الذين دخلوا المدينة فى الأيام التالية لإسعاف من بقى على قيد الحياة من الضحايا. .

لقد شاهدت أكثر من فيلم خلال السنوات الماضية، يصور ما جرى فى هيروشيما ونجازاكى من دمار، ومـا ترسب فى الشخصية اليابانية من آثار نفسية لا يمحوها الزمن لإلقاء أول قنبلة ذرية فى التاريخ على اليابان، ومنها الفيلم الشهير «هيروشيما يا حبيبى!» لكن كل ما قرأته وما شاهدته فى هذه الأفلام شىء. . وما لمسته عن قرب خلال زيارتى لمدينة هيروشيما، بعد ٥٣ عاما من المأساة شىء آخر تمامًا!.

فهل يحتاج العالم إلى «هيروشيما» أخرى؟ ومتى يكف الإنسان عن التفنن فى ابتكار وسائل قتل الإنسان وإلحاق الأذى والخراب والدمار بالبشرية؟.

٣٤

من رأى الشاعر

أن تصحب شاعراً فى سفر فهذه متعة، أما أن تصحب مائة شاعر أو أكثر ولمدة أربعة أيام كاملة، فهى متعة مضاعفة، ولكنها لا تخلو من مخاطرها!.

فللشعراء كما يقولون «بدَواتهم»، وفى قواميس اللغة، يقال إن فلانا «ذو بدوات» بمعنى أنه قد يسنح له الرأى «فجأة» فيتبعه! إذن فوطّن نفسك من البداية إذا صحبت شاعراً على ألا تفاجأ ببعض هذه «البدوات» أو النزوات التى يستسلم فيها لشيطان الشعر وتحكماته، ولقد كان أمير الشعراء أحمد شوقى يجالس أصحابه كل مساء فى محل «صولت» القديم بالقاهرة، فيشرد بذهنه بعيداً عنهم ثم ينهض فجأة بلا استئذان، ويركب سيارته ويأمر سائقه بأن يتجول به فى شوارع الجزيرة الخالية بعض الوقت، ثم يرجع إلى أصحابه فيملى على أحدهم أبياتا داعبته فجأة وهو جالس بينهم!.

ومع ذلك فقد قبلت «بالمخاطرة» ورحبت بدعوة مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعرى؛ لحضور الاحتفال بمناسبة صدور معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين، وركبت الطائرة إلى هناك.. وأنا أمنى نفسى بإجازة قصيرة من متاعب العمل، أتنسم خلالها نسائم تلك الأجواء الأدبية القديمة التى صرفتنى عنها مشاغل الحياة فى السنوات الأخيرة. فلقد كنت أحرص فى شبابى على حضور ندوة رابطة الأدب الحديث، مساء كل ثلاثاء، بمقرها بشارع شريف بالقاهرة.. وأسمع إنشاد شعراء ذلك الزمان السعيد لأشعارهم..

ومازلت أذكر استمتاعنا بأشعار محمد الفيتورى وأمل دنقل وجليلة رضا ومحيى الدين فارس وعبد المنعم عواد يوسف وغيرهم. بل ومازلت أذكر تلك الشاعرة الجميلة نجاة شاور ربيع، كما لازلت أذكر استمتاعنا العابث وضحكنا المكتوم لمرأى ذلك الشاعر العجوز المتهدم المتغضن الوجه بتجاعيد الزمن، وهو ينشد لنا قصيدته الشهيرة «لم لا أغنى»! يقصد لماذا لا يغنى للحب والأمل والسعادة، وهو مازال شاب القلب ويتطلع للغزل والحب!.

استرجعت فى ذاكرتى كل تلك الصور القديمة، وأنا فى مقعدى بالطائرة، وفى كل دقيقة يدخل علينا شاعر معروف أو ناقد أدبى كبير أو أستاذ للأدب العربى بالجامعات. وحين وصلت الطائرة للكويت.. ووقف بينا صاحب الجائزة والمعجم الشاعر عبد العزيز سعود البابطين يرحب بنا بحفاوة شديدة، وجدت نفسى فجأة بين ٤٥ شاعراً وناقداً مصريـاً!.

أما حين اجتمعنا بعد ساعتين فى صالة العشاء بفندق الميريديان.. فلقد أحسست أننى فى «سوق عكاظ» التى كان شعراء الجاهلية وخطباؤها يتبارون فيها فى الإنشاد والحكمة والنسيب!.

فمن كل أنحاء البلاد العربية رأيت شعراء طالما قرأت لهم، فها هو الشاعر الرقيق فاروق شوشة.. وها هو سليمان العيسى الشاعر السورى الكبير صاحب أشهر بيت شعر رددته الجماهير العربية بغير أن تعرف مصدره وهو: من المحيط الهادر إلى الخليج الثائر.. لبيك عبد الناصر! وها هو الشاعر السعودى العتيد حسن عبد الله القرشى عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة.. وأحد حراس اللغة فى العالم العربى.. وهؤلاء هم ممدوح عدوان وشوقى بغداد وعلية الجعار وأحمد سويلم وإبراهيم عيسى وأحمد غراب وسلطان العويس وعبد الرحمن الرفيع.. وآخرون جاءوا من كل البلاد العربية للمشاركة فى هذه المناسبة الأدبية الجليلة..

أما «البدَوات» فلم أتعامل معها بعد، وإن كانت بشائرها قد بدأت تلوح فى الأفق فى «هيئة» بعض الشعراء، فهذا هو شاعر الإسكندرية العريق عبد العليم القبانى بشعره المنفوش الذى يستعصى على أقوى مشط فى التاريخ، وهذا هو ذلك الشاعر السعودى، الذى لا أعرف اسمه، والذى يجمع فى ملابسه العربية بين الأزرار الذهبية والعمامة الهندية العجيبة! بل وهذا هو أيضًا ذلك الشاعر العربى الذى أثار بيننا الجدل عن هويته بقبعته الرمادية وملابسه، التى تشبه ملابس حاخامات اليهود وبذقنه الطويلة على غرار ذقونهم حتى شككنا فى يهوديته، لولا أن سارع أحد من يعرفونه بنفى ذلك عنه، أما المناقشات الأدبية الممتعة فلقد بدأت على الفور بين الجميع على موائد الإفطار فى اليوم التالى.

وأما فى المساء فلقد اجتمعنا فى قاعة الاحتفال بصدور المعجم، وألقى بعض الشعراء أشعارهم، فانفجرت «البَدوات» بغير سابق إنذار، وإما المعجم نفسه فعمل موسوعى جليل تصدت له مؤسسة الجائزة، وأنفقت عليه الكثير خدمة للثقافة، واستغرق إعداده أربع سنوات كاملة، طاف خلالها مندوبوه بكل الدول العربية من المحيط إلى الخليج لاستقصاء شعراء العرب المعاصرين، وملء الاستمارات الإحصائية ببياناتهم، وبعد عمليات طويلة ومضنية للمراجعة والتدقيق والفهرسة، صدر المعجم فى ستة أجزاء وأكثر من ٤٥٠٠ صفحة، يتضمن السير الذاتية لأكثر من ألفى شاعر عربى.. ومختارات من أفضل أشعارهم؛ فأصبح موسوعة للشعر العربى المعاصر فى كل ما يتعلق بالشعر والشعراء العرب الأحياء.

وأما «البدَوات» فلقد فجرها بغير قصد شاعر «فحل» الجسم والهيئة، ألقى فى الاحتفال قصيدته فغالى فى المديح الفج والنفاق المقزز مغالاة شديدة أهاجت «نزوات» الشعراء ومعابثاتهم فصخبوا عليه.. وهو يلقى بقصيدته وسخروا منها وعارضوا بأشعار هزلية ساخرة من نفس وزنها وقافيتها.

وجاءت «الشرارة» الأولى من الشاعرة علية الجعار، فارتجلت ونحن مازلنا

فى قاعة الاحتفال بيتًا ساخرًا على لسان ذلك الشاعر الفحل وقرأته علينا، أثارت «الشرارة» شهية الشعراء فارتجل شاعر آخر بيتا آخر من نفس القافية.. وقرأه علينا! وتلاه شاعر ثالث.. ورابع، وكل منهما يضيف إلى القصيدة «السرية» بيتًا جديدًا لاذعًا! وعلى مدى أيام الزيارة الأربعة راحت هذه القصيدة «السرية» تتضخم وتتكاثر، حتى أوشكت أن تنافس معجم البابطين نفسه فيما يضمه من نفائس الشعر العربى الحديث! ورأينا أن «الدائرة» تتسع وأن نفائس هذه القصيدة مهددة بالضياع فى الهواء ولابد من حفظها وتدوينها، فاستفاد الشعراء من تجربة المعجم حين شكل هيئة له من بعض أساتذة الجامعات لتسجيل أشعار الشعراء وتدقيقها، فشكلوا «هيئة» أخرى مختصرة للقصيدة السرية من الشاعرين حسن توفيق وأحمد سويلم، تقوم بجمع الأبيات الشاردة من أفواه الشعراء وتسجيلها وتبويبها! وكما طبع المعجم على ورق فاخر وبإخراج فنى جميل، فقد نشط الشاعر حسن توفيق لكتابة أبيات القصيدة بخط جميل وتصوير نسخ عديدة منها وتوزيعها على الشعراء ونقاد الأدب، وبدأها ببيت من أشعاره يقول على لسان ذلك الشاعر «الفحل»:

كتبت قصيدتى كــذبًا وجئت ... ونافقت الجميع ومـا خجلتُ
ومــن بلــد إلى بلـد تــرانى ... يسير معى النفاق إذا مشيت!

وفى كل مكان اتجهنا إليه خلال برنامج الزيارة، يفاجئنا شاعر آخر ببيت جديد فيسارع حسن توفيق بتسجيله وضمه للقصيدة، وقد زرنا مجلس الأمة الكويتى.. وهو أقدم مجلس تشريعى فى شبه الجزيرة العربية، وقد تأسس ١٩٦٢، وشهدنا جلسة من جلساته ولاحظت أن مقاعد الزوار أضعاف أضعاف مقاعد الأعضاء الذين لا يزيد عددهم عن ٣٤ عضوًا، وأن عددًا من الشباب والطلبة والسيدات يشهدون الجلسة من مقاعد الزوار، وكانت مخصصة لمناقشة بيان الحكومة أو الخطاب الأميرى. وكانت القضايا المثارة على ألسنة الأعضاء هى الوحدة الوطنية.. والتهديدات العراقية، وضرورة عدم المبالغة فى تصويرها إلا إذا كانت

جدية فعلاً حرصًا على نفسية المواطنين من معايشة الخوف. . وافتقاد الإحساس بالأمان إلى جانب الخدمات الصحية، ومشاكل الإسكان. . إلخ.

وزرنا ميناء الأحمدى ومنشآته البترولية. . وتجولنا فى شوارع مدينة الكويت التي اكتشفت لدهشتى صغر مساحتها، التى لا تزيد عن مساحة مطار طوكيو الدولى. كما لاحظت خلو شوارعها غالبًا إلا من السيارات المارقة. ولا عجب فى ذلك فالدولة كلها صغيرة المساحة والسكان، ولا تتجاوز مساحتها ١٧,٨١٨كم٢، ولا يزيد عدد سكانها عن ١,٦٨١,٠٠٠، منهم حوالى ٦٥٩ ألفًا من الكويتيين والبقية من الوافدين غير العرب وعددهم فى اخر إحصاء ٥٧٥ ألف نسمة معظمهم من الآسيويين. . ثم من الوافدين العرب وعددهم حوالى ٤٤٧ ألف نسمة. . أما شروخ الغزو العراقى النفسية فمازالت غائرة فى الشخصية الكويتية، وتنعكس عليها الآن فى هاجس الاستعداد للمستقبل عند نضوب النفط الذى يقدر له بعض الخبراء ٤٥ عامًا، إذا استمرت معدلات الإنتاج الحالية، ويقدر له البعض الآخر مائة عام. . وفى كل الأحوال فلابد من التفكير فى البدائل؛ لأن الكويت خالية تمامًا من الثروات الطبيعية عدا البترول. . وأراضيها الصالحة للزراعة قليلة جدًا، لكن الشىء الذى يستحق التأمل حقًا هو ارتفاع نسبة التعليم بين الكويتين، وتضاؤل نسبة الأمية إلى حد العدم تقريبًا بين المواطنين الكويتيين.

وأينما تواجدنا ووجد بعض الشعراء ميكرفونًا أو آذانًا مستعدة للاستماع، تنافسوا فى إنشادنا أشعارهم، حتى لقد أصبحت مشكلة الأديب عبد العزيز السريع هى كيف ينظم هذا الطوفان الشعرى. . ويحد من أمواجه العاتية!.

وقد أكدت لى هذه الأمسيات الشعرية ما كنت أشك فيه من قبل، وهو أن الشعراء هم أقسى جمهور لسماع الشعر. . وأن النقاد أرحم منهم كثيرًا بالشعراء وأكثر رفقًا! فهم حين يسمعون أشعار غيرهم لا يطيقون صبرًا على مالا يعجبهم منه. . ولا يتجملون ولا يخفون ضيقهم بل وسخريتهم مما لا يرضون عنه. .

ويسارعون بإكمال القافية إذا كانت متوقعة أو شائعة قبل أن ينطق بها الشاعر نفسه، ويتربصون لأى خطأ نحوى فى الإلقاء ويسارعون بتصحيحه جهرًا.

ومع ذلك، فإنهم لا يترددون فى إلقاء أشعارهم هم أنفسهم أمام هذا الجمهور القاسى نفسه، كلما سنحت لهم الفرصة لذلك!.

وحين قرأ علىَّ الشاعر المصرى الرقيق إبراهيم عيسى بيتين جميلين من أشعاره يقول فيهما:

كذب الواشى وخاب	من رأى الشـاعر تاب
عمره فجر من الحب	وليـــل مـــن عـــذاب

قلت له مداعبًا إنه لعله يقصد بذلك أن من «رأى الشاعر» وما يفعله حين يسمع أشعار غيره لابد له أن «يتوب» عن قول الشعر أمامه، وضحك إبراهيم عيسى لذلك، وضحكت معه أكثر حين روى لى أن زوجته قد شعرت ذات يوم بالاستياء من كثرة «تطلعه» لوجوه الجميلات وهو جاحظ العينين بطبيعته، فكتب لها هذين البيتين الجميلين:

وتنظر عينى إلى الأخريـات	ولا ينـظر القـلبُ إلا إليـك
ولو بيدى رحلتى فى الزمان	لسافرت عمرى فى مقلتيك

وكان الله فى عون زوجات الشعراء.. «فأعذب الشعر أكذبه» كما يقولون!.

وأما القصيدة «السرية» فقد واصلت نموها السرطانى بلا انقطاع، وأضاف إليها شاعر مصرى مقيم بالسعودية، لا تسعفنى الذاكرة للأسف باسمه، عشرين بيتًا وحده اختتمها «بإبداع» غير مسبوق، هو بضعة أبيات باللغة الإنجليزية من نفس القافية العربية والوزن أيضًا!.

وأما تأملاتى للشارع الكويتى.. فلقد تواصلت فى الفترة القليلة الخالية بين برنامج الزيارة ومعابثات الشعراء، وفى إحدى الصحف الكويتية قرأت مقالاً

لكاتب كويتى، يقول فيه: إن البيت الكويتى يعتمد اعتماداً أساسيًّـا على المربية والشغالة والطاهى والمدرس الخصوصى والسائق، فماذا بقى ـ كما يقول ـ للزوجة الكويتية من مهام لتؤديها لأسرتها وزوجها، وماذا بقى لرب الأسرة نفسه من هذه المهام؟ ولاحظت أن الأماكن العامة والكافتيريات تخصص قسمًا منها للنساء، وأن المرأة الكويتية تخرج إلى الكافتيريا فى الصباح لتناول الإفطار وتبادل الأخبار والأحاديث مع صديقاتها، وأن وجودها فى الحياة العامة والوظائف الحكومية والأهلية ملحوظ إلى حد كبير، أما نموذج السكنى المفضل للأسرة الكويتية فهو البيت المستقل، أما العمارة الحديثة فلا يسكنها غالبًا إلا الوافدون وقد يسكنها الشاب الكويتى فى بداية حياته لفترة مؤقتة إلى أن يحصل على بيت حكومة أو قطعة أرض وإعانة مالية لبناء بيت، وهو يبدأ غالبا بوظيفة بـ ٦٠٠ دينار، ويحصل على مساعدة مالية عند الزواج.

وأخيراً حان موعد العودة إلى القاهرة.. وجلسنا فى قاعة الانتظار نتبادل أحاديث الوداع، فإذا بالشاعر حسن توفيق يعود للظهور، ومعه نسخ جديدة من «القصيدة السرية» راح يوزعها علينا فى آخر «طبعة» لها! فقد عثر فى قاعة الزوار على آلة لتصوير المستندات فنشط فى طبع المزيد والمزيد من صورها بإضافاتها الجديدة، مؤديا بذلك مهمته كعضو فى «هيئة» القصيدة حتى اللحظة الأخيرة!.

أما فى الطائرة نفسها.. فلقد فوجئت بعد إقلاعها بالشاعر أحمد سويلم والدكتور أحمد درويش الأستاذ بكلية دار العلوم، يأتيان إلىّ فى مقعدى ويصطحباننى إلى مؤخرة الطائرة، لكى يسمعانى بضعة أبيات جديدة جادت بها قريحة الدكتور أحمد درويش وهو فوق السحاب؛ لأضيفها إلى نسختى فى القصيدة السرية قبل أن نصل للقاهرة ويذهب كل منا إلى حال سبيله!.

صحيح.. «من رأى الشاعر تاب».

ولكن ليس عن صحبته الممتعة.. وإنما عن قول الشعر الردئ والنفاق الرخيص!.

٣٥

هنا تسكب العبرات

أخيراً حسمت أمرى وقررت أن أقوم بتلك الرحلة، التى تهيأت لها أكثر من مرة من قبل، ثم حالت بينى وبينها ظروف الحياة.

للسفر فى حياتى طقوس وعادات أحرص عليها فى كل مرة أستعد فيها للخروج إلى العالم الواسع، فحين يقترب موعده أنقطع عن الخروج من البيت يومين متتالين لأكتب أعمالى المتأخرة، وتستقر على أرض غرفة نومى الحقيبة التى اخترتها لترافقنى فى رحلتى.. وأظل طوال هذين اليومين أضع فيها ما سوف أحتاجه فى السفر.. وكلما تذكرت شيئًا أضفته إليها إلى أن اكتشف عادة أنها تضيق بما تحمل فأستعين فى اللحظة الأخيرة بحقيبة جديدة، لكن ظروف هذه الرحلة تختلف تماما عن كل رحلاتى السابقة.. فالحقيبة الصغيرة خالية من معظم ما أحرص عليه فى السفر، وكل ما فيها بسيط ومتواضع.

وقد انتهيت من كتابة الأعمال المطلوبة منى.. فلم أراجع مرة ثانية وثالثة محتويات الحقيبة؛ لاتأكد من وجود كل ما أحتاج إليه من بدل وقمصان وربطات عنق.

وإنما نهضت من مكتبى فقصصت شعرى.. وقلمت أظافرى وأغتسلت ثم دخلت غرفة نومى وخلعت كل ملابسى، ثم لففت خصرى ببشكير أبيض كبير، وأحكمت رباطه بحزام أبيض ثم لففت حول صدرى بشكيراً آخر.. ووضعت قدمى فى شبشب بسيط.. وأنهيت كل استعداداتى للسفر!.

يا إلهى.. كيف ستواتينى الجرأة على الخروج أمام الآخرين شبه عار هكذا وفى برد الشتاء، وأنا من يتحرج من الخروج من بيته حتى فى الصيف الحار بالقميص والبنطلون، ويحرص على ارتداء البدلة الكاملة والكرافت صيفًا وشتاء؟.. إن هذا هو سر آخر من أسرار هذه الرحلة النورانية التى سأقوم بها.. فإنى مسافر إلى حيث لا يعنينى مظهر ولا ملبس ولا وظيفة.. وإنما يعنينى فقط أن يتقبلنى من أهاجر إليه لأؤدى العمرة، وأقضى ليلة رأس السنة الميلادية فى بيته الحرام مع صديقى و«شيخى» الأديب الفنان أحمد بهجت.

وأنت حين تغادر بيتك إلى هذه الرحلة الروحية، ترتد عاريًا كما ولدتك أمك وترتدى رداء الإنسان حين يولد، وحين يغادر الحياة تاركًا خلفه كل حطام الدنيا.. ومطامعها. قطعتان من القماش الأبيض غير المخيط هما كل ما سوف ترتديه لتعود إلى فطرتك التى فطرك الله عليها.. وتتخلى عن كل متاع الدنيا آملا أن يتقبلك ربك فى رحابه.. أما المظهر فلم تعد له أية قيمة فى نظرك.. وأما نظرات الآخرين لك إذا رأوك هكذا.. فلن تحس بها ولن تضطرب لها؛ لأنه لا يعنيك فى هذه اللحظات شىء سوى أن تقول لربك بما فعلت: ربى إنى قد خلعت ردائى.. وهجرت أهلى وعملى وكل رغائب الدنيا، وجئت إليك تائبًا باكيًا مستشفعًا فتقبلنى فى عبادك الصالحين.

انتهيت من ارتداء ملابس الإحرام، وهذه الخواطر تطوف برأسى، وقد تولتنى حالة وجدانية لاأستطيع تفسيرها من الخوف والاضطراب والرجاء.. والزهد فى كل شىء، وقد عزفت عن الكلام وتمنيت ألا يكلمنى أحد؛ حتى لا أضطر إلى الخروج عن صمتى، صليت ركعتيْن خفيفتين بنية العمرة، وقلت:

اللهم إنى نويت أداء العمرة.. فيسرها لى وتقبلها منى.

ثم بدأت التلبية: لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك.. لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك.

وأحسست بعد أن هتفت بها أن كل ما كان بينى وبين العالم القديم قد انقطع فى هذه اللحظة، فلم أعد زوجًا ولا أبًا ولا ابنًا ولا صحفيًّا ولا كاتبًا ولا صديقًا لأحد، وإنما إنسان خائف.. خائف حتى الموت.. تلقى نداء سماويًّا بالسفر، فأجاب النداء واجفًا وهتف باطنه مناجيًا ربه: لبيك.. إنى قادم إليك.. مستجير بك من عذابك.. طامع فى رحمتك.. لقد خلعت نفسى من كل ما كنت فيه.. ولم يعد لى أمل فى الحياة إلا أن تشملنى برحمتك.. ويا ويلتى إن ضاقت عنى أو سدت فى وجهى أبوابها. خرجت من غرفة نومى فلفحنى برد الشتاء وزاد من ارتجافى الداخلى، فكررت التلبية لأنى انتقلت من «حال إلى حال» وغادرت مسكنى، فلم أدر بشىء ولم أنتبه إلى أنى أسير أمام الجميع شبه عار وشبه حاف، وإنما ركبت السيارة وأنا غائب عما حولى.. حتى عن جيرانى الطيبين المهنئين.

يا إلهى.. لماذا تشرق الوجوه حين يراك أصحابها بهذا الرداء البسيط؟ ولماذا يبتسمون فى وجهك ويهنئونك ويسألونك الدعاء وأنت شبه عار أمامهم؟ إنه سر آخر من أسرار هذه الرحلة النورانية، سوف تحس به طوال الطريق.

مررت على بيت صديقى أحمد بهجت واصطحبته إلى المطار وأسلمته من هذه اللحظة قيادى، فهو طائف قديم بالبيت الحرام، وأنا تلميد جديد يتلمس الطريق. صعدنا إلى الطائرة فقابلتنا نفس الوجوه الباسمة المشرقة بالترحيب إكرامًا لردائنا المتواضع، وخصَّتنا المضيفة العطوف برعايتها طوال الطريق. وكررنا التلبية فى كل «حال» انتقلنا إليها من السيارة إلى الأرض.. ومن الأرض إلى الطائرة ثم فى مطار جدة، وفيه استقبلنا صديقان ورتبا سفرنا على الفور بسيارة إلى مكة المكرمة، استوت السيارة على الطريق وحل الظلام والسكون.. وطال ترقبى للحظة التى سأرى فيها بيت الله الحرام، وأردد دعاء «معاينة» الكعبة المشرفة.. لكنى لا أحس بالملل أو القلق، وإنما أحس بسلام غريب رغم مخاوفى.. فقد فرغت من كل هموم الحياة، ولم يعد يشغلنى سوى الأمل فى رحمة الله.

اقتربت السيارة من بيوت مكة فقررنا التلبية. . ودخلت السيارة المدينة وعيناى معلقتان بالسماء تترقبان رؤية مآذن البيت الحرام. . وخفق قلبى بشدة حين رأيتها. . وتحشرج صوتى بالتلبية والدعاء.

ـ اللهم إن الحرم حرمك والبلد بلدك والأمن أمنك والعبد عبدك. . جئتك من بلاد بعيدة بذنوب كثيرة أسألك مسألة المضطرين إليك. . المشفقين من عذابك أن تستقبلنى بمحض عفوك.

اختنق صوتى حين وصلت إلى نهاية هذا الدعاء. . وتعلق القلب الحزين بالأمل فى أن يستقبله ربه بمحض عفوه، وهو من لا أمل له سواه.

هل فكرت مرة فى حكمة هذا الدعاء الذى يردده الطائفون حول البيت العتيق:

ـ رب اغفر وارحم. . وتجاوز عما تعلم؟.

لقد فات وقت الإنكار، والجميع يقرون بذنوبهم التى يعلم عنها ربهم أكثر مما يعلمون هم عنها، فهل للإنسان فى مثل هذه الحالة إلا الأمل فى أن يتجاوز عما يعلم؟.

أودعنا الفندق حقائبنا البسيطة، وتوجهنا على الأقدام إلى المسجد الحرام ودخلت من باب العمرة، فرأيت المصلين حولى فى كل مكان. . ولم أر بعد البيت الحرام.

جددتُ فى السير وراء شيخى. . متلهفًا على رؤية الكعبة المشرفة، ونزلت إلى ساحة المسجد الرخامية حانى الرأس. . ثم رفعت رأسى فجأة فوجدت نفسى أمام البيت الحرام لأول مرة فى حياتى فلم أدر بما حولى. . ولا بما تولانى من مشاعر وأحاسيس طاغية، وانخرطت فجأة فى بكاء مرير طويل، لم أبكه من قبل إلا حين مات أبى وشقيقان لى رحمهم الله جميعًا. عجزت عن السير فوقفت حيث

أنا. . ووقف أحمد بهجت ينظر إلىّ فى فهم لحظات، ثم سحبنى من ذراعى برفق، ومضى بى فى اتجاه الكعبة

بماذا أحسست فى هذه اللحظات. . ولماذا لم أفعل كما يفعل الآخرون حين يعاينون الكعبة لأول مرة فى حياتهم فيستبشرون ويبتهجون، ويشكرون ربهم أن مكَّنهم من زيارة بيته المحرم، ويرددون دعاء معاينة الكعبة: «اللهم زد بيتك هذا تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابة، وزد من شرَّفه وكرّمه ممن حجّه أو اعتمره. . تشريفًا، وتكريمًا وتعظيمًا وبراً، اللهم أنت السلام ومنك السلام. . فحيِّنا ربنا بالسلام».

لقد رددت هذا الدعاء وراء أحمد بهجت، حين تمالكت نفسى بعد قليل ووجدت صوتى. . لكن لماذا تولانى هذا الإحساس الطاغى المرير حين رأيتها لأول مرة؟ لقد سألنى أحمد بهجت فيما بعد هذا السؤال فترددت طويلاً فى مصارحته بما أحسست به. . ربما لغرابته. . وربما اشفاقًا من أن يمس التعبير عنه جلال المكان. لكنه كان إحساسى على أية حال ولا حيلة لى فيه، فلقد تمثلت فجأة صورة اللص الذى ضبط متلبسًا بارتكاب جريمته، ورفع رأسه فجأة فوجد رجال الشرطة يحيطون به ومن كل جانب، وينهالون بكعوب بنادقهم فوق رأسه، فعرف أنه لم يعد يجدى الإنكار أو التنصل من جريمته، وتعلق أمله الوحيد باسترحام معاقبيه فرفع ذراعيه مسلمًا، وهتف صارخًا من الألم والرعب والضربات الموجعة:

ـ أنا فى عرض النبى!.

نعم كان هذا هو إحساسى بصدق؛ حين عاينت الكعبة لأول مرة فى حياتى. . فلقد أحسست أنى هذا اللص الذى ضبط متلبسًا بكل ذنوبه على مدى حياته فلم يُجْدِ معه الإنكار أو ادعاء البراءة. . ولم يعد له من أمل سوى الرحمة وتخفيف العقاب، فهتف باطنه متشفعًا عند ربه بعرض نبيه وذمته. .

فاللهم اقبل شفاعته فينا وفى عبادك الضعفاء ولا تردنا خائبين!.

تجاوزت موقفى بصعوبة وغالبت مشاعرى وارتجافى.. واتجهت إلى الكعبة المشرفة هذا البناء صغير الحجم نسبيًّا، الذى تهفو له القلوب من كل مكان، ويتجه إليه المصلون فى كل أرجاء الأرض.. أى سحر غامض وأية مهابة فى هذا البناء الصغير المقام فوق قاعدة ارتفاعها ٧٥ سم وبارتفاع ١٣ مترًا والذى يختلف طول أضلاعه فيبلغ ضلعه من جهة باب الكعبة ١٢,٢٠ مترًا، ومن جهة باب إبراهيم ١٢,٦٠ مترًا ومن جهة الحطيم ١٠,٤٠ مترًا ومن جهة الحجر اليمانى ١٠,٦٠ مترًا؟.

وكيف شاءت إرادة الله حين تصلى فيه فى أى جهة من الجهات الأربع فى مواقيت الصلاة أن يكون خلفك فى نفس اللحظة ملايين من المصلين فى أحد أركان الأرض الأربعة، فكأنك حين تصلى فيه، تقف إمامًا من حيث لا تدرى لملايين آخرين من المصلين، لا تعرف مستقرهم، ولا أين يصلون نفس هذه الفريضة وراءك؟.

تجيبك عن هذا السؤال آية كريمة ودعاء مأثور، أما الآية الكريمة فجاءت على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام حين أودع زوجته السيدة هاجر وولده الرضيع إسماعيل هذا المكان ولم يكن فيه بشر ولا حياة.. ومضى عنها داعيًا ربه **﴿ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾**.. صدق الله العظيم.

أما الدعاء فتقوله حين تبدأ الطواف حول الكعبة سبع مرات للحج أو العمرة فتقول بعد أن تستقبل الحجر الأسود: اللهم إيمانًا بك.. وتصديقًا بكتابك ووفاء بعهدك واتباعًا لسنة نبيك محمد ﷺ، وفى هذه الكلمات المباركة تفسير كامل لسر «هوى القلوب» إلى الكعبة المشرفة.. وهو سر لا يقتصر على أن الحج فريضة

وركن من أركان الإسلام، وأن الجميع مأمورون به لمن استطاع إليه سبيلاً؛ إذ لو كان الأمر فريضة فقط لما رأيت هذه «الدائرة المتحركة من البشر» تدور حول الكعبة بلا توقف إلا عند أداء الفروض الخمسة لمدة ٢٤ ساعة يوميًّا على مدى ٣٦٥ يومًا كل سنة بلا بداية.. ولا نهاية! ولاقتصرت هذه الدائرة البشرية اللانهائية على موسم الحج والعمرة فقط، فلقد جعل الله أفئدة من الناس تهوى إلى هذا المكان فى كل ساعة من ساعات النهار والليل، على مدى العام كله فجاءوا إليه إيمانًا به وتصديقًا بكتابه واتباعًا لسنة نبيه.

والإيمان هو التصديق بالقلب وهو يقع فى القلب أولاً، ثم تؤكده البراهين العقلية فيما بعد. لهذا فسوف تطوف حول الكعبة سبع مرات، دون أن تسأل: ولماذا سبع مرات فقط وليست ثمانية.. وسوف تسعى سبعة أشواط بين جبلى الصفا والمرورة، دون أن تهتم بأن تعرف أنك تكرر بذلك سعى السيدة هاجر بين الجبلين، حين اشتد العطش بوليدها إسماعيل.. فهرولت إلى الصفا وارتقته ورجعت إلى المروة وفعلت نفس الشيء، وتكرر السعى سبعة أشواط، هى التى تسعاها الآن ضمن مناسك العمرة والحج.

لن تسأل عن ذلك، وإنما ستصدع بما تؤمر، وستتم الطواف حول الكعبة وصدرك يجيش بالانفعال والأمل فى رحمة الله.. وستتوجه إلى مقام إبراهيم وهو حجر صغير كان يقف عليه سيدنا إبراهيم، وهو يرفع القواعد من البيت حين ارتفع البناء عن قامته، وتصلى ركعتين أمامه.. أو فى أى مكان من المسجد الحرام، ثم ستقف بعد أداء الصلاة بباب الملتزم، وهو المساحة التى تفصل بين الحجر الأسود وباب الكعبة.. وسوف تحاول أن تجد لنفسك مكانًا لتلصق به صدرك.. وترفع ذراعيك وتتعلق بأستار الكعبة مستغفرًا تائبًا باكيًا.. وسوف تتذكر أن الرسول الكريم قد رأى عمر بن الخطاب فى نفس موقفك هذا وهو يبكى بحرارة، فقال له: هنا تسكب العبرات. وسوف ترجع عن الكعبة وتشرب

من ماء زمزم ثم تتجه إلى المسعى؛ لتكمل مناسك العمرة بالسعى سبعة أشواط بين الصفا والمروة.

وسوف تتلو هذه الآية الكريمة، وأنت تقف فوق الصفا والمروة فى كل مرة:

﴿إن الصفا والمرة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يَطوَّف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم﴾.

وسوف تعجب معى من كرم ربك وسماحته.. وسوف تسأل: وهل يشكر الرب عبده على تطوعه أو طاعته له؟ وسيجيئك الجواب بأنه وحده جل شأنه الذى يفعل ذلك فضلاً وكرمًا، وبهذا الكرم وحده سوف تتعلق القلوب الواجفة والطامعة فى رحمته وفضله.

وتنتهى أخيراً مناسك العمرة بعد منتصف الليل بساعة.. ونتحلل من الإحرام بقص الشعر، ونعود إلى الفندق مجهدين فى نهاية رحلة بدأت فى الصباح، فأنتبه فى هذه اللحظة فقط إلى أن طفت حول الكعبة.. وسعيت بين الصفا والمروة حافيًا لمسافة لا تقل عن ٦ كيلو مترات على الأقل، وأنا من يعجز عن السير لمسافة ٥٠٠ متر فقط ثم يتوقف لاهثًا وشاكيًا آلام العظام وتيبس المفاصل.. وأفكر فى هذا الأمر طويلاً، فلا أجد له تفسيراً إلا فى دعاء نية العمرة، الذى دعوته فى الصباح حين أحرمت ودعوت ربى.. أن ييسر لى العمرة.. ويتقبلها منى..

ولقد يسرها لى بفضل من عنده.. فهل يتقبلها أيضًا؟.

ربنا وتقبل دعاء.

* * *

٣٦

... إلا فراق الحبايب!

يا إلهى! ماذا دهانى حين سمعت كلمات هذه الأغنية الشعبية من ستريو السيارة، وأنا فى طريقى إلى مطار شارل ديجول بباريس؟ لقد انتهت رحلتى التى استغرقت حوالى الشهر، وتنقلت خلالها بين فرنسا وأمريكا، وآن لى أن أرجع إلى أسرتى وعملى وحياتى، وها هما صديقاى «سيد» و«خالد» يصطحبانى للمطار لأركب الطائرة إلى القاهرة..

فماذا أصابنى، حين سمعت كلمات هذه الأغنية الحزينة خلال الطريق؟ إننى فى العادة أتجه إلى المطار فى رحلة العودة سعيدًا بعودتى إلى أسرتى وأحبائى وأصدقائى فى مصر، طالت أم قصرت رحلة البعد عنهم.. بل إننى أغادر القاهرة كل مرة متلهفًا على الابتعاد عن هموم العمل وتبعاته، فلا يكاد يمضى بى أسبوع فى الخارج، حتى أبدأ فى افتقاد كل ما تلهفت على تركه، ولا أصل إلى نهاية الرحلة إلا وأنا شبه مريض بمرض الحنين إلى الوطن والأهل والأعزاء، حتى عرفت ذلك عن نفسى وتعايشت معه، وعرفت أننى أذهب إلى المطار فى رحلة السفر، وأنا فى قمة الابتهاج بإحساس الإجازة والتغيير والبعد عن سأم التكرار، وأذهب إلى المطار فى رحلة العودة.. وأنا أكثر ابتهاجًا بعودتى إلى كل من ابتعدت عنهم خلال الرحلة..

فلماذا تكثف الشجن فجأة فى أعماقى، واختنق صدرى بهذه الأحاسيس وأنا أسمع هذه الأغنية؟ إنها أغنية للمطرب محمد رءوف مطرب فرقة رضا للفنون الشعبية.. والأغنية من التراث الشعبى الصعيدى، وتتحدث عن إنسان يفتقد حبيبه الذى تفصله عنه أنهار ومسافات، فيقف على شاطىء النهر يناشد

«مراكبيًّا» أن يحمله إليه ويقول له «يا مراكبى الشوق فاض بى»، ويتشكى فى نغمة حزينة من أنه «حتى اللى بأحبه معادينى وكيف أنه ضنين ياناس فى العدالة» مع من يحبه ويترضاه فيصر على مفارقته والبعد عنه، إلى أن يصل إلى كلمات الموال الذى يتخلل الأغنية فيقول:

الشوك يقول للورد أنا خايف عليك منى

لتنجرح يا ورد وتبقى الجراح.. منى

الورد قال يا شوك عمر الجراح ما تألمنى

.. إلا فراق الحبايب وبعدهم عنى!

آه.. هذه هى العبارة التى ذهلت عند سماعها فتوقفت أمامها.. واسترجعتها فى ذهنى طويلاً، ورجوت «خالد» أن يعيد الأغنية عدة مرات لأسمعها أكثر من مرة، فماذا فيها مما لم أسمعه من قبل من شعر الشعراء ومؤلفى الأغانى؟ ولماذا تأثرت بها إلى هذا الحد؟.. هل لأن رحلة العمر قد شهدت كثيرًا من أحداث فراق الأعزاء والأحباء على مر السنين؟ هل لأن الفراق المؤقت يذكر الإنسان دائمًا بالفراق الأبدى الذى لا لقاء بعده؟ أم هل لأنى فى هذه الرحلة بالذات قد التقيت بأحباء كثيرين وفارقتهم.. وكل منا لا يدرى إذا كان سيرى صاحبه مرة أخرى أم لا؟ لابد أن «كل ذلك» قد تداخل وتشابك فى أعماقى مع اقترابى من المطار وقرب توديعى لأصدقائى بباريس، فأصابنى بهذه الحالة الوجدانية الخاصة، وأثار شجونى وذكرياتى مع من قضيت معهم أسعد أوقاتى خلال هذه الرحلة، وفارقتهم بلا أمل فى لقاء قريب.

فلقد فارقت «محمد» فى نيويورك ولم أكن أعرفه.. ولم ألتق به سوى فى هذه الرحلة، ومع ذلك فلقد تقاربنا سريعًا وتآلفنا، ووجدته بعد قليل يحكى لى عن أسرار حياته الشخصية ما لا يرويه الإنسان إلا لخلصائه، وأكبرته حين لمست فيه بره بوالديه وحدبه عليهما، حتى أنه لم يرجع لمصر منذ ٥ سنوات رغم أنه

يحمل أوراق الإقامة الشرعية بأمريكا.. ويستطيع مغادرتها والعودة إليها فى أى وقت، لكنه لا يستخدم هذا الحق، لأنه وحيد أمه التى تجاوزت السبعين وقد أتى بها لتعيش معه فى نيويورك ولها شقة صغيرة فى نفس العمارة التى يقيم فيها مع زوجته؛ حتى تشعر باستقلاليتها وحريتها الشخصية فى «بيتها» مع ما فى ذلك من تكلفة مادية زائدة له، وهو يكلف زوجته برعايتها وخدمتها، ويمر عليها فى الصباح والظهر والمساء، وهو لا يستطيع العودة لمصر وهى فى صحبته لأنها بلا أوراق إقامة فى أمريكا.. ولو رجعت معه لبلاده فى إجازة فلن يستطيع الحصول لها على تأشيرة دخول جديدة للولايات المتحدة.. ولهذا فهو يحكم على نفسه بالنفى الاختيارى من مصر؛ لأنه لا يستطيع أن يتركها وحدها فى نيويورك ولا يستطيع أن يصطحبها معه إلى مصر، فإذا اضطرته ظروف عمله إلى السفر مع زوجته لمدة يوم أو يومين داخل أمريكا، أعطى مفتاح شقتها «لصديقه» الشاب المصرى الطيب، الذى يملك مكتبًا سياحيًّا صغيراً؛ لكى يطمئن عليها ويلبى لها مطالبها خلال غيابه.

فكيف لا أتأثر وأنا أفارقه بعد أربعة أيام، لازمنى خلالها معظم أوقات النهار والليل وتحادثنا خلالها فى مختلف الشئون العامة والخاصة؟ لقد صافحته مودعًا وتعانقنا بحرارة فى محطة السكة الحديد بنيويورك.. وأنا أستعد لركوب القطار متجهًا إلى واشنطون، وعيناه تتنديان بالدمع.. وكلانا يتساءل فى أعماقه هل ستجمع الأيام بيننا مرة أخرى؟.

وفارقت «هشام» الطيب المتدين البار بأبويه وأسرته، والذى لا تشعر معه لحظة أنه يعيش فى أمريكا منذ عشر سنوات، فلا روحه تغيرت ولا أصابت لسانه لكنة المتأمركين وزوجته الشابة الطيبة المحجبة فى مدينة أمريكية، لا يدخلها السياح ولا تعرف الأجانب ولم تعتد رؤية المحجبات كغيرها من المدن الكبرى، فغادرتهما بعد أن لازمانى ثلاثة أيام فى مدينة أوماها بولاية نبراسكا بالوسط الغربى من أمريكا؛ حيث لايقيم بها من المصريين إلا عدد يعد على أصابع اليد الواحدة،

ولا يعرفان لهما أصدقاء سوى شاب مصرى اسمه هشام، هو الآخر وزوجته الأمريكية الطيبة.. وكلا «الهشامين» أستاذ بكلية الهندسة والفنون الجميلة بجامعة أوماها، ومن النابغين علميًّا والموعودين بمستقبل كبير فى مجال الكمبيوتر، وودعت هشام وشيرين فى المطار وداعًا حارًّا، وأنا أستعد لركوب الطائرة إلى بالم بيتش بولاية فلوريدا فى أقصى الجنوب والتفتُّ إليهما.. وأنا أستعد لعبور حاجز الدائرة الجمركية فرأيتهما شابين صغيرين غريبين فى بلاد غريبة.. ولن يستطيعا العودة لمصر فى إجازة قبل ثلاث سنوات، حتى تنتهى أوراق إقامة شيرين ويحق لها العودة لدخول أمريكا مرة أخرى، فرق قلبى لهما وجاش صدرى بإحساس الإشفاق عليهما.. لوحت لهما بيدى، وأنا أحاول اغتصاب الابتسامة فلا أستطيع.. وباطنى يهتف بنفس السؤال: ترى هل نلتقى مرة أخرى؟.

وفارقت فى بالم بيتش، صلاح.. المهندس المصرى الشاب الناجح المتدين، الذى يحرص على صلاة الفجر كل يوم فينهض لأدائها فى الخامسة ويعود للنوم حتى السادسة والنصف، ثم يبدأ عمله فى تصميم المبانى فى المكتب الهندسى الذى يعمل به، والذى يطهو كل حين فى مسكنه طعامًا مصريًّا، يتفنن فى صنعه ثم يحمله إلى المسجد البعيد، ويقود سيارته إليه لمدة ساعة لكى يدعو إلى طعامه رواده من المصلين توثيقًا لعرى المحبة بينهم.. وقد لازمنى هو الآخر ثلاثة أيام فى مدينته الصغيرة الجميلة «فورت لودريل»، لم ننقطع خلالها عن الحديث والحكايات عن مصر وأمريكا والدنيا وكل شىء، ثم كان لابد من الفراق مهما طال اللقاء فحملنى بسيارته إلى المطار.. واحتضننته مودعًا وعبرت حاجز الجوازات ثم التفت إليه هاتفًا بعبارة التوحيد، التى تعبر عن أمل الإنسان فى تكرار اللقاء والتواصل من جديد مع من يفارقه، فقلت له بصوت مسموع: **لا إله إلا الله**، وأجابنى من خلف الحاجز بصوت عال: **محمد رسول الله**، فكان صوته الرزين هو آخر ما علق بذهنى من شخصيته ومن مدينته، ومن الولاية التى يعيش فيها.

وفارقت غير هؤلاء كثيرين وكثيرين.. ففارقت «محمود» صديقى المقيم فى باريس، والذى تولى عنى ترتيب رحلتى من باريس لأمريكا.. وصاحبنى فيها فى بدايتها فى نيويورك وواشنطن ثم افترقنا، فاتجه هو إلى الجنوب واتجهت إلى الغرب. وبعد قليل سأفارق «سيد وخالد» كما فارقت من قبل فى كل مدينة زرتها أحباء وأصدقاء، تعرفت عليهم وأحببتهم وتشاربت معهم كؤوس الصفاء والوفاء، كأننى بحار يطوف بموانى الحياة ويودع مرغمًا فى كل ميناء صديقًا عزيزًا، ويتوجع كل مرة عند الفراق كأنما لم تكسبه خبرة الأيام شيئًا، ولم يضعف التكرار عنده من حرارة الانفعال.. أو كأننى لم أحفظ منذ صباى «إنذار» الشاعر العربى القديم لى وللجميع:

ـ صاحب كما شئت فأنت مفارق!.

أو كأننى أكرر من حيث لا أدرى تجربة الشاعر القديم، الذى قال:

خلقت ألوفا لو رجعت إلى الصبا لفارقت شيبى موجع القلب باكيًا

مع أن المشيب شيء لا يحزن على فراقه أحد، لكن الإنسان يحزن لفراق الأحباء والأصدقاء فى كل زمان ومكان ولا عجب فى ذلك.. أليست الصحبة الطيبة المخلصة هى عزاء الإنسان فى هجير الحياة ودرعه الواقى ضد الوحدة والغربة النفسية.. والاكتئاب؟ وألم يقل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وهو الرجل القوى الذى كانت ترتعد منه فرائص الجبابرة: لولا ذكر الله. ولولا إخوة يلتقط منهم الحديث كما يلتقط أجود الثمر من الشجر لآثرت الموت على الحياة.

وهل ترانى تجاوزت الحق حين كتبت ذات مرة ناصحًا نفسى وغيرى: املأ عينيك من كل الأشياء.. وتمتع بوجوه الأهل والأحباء والأصدقاء.. وأطل النظر إليها بقدر ما استطعت فربما لا تراها مرة أخرى!.

انتهت الأغنية الشعبية التى أثارت شجونى.. ووصلت السيارة إلى المطار،

وأنهيت إجراءات الحقائب والتذكرة، فاتجهنا إلى كافتيريا المطار لنشرب قهوة الوداع ونستمتع بلحظات اللقاء الأخيرة قبـل الفراق. . فشتان ما كان بين إحساسى حين جلسنا فى نفس المكان منذ حوالى شهر لنشرب نفس القهوة بعد وصولى بلحظات لباريس. . ووجوهنا يومئذ ضاحكة مستبشرة باللقاء، وإحساسى هذه المرة ونحن نستعد لفراق لا نعرف كم سيطول، ونحتسى القهوة فى صمت ثقيل.

وحين آذن الوقت بالرحيل، قال لى «سيد»:

ـ لم يعد يجتمع شملنا نحن الأصدقاء القدامى فى باريس كأيام الصفاء القديمة إلا حين تجئ إلينا. . فمتى سترجع مرة أخرى؟.

فابتسمت متذكرًا ختام قصيدة بيرم التونسى الجميلة عن الفندق الشعبى، الذى أمضى به الليل ذات مرة بالقاهرة، وسأله صاحب الفندق فى الصباح وهو يتسلم منه الأجرة عما إذا كان سيرجع للمبيت فيه أم لا، فأجابه بيرم التونسى بلغته الشاعرية الشعبية الجميلة:

ـ البياتة دى عدّت

ـ . . واللقا ده نصيب!.

نعم يا صديقى وياكل الأصدقاء فى كل مكان. . اللقاء مرة أخرى «نصيب» وقدر مقدور فى علم الغيب، فدعونا نأمل فيه وندعو الله سبحانه وتعالى أن يكرره مرات ومرات. . آمين يارب العالمين.

* * *

٣٧

ماء العودة!

أزف يوم الرحيل. . وأمضت أمى تلك الليلة فى تحضير الحقيبة، التى سأحملها معى، أما أنا فقد قضيت عشية الرحيل ليلة بيضاء بلا نوم، وجاءت أمى لتوقظنى فى الخامسة صباحًا لأن الأتوبيس سوف يتحرك فى السادسة وكان أبى نائمًا فرافقتنى أمى إلى السلم وعند عتبة الباب، وبعيون ممتلئة بالدموع حمَّلتنى حقيبتى وهى توصينى بالجد والاجتهاد. . ثم أسلمتنى لعناية الله، بعد أن صبت على قدمى كما تقضى التقاليد. . ماء العودة!.

بلغت فى قراءتى لمذكرات المفكر الجزائرى الراحل مالك بن نبى هذا المشهد المؤثر فى صباه المبكر، حين رحل عن بلدته الصغيرة «تبسه» إلى مدينة «قسنطينة» ليلتحق بمدرسة داخلية فيها، فتوقفت أمام تعبير «ماء العودة» الجديد على مسامعى. . وتأملته طويلاً وعرفت من قراءتى للمذكرات أن أمه كانت تحرص على اتباع هذا التقليد الجزائرى القديم معه، كلما سافر من بلدته بعيدا عنها فتصب على قدميه. . وهو على عتبة باب البيت بعض الماء. . أملاً أن يعود مرة أخرى إلى بيته وأهله، وفى ألا يكون سفره. . سفراً بلا عودة. . كما يهجس دائمًا هاجس الخوف القديم للإنسان كلما رحل عنه عزيز. . أو رحل هو عنه؛ فالخوف من الفراق هاجس قديم لدى الإنسان، وهو بشكل أو بآخر جزء أو انعكاس لخوفه الأزلى من الفراق الأكبر، الذى لا لقاء بعده إلا بين يدى رب القلوب. ولأن الإنسان ضعيف أمام مخاوفه. . فهو يتلمس الاطمئنان. . والاستبشار فى طقوس وتمائم مختلفة كطقس ماء العودة الجزائرى، وحين

سافرت إلى أوروبا لأول مرة فى سن الشباب، جمعتنى أيام انتظار السفينه المصرية، التى ستأتى لتحملنا من فينيسيا إلى بلادنا بعدد من الطلبة والشباب المصريين، الذين كانوا فى أجازة صيف فى أوروبا.. وامتد الحديث بيننا فى ليالى الصيف والملل والانتظار.. وأخرج أكثر من واحد محفظة نقوده ليرينى صور أبيه وأمه وإخوته أو خطيبته، فوجدت فى محافظهم جيعًا قصاصة صغيرة من الورق تحمل نصف شهادة التوحيد ومكتوبًا عليها «لا إله إلا الله». أما النصف الآخر منها، وهو «محمد رسول الله» ففى محافظ وجيوب آبائهم وأمهاتهم وخطيباتهم، فقد كتبوا الشهادة كاملة على ورقة صغيرة وقطعوها وحملوا نصفها معهم.. وبقى النصف الآخر فى بلدهم مع أعزائهم.. لكى يجمعهم الله مرة أخرى بأحبائهم، وتكتمل الورقة المقطوعة.. والصيغة المباركة.

وخلال رحلة العمر، عرفت نماذج أخرى من تقليد ماء العودة.. تختلف فى الطقوس.. وتتحد فى الهدف، وهو الدعاء إلى الله أن يرد الغائب ويجمع بينه ومن يحب؛ فعرفت صديقًا تطالبه زوجته كلما خرج إلى السفر أن يقف على عتبة المسكن بعد إنزال الحقائب وتوديع الزوجة والأطفال، ويشير بيده إلى داخل الشقة ويقول بصوت مسموع:

ـ اللهم إنى قد أودعت فى هذا المكان قول لا إله إلا الله ! فإذا لم يفعل، وهيهات أن تسمح له بالسفر دون أن يفعل، اكتأبت وتشاءمت وقضت فترة سفره وهى فى أسوأ حال تتناوبها المخاوف والهواجس وتقض مضجعها، وقد تناقشت مع زوجة صديقى فى هذا التقليد، فلم أفهم منها سوى أنها تستبشر به.. ويطمئن خاطرها إلى أن فراقها مع زوجها المسافر سيكون مؤقتًا.. وأنه سيعود من سفره إليها وإلى أطفاله سالمًا غانمًا.

وعرفت صديقًا آخر تحرص زوجته على اتباع تقليد آخر معه عند السفر لا يختلف عن تقليد ماء العودة فى دوافعه.. فعند كل سفر له يودعها ويودع أبناءه ويخرج من باب المسكن.. ويتجه إلى المصعد.. فتلاحقه بالنداء لكى

يرجع.. فيرجع مرة أخرى ويخطو فوق عتبة المسكن، ويدخل مسكنه للحظات ثم يخرج إلى سفره صامتًا بلا وداع جديد.. ولكن بأمل العودة واجتماع الشمل مرة أخرى.. فرجوعه مرة أخرى بعد الوداع.. يرمز إلى الأمل فى عودته من السفر الذى يتجه إليه.. وفى البداية كان صديقى هذا يستنكر فى باطنه هذا التقليد.. ويستجيب له إرضاء لزوجته وطمأنةً لهواجسها.. ثم شيئًا فشيئًا أصبح يستبشر به.. ويطمئن إليه ويخشى أن تنساه زوجته ذات سفر، فيتشاءم وتفسد رحلته، بل وصارحنى ذات مرة أنه قد أصبح يحس بأنه فى المرة التى ستنسى فيها زوجته أن تناديه للعودة ودخول المسكن مرة أخرى.. سيكون سفره بلا عودة ولا لقاء جديد.

وعرفت صديقًا آخر لا يكتفى بتقليد واحد.. وإنما يجمع بين أكثر من تقليد يحرص على اتباعه عند السفر وتحرص عليه معه زوجته، فهما يقطعان الورقة التى يكتبان عليها الشهادة، ويحتفظ كل منهما بنصفها.. ويقف على عتبة البيت ويودع فى مسكنه قول «لا إله إلا الله»، ويقبل زوجته وأطفاله ويخرج مترقبًا نداء زوجته له للعودة إلى داخل المسكن مرة أخرى، قبل أن يغادره إلى سفره، وحين يغادر مسكنه للمرة الثانية تقف زوجته على السلم ترقبه وهو ينزل الدرج، وتقرأ الآية الكريمة من سورة القصص بصوت مسموع ثلاث مرات: «إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد».

ولاعجب فى ذلك ولاغرابة، فالخوف من الفراق الأبدى هاجس يطارد الإنسان فى كل مراحل عمره.. ويزداد إحساسه به عند السفر والرحيل إلى مكان بعيد.. وهو يخشى دائمًا إذا سافر ألا يعود، وإذا عاد ألا يجد من يحبهم فى انتظاره.. وإذا وجدهم ألا يجد مشاعرهم خالصة له كما كانت قبل الرحيل.

لهذا فهو فى خوف أبدى من الفراق.. وتقلبات الأيام ومفاجآتها وتقلبات المشاعر والقلوب، ويحاول دائمًا أن يهدئ مخاوفه ويطمئن خواطره بالاستبشار بهذه التمائم.. والتقاليد.

ومرض الحنين إلى الوطن مرض قديم، لم يعرف الأطباء أعراضه إلا فى العصر الحديث، وأعراضه هى الاكتئاب والحساسية المفرطة وفقد الحماسة لأى شيء.. وفقد القدرة على الاستمتاع بثمار الغربة المادية، والإحساس بلا جدوى الحياة وسرعة الاستجابة لدواعى الحزن والبكاء، وكلها أعراض نفسية، قد تتحول إلى أعراض جسمية لدى البعض، حين يشتد عليهم المرض وتتمثل فى الخمول.. وقلة النشاط.. وربما ملازمة الفراش أيضًا بلا سبب عضوى واضح.

و«الروشتة» التى يكتبها الطبيب لمريض الحنين، حين يصل إلى حد ملازمة الفراش مختصرة ومعروفة، وهى: عد إلى بلدك نهائيًا، أو عد إليه فى أجازة طويلة وزر موطنك وأهلك وأصدقاءك وأحباءك، واسترجع معهم ذكريات الصبا والشباب.. وأعد شحن بطارية الإرادة والحياة داخلك، ثم أرجع إلى مهجرك مزودًا بطاقة أكبر من الاحتمال!.

أما لماذ يحتاج الإنسان دائمًا إلى أن يرجع إلى أرضه وموطنه، فلقد أجاب عن هذا السؤال «يان» بطل مسرحية «سوء التفاهم» لألبير كامى، فقد سألته زوجته لماذا يترك كل شيء فى مهجره، ويتخلى عن استقرار حياته ونجاحه ويصطحبها فى رحلة طويلة شاقة ليبحث عن بلدته الصغيرة فى تشيكوسلوفاكيا، والتى لا يكاد يتذكر اسمها أو الطريق إليها، بعد أن رحل عنها من ٢٥ عامًا.

نعم.. لماذا يفعل ذلك.. وماذا سيحققه ذلك له من فائدة، أو سيضيف إليه وإلى حياته.. سوى عبء السفر وتكاليفه.. والأعباء العائلية التى تنتظره إذا وجد أمه وشقيقته اللتين هجرهما منذ سنوات؟ فيجيبها «يان» قائلاً: لأننا لا نسعد

أبدًا في المنفى.. ولا في النسيان ولا نستطيع أن نظل غرباء للأبد.. لهذا أريد أن أجد بلدى مرة أخرى.. وأن أسعد كل من أحب.

هذا صحيح.. فالإنسان لا يسعد في المنفى.. ولا في الغربة الأبدية مهما توافرت له فيها كل أسباب السعادة، ولا يسعد أيضًا في «النسيان»؛ أى في نسيان من يحتاجون إليه.. ونسيان أهله وأصحابه وأعزائه وبلده.. ومهد طفولته وصباه.

وإذا كان السجن الانفرادى هو أقصى عقوبة يمكن توقيعها على الإنسان، فالحكم عليه بالنفى من بلده وأهله وأحبائه أشد عليه من عذاب الجحيم.

ومن هنا تأتى مخاوفه من البعد.. والفراق.. ومخاوف أحبائه من ألا يجتمع شملهم به مرة أخرى.

فنداء العودة للوطن يراه بعض العلماء «حاسة» أخرى من حواس الإنسان، تحكم تصرفاته وتوجهها، وهى حاسة يشترك فيها الإنسان مع الحيوان والطيور والأسماك، وكلها ـ لحكمة لا يعلمها إلا خالقها ـ تشقى بالبعد عن موطنها وتسعد بالعودة إليه.

وفى عالم الطيور والأسماك، ترتفع هذه الحاسة لدى بعض أنواعها إلى مستوى الغريزة، التى تحفزها للعودة إلى وطنها فى رحلات بطولية لا تخطىء خلالها طريق العودة أبدًا، فعصفور الهزار مثلاً ـ كما يقول لنا كريس موريسون فى كتابه «العلم يدعو إلى الإيمان» ـ يهاجر جنوبًا فى الخريف ويعود إلى عشه فى الشمال إذا جاء الربيع، دون أن يخطىء طريقه إليه أبدًا وبلا بوصلة تهديه إليه. وفى شهر سبتمبر من كل عام تطير أسراب من معظم أنواع الطيور الأمريكية إلى الجنوب لمسافة حوالى ألف ميل.. وتعود إلى موطنها فى الربيع، دون أن تفقد طريقها.. والحمام الزاجل لا يفقد طريقه أبدًا للعودة إلى موطنه، فإذا اختلط عليه الأمر خلال رحلة العودة بسبب سماعه أصوات بعض الطيور فى

أقفاصها، فإنه يحوم حولها لحظة ثم يسترد نفسه ويرجع إلى طريقه لموطنه، بل إن النحلة مهما اشتدت عليها الريح وأبعدتها عن خليتها، فإنها تجد خليتها بعد طول بحث وتعود إليها.

ونفس الحال مع أسماك السلمون التى تمضى سنوات فى البحر الواسع، ثم ترجع غريزيًا وتلقائيًا إلى نهرها الخاص الذى خرجت منه، فإذا دخلت جدولاً آخر خطأ أدركت أنه ليس نهرها، وعادت لشق طريقها من جديد إلى مهدها الأول.

أما ثعابين الماء فهى لغز من ألغاز نداء العودة للوطن، الذى يحرك الإنسان والطيور والأسماك، فهذه المخلوقات العجيبة تهاجر متى اكتمل نموها من مختلف الأنهار، فإذا كانت فى أوروبا مثلاً.. فإنها تقطع آلاف الأميال إلى المياه الضحلة جنوب جزيرة برمودة فى المحيط الأطلنطى. وإذا كانت فى أمريكا قطعت نفس الرحلة إلى نفس المكان وهناك تبيض وتموت.. أما صغارها التى لا تملك أية وسيلة تعرف بها موطنها الأصلى، فإنها تعود أدراجها وتجد طريقها إلى نفس الشاطئ الذى جاءت منه أمهاتها، لهذا فلم يحدث قط أن تم اصطياد ثعبان أوروبى فى المياه الأمريكية.. أو اصطياد ثعبان أمريكى فى المياه الأوروبية!

وسبحان من فطر الإنسان والحيوان والطيور والأسماك على حاسة العودة إلى الوطن والحنين إليه.

* * *

كتب للمؤلف

١- أصدقاء على الورق	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ١٩٩٨
٢- يوميات طالب بعثة	أدب رحلات	الطبعة الأولى ١٩٨٧
٣- هتاف المعذبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ١٩٩٨
٤- صديقى لا تأكل نفسك	مقالات وصور أدبية	الطبعة السادسة ٢٠٠١
٥- نهر الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٦- العصافير الخرساء	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٧- صديقى ما أعظمك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٨- افتح قلبك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
٩- اندهش يا صديقى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠١
١٠- أزواج وزوجات	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة ٢٠٠١
١١- أرجوك لا تفهمنى	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
١٢- رسائل محترقة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
١٣- أماكن فى القلب	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
١٤- لا تنسنى	قصص رومانسية	الطبعة الثالثة ٢٠٠٠
١٥- نهر الدموع	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ١٩٩٦
١٦- أقنعة الحب السبعة	قصص إنسانية	الطبعة الرابعة ٢٠٠٠
١٧- مكتوب على الجبين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
١٨- أوراق الليل	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
١٩- طائر الأحزان	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٢٠- أعط الصباح فرصة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٢١- الحب فوق البلاط	قصص قصيرة	الطبعة الثانية ٢٠٠٠

٢٢- سائح فى دنيا الله	أدب رحلات	الطبعة الثالثة ٢٠٠١
٢٣- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٢٤- صور من حياتهم	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ١٩٩٧
٢٥- أهلاً.. مع السلامة	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٢٦- قدمت أعذارى	خواطر وتأملات	الطبعة الثانية ٢٠٠١
٢٧- أيام السعادة والشقاء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ١٩٩٩
٢٨- حصاد الصبر	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ٢٠٠١
٢٩- صوت من السماء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ٢٠٠١

• كتب للمؤلف من إصدارات «الدار المصرية اللبنانية»

٣٠- العيون الحمراء	قصص إنسانية	الطبعة الخامسة ١٩٩٨
٣١- وقت للسعادة.. وقت للبكاء	مقالات وصور أدبية	الطبعة الرابعة ٢٠٠٠
٣٢- شركاء فى الحياة	قصص إنسانية	الطبعة الثالثة ١٩٩٦
٣٣- خاتم فى إصبع القلب	صور أدبية	الطبعة الثالثة ١٩٩٩
٣٤- وحدى مع الآخرين	مقالات	الطبعة الثالثة ١٩٩٩
٣٥- ساعات من العمر	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٣٦- عاشوا فى خيالى	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة ٢٠٠٠
٣٧- ترانيم الحب والعذاب	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٣٨- الثمرة المرة	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٣٩- دموع القلب	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٤٠- أرجوك أعطنى عمرك	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثانية ٢٠٠٠
٤١- من المفكرة الزرقاء	صور ومقالات أدبية	الطبعة الأولى ٢٠٠٠
٤٢- الأرض المحترقة	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ٢٠٠٠
٤٣- سلامتك من الآه	مقالات وصور أدبية	الطبعة الثالثة ٢٠٠١
٤٤- هو وهى والآخرين	قصص إنسانية	الطبعة الثانية ٢٠٠١

٤٥- حكايات شارعنا	سيره ذاتيه	الطبعة الثانية ٢٠٠٢
٤٦- قالت الأيام	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ٢٠٠٢
٤٧- الرسم فوق النجوم	صور ومقالات أدبية	الطبعة الأولى ٢٠٠٢
٤٨- تحية المساء	قصص إنسانية	الطبعة الأولى ٢٠٠٢



فهرست الكتاب

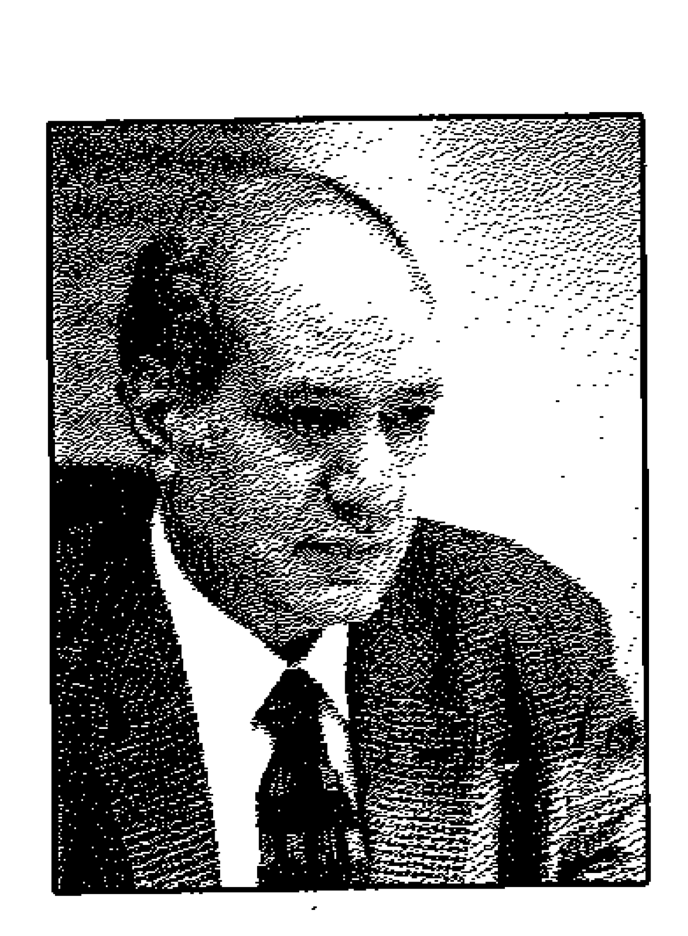
هذا الكتاب ٧
الأرض البعيدة ٩
الدنيا فوق «ظهر» متحرك! ١٧
طائر.. فى الهواء! ٢٣
سياحات حرة.. منفردة! ٣١
رابطة العشاق ٣٧
أحلام القاهرة ٤٥
«عزال» المدينة! ٥٣
حمام بالماء الساخن! ٦١
وأنتم.. بقر! ٦٩
باريس.. الحب.. والعذاب! ٧٥
ولكنهم لا يشربون الشاى! ٨١
غريب فى روما! ٩٧
الشمس على يمينى.. والقمر على يسارى! ١٠٩
ليالى «التلج».. فى فيينا! ١٢١
أمريكا من الباب الخلفى ١٢٧
الرقص.. فوق الألم! ١٣٥
المدينة الصفراء ١٤٧
.. فى «مجاهل» أمريكا!! ١٥٧
ظننت أنى لن أراك! ١٦٥

أكره أمى! ١٧٣
بيت من زجاج! ١٨١
البلاد السعيدة! ١٨٩
والحزن. . لا يسدد ديونًا! ١٩٧
دخلنا. . البحر المالح! ٢٠٣
ولسوف تتبعك! ٢٠٩
زوج متسامح جدًا! ٢١٥
ممنوع الإزعاج ٢٢٣
وداعًا للوقار ٢٣١
مقعد فى السماء ٢٣٩
يوميات الفخر. . والبرد. . والتقاليد. ٢٤٥
اليوم الضائع! ٢٦١
إقلق كثيراً فى البداية! ٢٦٧
هيروشيما يا حبيبى! ٢٧٧
من رأى الشاعر ٢٨٣
هنا تُسكب العبرات ٢٩١
. . إلا فراق الحبايب! ٢٩٩
ماء العودة! ٣٠٥

سائح فى دنيا الله

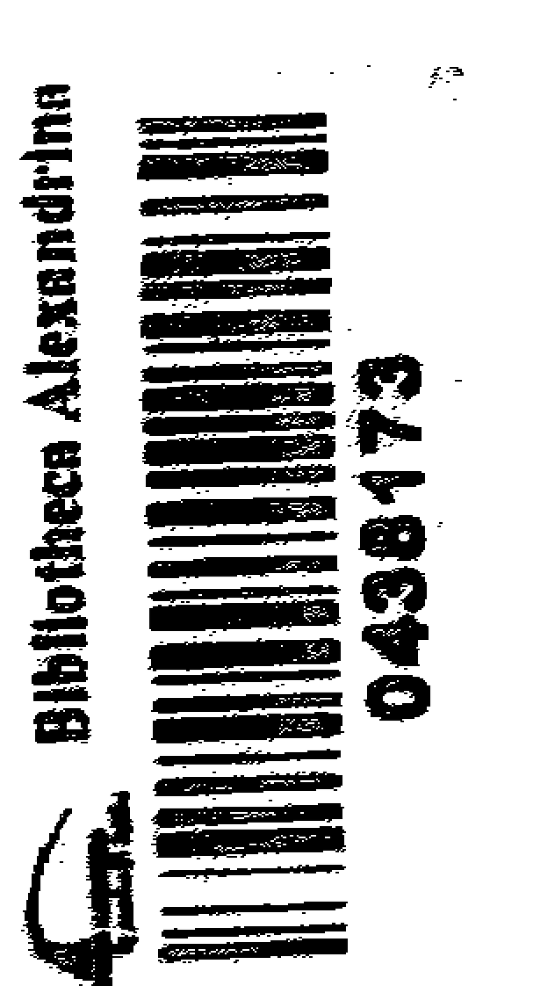
من منا لا يقضى حياته بأسرها سائحا فى دنيا الله.. ومن منا لاتتراوح سياحته ــ كجسدٍ ــ بين سهول وهضاب وجبال وبحار وأماكن وأشخاص وبلاد ومدن وشوارع .. ومن منا لاتتراوح سياحته ــ كروح ــ بين آلام وأفراح .. نجاحات وإخفاقات .. أمل وقنوط ... لقاء وفراق ... ومن منا تخلو حياته من موانى كثيرة ومرافىء أكثر ... تلاقى فيها بأشخاص وودع فيها آخرين ... كلنا هذا السائح .. إننا بلا شك ــ بغض النظر عن أسماء البلاد والأشخاص التى أوردها المؤلف فى سياحته العامرة فى تسعة وثلاثين مشهدا سياحيًا رائعا ــ نقرأ أنفسنا فى صفحات الكتاب ، ونبصر شخوصنا .. ونستلهم ذكرياتنا ، قربت أو بعدت مع ذكريات المؤلف ...

لقد استطاع الأستاذ عبد الوهاب مطاوع بسلاسة قلمه وحديثه النفسى الصافى الضافى الشفاف أن يجعلنا نعيش معه ــ ومع أنفسنا قبلها ــ رحلة من أجمل رحلات العمر ... فى دنيا الله ...



- مدير تحرير جريدة الأهرام ورئيس تحرير مجلة الشباب .
- حصل على جائزة مؤسسة على أمين ومصطفى أمين الصحفية عام 1992 كأحسن كاتب صحفى يكتب فى المسائل الإنسانية .
- يكتب باب (بريد الجمعة) الإنسانى فى الأهرام كل أسبوع بانتظام منذ عام 1982 ، ويشرف على باب بريد الأهرام .
- صدر له 51 كتابا ، يتضمن بعضها نماذج مختارة من قصص بريد الجمعة الإنسانية وردوده عليها ، ويتضمن البعض الآخر قصصا قصيرة وصورا أدبية ومقالات فى أدب الرحلات .
- له ثلاث مجموعات قصصية هى : (أماكن فى القلب) و(لاتنسنى) و (الحب فوق البلاط) .

الدار المصرية اللبنانية




6 222006 300838